جامعة اليرموك
كلية الآداب
قســـم التاريـــــخ

نـابـلـس في العصر المملوكي

٦٤٨-٩٢٣هـ (١٢٥٠-١٥١٧م)

رســـالة ماجستـــيـر

اعداد

رئيسة عبد الفتاح طلب العزة

اشراف

الدكتور سليمان خرابشة

١٤١٦هـ/١٩٩٥م

نابلس في العصر المملوكي

٦٤٨-٩٢٣هـ (١٢٥٠-١٥١٧م)

اعداد

رئيسة عبد الفتاح طلب العزة

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة اليرموك

١٤١٦هـ/١٩٩٥م

نابلس في العصر المملوكي

٦٤٨-٩٢٣هـ (١٢٥٠-١٥١٧م)

اعداد

رئيسة عبد الفتاح طلب العزة

بكالوريوس في التاريخ، جامعة اليرموك ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م)

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في جامعة اليرموك تخصص تاريخ

أعضـــاء لجنــة المناقشــة

الدكتور/ سليمان خرابشة	مشرفاً ورئيساً: ....
الأستاذ الدكتور/ محمد عيسى صالحية	عضـــــواً: ....
الأستاذ الدكتور/ يوسف غوانمة	عضـــــواً: ....
الدكتور/ صالح أبو دياك	عضـــــواً: ....

١٤١٦هـ/١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى والـديّ الأعـــزاء وفاءاً لما قدمـــاه لي

إلى زوجـــي وابني أيهـــم

وإلى أشقّائــي الأعــزاء

أهدي هذا العمل

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله له الحمد والمنه أولاً واخراً ان اعانني على انجاز هذا العمل الذي اسأله تعالى ان يجعله خالصاً لوجهه الكريم، واذا كان لا بد للشكر من كلمة فإنه يسعدني ويشرفني ان تقدم بخالص شكري وعظيم امتناني وتقديري وعرفاني بالجميل لكل الذين تفضلوا بتقديم العون والمساعدة لي سواء بشكل مباشر او غير مباشر واخص بالذكر أساتذتي الذين قدموا لي مساعدتهم بغير حدود وعلى راسهم استاذي المشرف الدكتور نعمان جبران الذي اعطى لهذا العمل من وقته وجهده الكثير حتى خرج بهذه الصورة، ولقد حالت ظروف سفر استاذي الى الخارج من متابعته لهذا العمل حتى نهايته، فتابعه واشرف عليه مشكوراً استاذي الدكتور سليمان خرابشة الذي اكن له شكري وتقديري وعرفاني على مساعدته وتلطفه بقبول متابعة الاشراف وقد امدني من علمه وخلقه الكثير فتابع الاشراف على رسالتي وزودني قبل ذلك بالعديد من المصادر والدراسات التي اسهمت باخراج هذا العمل بهذا الشكل فجزاه الله عني كل خير.

ولا يفوتني هنا الا ان اتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني وعرفاني بالجميل لاستاذي الدكتور سعيد البيشاوي الذي اعطاني من وقته وجهده الكثير وفتح لي مكتبته فامدني بمجموعة قيمة من المصادر وتكرم بقراءة بعض فصول هذه الرسالة وابدى ملاحظاته القيمة حولها فافدت من ارائه واقتراحاته فجزاه الله عني كل خير. كما وأتقدم بجزيل الشكر للدكتور وليد العريض لقيامه على ترجمة بعض أجزاء من دفتر مفصل لواء نابلس (أرشيف مجلس الوزراء العثماني). اما استاذي الدكتور محمد صالحية فله شكري وتقديري على مساعدته القيمة لي اثناء اعداد هذه الرسالة حيث تفضل بقراءة بعض فصولها وابدى عليها ملاحظاته القيمة فله مني كل الشكر على مساعدته وعلى تفضله بقبول مناقشة هذه الرسالة. وأتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور يوسف غوانمة على قبول مناقشة هذه الرسالة. وأتقدم بجزيل الشكر للدكتور صالح أبودياك على قبول مناقشة هذه الرسالة.

كما اتقدم بخالص الشكر للعاملين بمركز العزه للكمبيوتر لما بذلوه من جهد ومساعده في اخراج هذه الرسالة بهذه الصورة.

والله ولي التوفيق

الباحثة رئيسة العزة

المحتويات

الموضوع | **الصفحة**

شكر وتقدير .... هـ

المحتويات .... و-ط

الاختصارات المستخدمة في الرسالة .... ي

مقدمة .... ك-ن

دراسة تحليلية نقدية لأهم المصادر .... س-ث

الفصل الأول: **جغرافية نابلس**

التسمية ٢

التضاريس ٥-٩

الجبال ٥

السهول ٨

الغور ٩

طبوغرافية نابلس ٣٠-٣١

الفصل الثاني: **الحياة السياسية في نابلس**

نابلس في العصر الأيوبي ٣٣

نابلس في ظل الصراع الأيوبي - المملوكي ٤٧

ولاية نابلس في العهد المملوكي ٥١

الفصل الثالث: **المجتمع النابلسي في عصر الدولة المملوكية**

أولاً: فئات السكان العرقية ٧٠
ثانياً: فئات السكان الدينية ٧٤
ثالثاً: أقسام السكان من حيث نمط المعيشة ٧٩
رابعاً: طبقات المجتمع النابلسي ٨٢
خامساً: مظاهر الحياة الإجتماعية في المجتمع النابلسي ٩٠
وسائل التسلية في المجتمع النابلسي ٩٤
الاعياد والاحتفالات في المجتمع النابلسي ٩٥
أثر الكوارث الطبيعية والأحداث السياسية
على سكان نابلس ٩٦

الفصل الرابع: **الحياة الإقتصادية في نابلس**

أنظمة ملكية الأرض ١٠٠
الإقطاع ١٠٠
الأملاك ١٠٢
الاوقاف ١٠٣
الإنتاج الزراعي في نابلس ١٠٤
النشاط الصناعي في نابلس ١١٠
صناعة السكر ١١٠
صناعة عصر الزيتون ١١١
صناعة الصابون ١١٢

النشاط التجاري في نابلس ١١٦
الضرائب في نابلس ١١٨
الأوزان والمكاييل والمقاييس في نابلس ١٢١
الأزمات الإقتصادية في نابلس ١٢٢

الفصل الخامس: **الحياة العلمية والعمرانية في نابلس**

لمحة عن الحياة العلمية في نابلس ١٣٢
المؤسسات التعليمية ١٣٩
أنواع التعليم وطبيعته ١٤٤
العلوم الدينية: ١٤٦-١٥٠
الفقه ١٤٦
علم الحديث ١٤٨
التصوف ١٥٠
علوم اللغة العربية والأدب والشعر ١٥١
الحياة العمرانية ١٥٤
أولاً: الجوامع ١٥٤
ثانياً: المنازل ١٥٧
ثالثاً: الحمامات العامة ١٥٩

الخاتمة ١٦٣

الملاحق

الملحق الأول ١٦٤
الملحق الثاني ١٦٥

قائمة المصادر والمراجع ١٦٦
المصادر ١٦٧-١٧٧
المراجع ١٧٨-١٨٩
الملخص بالعربية ١٩٠-١٩١
الملخص بالإنجليزية ١٩٢-١٩٣

الإختصارات المستخدمة في الرسالة

ت	=	ترجمة
ت	=	توفي
تح	=	تحقيق
ج	=	جزء
د.ت	=	دون تاريخ نشر
د.ن	=	دون ناشر
د.م	=	دون مكان نشر
ص	=	الصفحة
ط	=	الطبعة
ع	=	العدد بالنسبة للدوريات العربية
ق	=	قسم بالنسبة للمصادر المحتوية على عدة أقسام
كم	=	كيلومتر
كم٢	=	كيلومتر مربع
م	=	ميلادي
م	=	مجلد
م	=	متر
ملم	=	مليمتر
هـ	=	هجري
°	=	درجة
–	=	دقيقة

المقدمة

عرض وتحليل لبعض مصادر البحث

المقدمة

نابلس مدينة من المدن العربية الفلسطينية الموغلة في القدم ترجع في نشأتها إلى بناتها الكنعانيين الذين قاموا ببنائها في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد وقد تميزت عمن سواها من المدن بتاريخ محلي حافل ومتميز، وهو تاريخ وثيق الصله بتاريخ فلسطين العام.

و لم يقف هذا التاريخ عند مرحله معينه ينتهي بانتهائها وانما استمر مرحله بعد آخرى حتى اعطى لنابلس طابع الاستمراريه التاريخيه والحضاريه المتجددة والمتنوعة.

وتقع نابلس موضوع الدراسة في وسط فلسطين ، وتعتبر عاصمة الاقليم الجبلي ، وهي ذات موقع استراتيجي هام ، وتقوم وسط منطقه غنيه بينابيع المياه العذبه ، لذلك امتازت بالثراء عبر مراحلها التاريخية المختلفة.

ولما للعصر المملوكي من أهمية لكونه حافلا بالأحداث التاريخية المتلاحقه ، ولما لهذه الأحداث من اثار مختلفه على امتنا ، فقد وقع اختياري على نابلس لدراستها اذ لعبت دوراً له أهميته في تاريخ العصر المملوكي فكانت حلقة من حلقات الاتصال بين القاهرة ودمشق حاضرتي الدوله المملوكيه وساهمت بموقعها المتوسط في خدمة حركة القوافل التجارية المارة بنابلس لكونها تشكل الممر الضيق الذي يصل الغور بالبحر.

كذلك اسهمت في دعم المجهود الحربي لدولة المماليك وخاصه في عصر دولة المماليك الجراكسة، حيث ساهمت نابلس ذات الكثافه السكانيه العاليه في إعداد وتجهيز الحملات الحربيه المتجهه لقتال العثمانيين إضافه إلى الأموال الكثيره التي كانت تُجبى من السكان لتجهيز تلك الحملات.

ومن ناحية اخرى كانت نابلس تشكل قاعدةً ومنطلقاً للعديد من الثورات التي قام بها العربان ضد السلطة المملوكية.

ولتبيان الدور الذي لعبته ولاية نابلس في العصر المملوكي وما اسهمت به من اسهامات مختلفة في مسيرة الدولة المملوكية وقع اختياري عليها لدراستها في هذه الفترة خاصة وانها لم تدرس دراسة علمية كافية في هذا العصر.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول جعلت عنوان الفصل الاول جغرافية نابلس حيث تحدثت فيه عن موقع نابلس وتسمياتها المختلفة عبر العصور وتضاريسها ومناخها ومصادر المياه فيها ثم تناولت حدود الولاية في العصر المملوكي وتبعيتها الإدارية، وبعد ذلك تحدثت عن تاريخ نابلس وتعاقب الدول على حكمها حتى نهاية العصر الأيوبي.

أما الفصل الثاني فقد جعلت عنوانه الحياة السياسية في نابلس في العصر المملوكي وكانت البداية بالحديث عن نابلس في العصر الأيوبي نظراً للترابط الكبير في الأحداث بين العصرين بحيث أجملت تطور الأوضاع السياسية في نابلس في العصر الأيوبي ثم استعرضت الأوضاع السياسية لنابلس في العصر المملوكي منذ تأسيس الدولة وحتى سقوطها على يد العثمانيين.

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن المجتمع النابلسي في عصر الدولة المملوكية حيث أشرت إلى الفئات العرقية للسكان ثم الفئات الدينية ثم تناولت اقسام السكان في ولاية نابلس تبعاً لنمط المعيشة ثم أشرت إلى طبقات المجتمع النابلسي ثم تحدثت عن مظاهر الحياة الإجتماعية في المجتمع النابلسي من عادات وتقاليد ومعتقدات وألبسة السكان والإحتفالات التي احتفل بها

السكان في الولاية وأخيراً استعرضت أثر الكوارث الطبيعية والأحداث السياسية على سكان نابلس.

وتحدّثت في الفصل الرابع عن الحياة الإقتصادية في ولاية نابلس حيث أشرت إلى أنماط ملكية الأرض في الولاية ثم تحدثت عن الإنتاج الزراعي والصناعي والنشاط التجاري كما أشرت إلى الضرائب التي فرضت على السكان ثم تناولت الأزمات الإقتصادية التي تعرضت لها الولاية وما كانت تحدثه هذه الأزمات من آثار سلبية على بنية المجتمع النابلسي.

أما الفصل الخامس فقد خصصته للحديث عن الحياة العلمية والعمرانية في الولاية وأشرت إلى مؤسسات التعليم المختلفة في نابلس من مدارس ومساجد وزوايا وقد لفت نظر الباحث قلة هذه المؤسسات في نابلس رغم اشتهارها بأنه خرج منها كثير من الأعيان والعلماء، وقد أشرت في هذا الفصل إلى النشاط العلمي في الولاية وفي الشطر الثاني من الفصل تحدثت عن المنشآت العمرانية الباقية في نابلس من العصر المملوكي.

وقد ضمنت هذه الدراسة عدة ملاحق لها صلة وثيقة بالموضوع وأهمها الملحق الأول وهو نص رسالة الناصر داود إلى عزالدين بن عبد السلام معزياً بقتلى المسلمين في نابلس أثر هجوم الداوية عليها، أما الملحق الثاني فهو نص وقفية ديراستيا على مصالح حرم سيدنا الخليل.

دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث

اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة مختلفة من المصادر الأساسية التي تشكل مادتها ركناً أساسياً في هذه الدراسة وحتى تسهل دراستها يمكن تقسيمها إلى المجموعات التالية:

أولاً: كتب الجغرافيا والرحلات.

١- **معجم البلدان**: لشهاب الدين أبي الفضل عبد الله ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وهو من المعاجم الجغرافية الهامة التي افاد البحث منها في التعريف بمدينة نابلس وما تبع لها من قرى واعمال وذلك فيما يتعلق بوصفها الجغرافي والبحث في خلفيتها التاريخية وبالرغم من وجود بعض المادة التي يوفرها ياقوت في معجمه في بعض المصادر الاصليه الا ان هذا لا يقلل من قيمة المعلومات التي أوردها ياقوت والتي تبقى على درجة من الأهمية لكونها ماده شامله وتقدم تصوراً جغرافياً عن شتى المواقع التي يعرف بها كما ان لديه إضافات وتعريفات لمواقع لم ترد عند غيره ومن هنا تأتي أهميتها.

إلا انه ورغم ذلك فأن مما يؤخذ على كتابات ياقوت في بعض الأحيان اتصافها بالطابع الاسطوري مما يعني ان المؤلف لم يتحرى الدقه عند تسجيل تللك المعلومات وما يهمنا في هذ الاطار المعلومات التي اوردها عن نابلس فرغم أهمية ما اورده ياقوت عن نابلس إلا ان ذلك لم يمنعه من ايراد بعض الاساطير وخاصه حين تحدث عن سبب تسمية نابلس بهذا الاسم مورداً رواية اسطوريه علق عليها في موضعه.

٢- **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**: لشمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد ابي بكر البناء المقدسى البشاري من أهل القرن الرابع الهجري ٣٧٥ هـ/العاشر الميلادي ويعد

هذا المصدر في طليعه المصادر الجغرافيه التي اعتمد عليها البحث وتأتي أهميـة مـن القائـه لمزيـد مـن الاضـواء ذات الأهميـة البالغـة علـى جغرافيـة نـابلس مـن حيـث الموقع،والمياه،والمناخ. كما امدنا بمعلومات اقتصادية هامة عن أهم المزروعات في نـابلس، وفي غيرها من المدن الفلسـطينية، واشـار كذلـك إلى الصناعـات الـتي عرفتهـا نـابلس في القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي والتي بقيت مستمرة حتى فترة الدراسه.

أما في الجانب الإجتماعي فمعلوماتـه لا تقـل أهميـه عـن الجوانـب السـابقة فقـد انفرد دون سواه بالإشاره إلى اعتناق نصف سكان نابلس للمذهب الشـيعي، و لم ينسـى ان يشير إلى العادات والتقاليد التي عرفها المجتمع النابلسي،كما تحدث عن البسه السـكان وغير ذلك من معلومات.

ومما لا شك فيه ان معلومات المقدسي قد افادت البحث فائده عظيمة سـيما وان المؤلف من ابناء فلسـطين الذيـن عاشـوا فيهـا وسـجلوا ملاحظـاتهم عنهـا بدقـة متناهيـه فجاءت صادقة ومعبره عن عصره اصدق تعبير.

٣- **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر:** لشمس الدين ابـي عبـد الله محمـد بـن ابـي طـالب الانصـاري الدمشـقي المعـروف بشـيخ الربـوه (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) ويكتسـب هـذا المصدر أهمية لكون المؤلف قد عاش فترة من حياته في فلسطين شيخا للخانقاه الصلاحية في قرية حطين من ولاية طبريـة ثـم انتقـل إلى صفـد وبقـي فيهـا لحـين وفاتـه ومـن هنـا اكتسبت معلومات أهمية بالغة لا يمكن تجاوزها.

وقد أمدنا شيخ الربوة بمعلومات قيمة وبالغة الأهمية عن نابلس فاشار إلى موقـع المدينه وإلى أهم مزروعاتها وصناعاتها، كمـا تحـدث عـن صادراتهـا إلى البلـدان المختلفـة وكان في طليعه هذه الصادرات الزيت والصابون.

وتحـدث عـن جمـال المدينـة، وخصبهـا، ووصـف حماماتهـا، وانفـرد دون سـواه بالاشاره إلى شهرة نابلس بزراعة البطيخ الاصفر.

٤- **تحفه النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار**:لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي المعروف بأبن بطوطة ت(٧٧٩هـ-١٣٧٧م).

وقد بدأ ابن بطوطة برحلته في عام (٧٢٥هـ/١٣٢٥م) وقام بتدوينها عام (٧٥٣هـ/١٣٥٢-١٣٥٤م) وكانت مدينة نابلس من ضمن المناطق التي زارها وترك لها وصفاً جغرافيا مهماً اعتمد فيه على معلوماته ومشاهداته،ولم يكن نقّاله يعتمد على غيره وقد افاد البحث من وصف ابن بطوطه لمدينه نابلس من حيث الاشاره إلى مزروعاتها وخاصة اشجار الزيتون،وإلى المياة الجارية فيها،وما يصّدر منها من منتوجات وخاصة إلى دمشق وإلى شهرتها بصناعة حلوء الخروب الذي يصدر إلى مصر والشام.

ويضاف إلى ذلك مجموعة **الرحلات الاجنبية** التي وضعها حجاج ورحاله مسيحيون غربيون عند زياراتهم للاراضي المقدسة منها ما كان اثناء وقوع فلسطين تحت الاحتلال الفرنجي، ومنها ما كان معاصراً للدوله المملوكيه فمن الرحلات التي تمت اثناء وقوع فلسطين تحت الإحتلال الفرنجي رحلة الرحالة الروسي **دانيال الراهب** (٥٠٠-٥٠١هـ/١١٠٦-١١٠٧م) وتعد هذه الرحلة من الرحلات الهامه التي قام بها الرحالة الأوربيون إلى مملكه بيت المقدس ومرجع تلك الأهمية لكونها تمت في بدايات عهد الاستيطان الفرنجي في فلسطين ومن ثم احتوت على جوانب هامه على مستوى العلاقات السياسية والحربية بين المملكة الفرنجية والقوى الاسلامية المجاوره فضلاً عن الجوانب الإقتصادية وغيرها.

ويهمنا في هذه الرحلة وصف دانيال لنابلس حيث اشار اليها على ان بها كافة انواع المنتجات ووقعت بين جبلين شاهقين في الارتفاع وتحوي عدد من ينابيع المياه العذبه وبها العديد من الاشجار المثمره بشتى انواع الفاكهة، وتجلب بيت المقدس كثير من احتياجاتها منها كذلك ذكر انها تنتج الزيت بكميات وفيرة وتعد هذه الاشارة ذات أهمية اقتصادية اذ توضح شهرة نابلس بانتاج الزيت على نحو خاص كما اوضح

الصلات التجارية بين نابلس والقدس حيث ان كل مدينة من الشام اشتهرت بانتاج سلعة معينه كانت تصدرها للمناطق الأخرى التي احتاجتها.

ومن الرحلات الهامه التي عاصرت الدوله المملوكية رحله الالماني **بورشارد** الذي اقترن اسمه بجبل صهيون Burchard of Mount Sion بسبب اقامته على هذا الجبل عشر سنوات او أكثر وتعتبر رحلته "وصف الأرض المقدسة" من أهم كتب الرحالة الأوروبين ان لم تكن أهمها على الاطلاق وتكمن أهمية هذه الرحلة في ان مؤلفها تعرض لجميع مظاهر الحياه الإجتماعية والإقتصادية والعمرانية والسياسية في بلاد الشام فضلاً عن أنه استقر في الارض المقدسة وتجول فيها واصفاً مدنها وقراها وقلاعها وانهارها وعيونها وكان معاصراً لأوج عظمه دوله المماليك-ومن هنا تكمن أهمية معلومات بورشارد في هذه الدراسة-اذ قدم لنا وصفاً دقيقاً لمدينة نابلس وقراها وموقعها الجغرافي وهو من بين المصادر الجغرافيه القليله التي مكنتني من التغلب على مشكلة تحديد الحدود الإدارية لولاية نابلس المملوكيه،اذ رغم شهرة نابلس في مصادرنا إلا انها لم تحدد بشكل دقيق فجاء هذا المصدر وبين الحدود الإدارية بشكل جيد كذلك اشترك مع وليم الصوري في الاشارة إلى عدم امكانيه تحصين نابلس رغم وقوعها في منطقه وعره بين الجبال، كما تحدث عن سكان الاراضي المقدسة وطوائفهم ومللهم أما معلوماتة الإقتصادية فقد جاءت في غاية الأهمية والدقه وأعطانا تصوراً ممتازاً عن الاوضاع الإقتصادية المزدهرة في فلسطين بصورة عامه ومن ضمنها نابلس فتحدث عن مزروعاتها كالأشجار المثمرة والحبوب والخضروات وانفرد عن غيره بذكر معاصر السكر التي اقامها الفرنج في فلسطين وقدم وصفاً ممتازاً عن كيفية زراعة قصب السكر ومراحل عصره وتكريره، كما تحدث عن الصناعات ومنها الصابون والنبيذ ومن هنا جاءت معلومات ذات أهمية خاصة لا غنى للباحث عنها.

ثانياً: المصنفات الإدارية والموسوعية:

١- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١ هـ/١٤١٨م) ويُعد هذا الكتاب موسوعة ضخمة لمختلف المواضيع التاريخية والجغرافية والإدارية وقد وفر لنا الكثير من الوثائق الرسمية والمراسلات والمناشير والتواقيع وجاء إيراده لهذه الوثائق بهذه الكثرة بحكم عمله بديوان الإنشاء، وقد أمدّ صبح الأعشى البحث بمعلومات قيمة فمن هذه المعلومات اشارته إلى شهرة نابلس بالمياه، وإلى التقسيمات الإدارية في بلاد الشام وما حوته من نيابات وبالتالي تبعية نابلس لهذه النيابات وقد انفرد في موضعين من صبح الأعشى بالإشارة إلى ولاية نابلس بالمملكة النابلسية، والولاية الباقية على حالها بالإنفراد بالولاية، كما أشار إلى رتبة متولي نابلس من الأمراء المماليك، و إلى الضرائب التي كانت تؤخذ من الناس، كذلك تحدّث عن عقائد السمرة بشكل مستفيض وأشار إلى وجود رئيس طائفة السمرة في نابلس، كما أشار إلى نقابة الأشراف في نابلس، وتحدّث كذلك عن الأعياد التي احتفل بها السكان سواء من المسلمين أو اليهود أو النصارى.

ثالثاً: كتب التراجم

١- **الوافي بالوفيات**: لأبي الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) وهو من كتب التراجم ذات الأهمية الكبيرة والتي وفّرت عدد من التراجم لعدد من العلماء والأعلام والموظفين النابلسيين، وقد أفادتنا هذه التراجم في استخلاص معلومات ذات أهمية عن نابلس.

٢- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**: لمحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) وهو من المصادر المهمة والتي قدّمت لنا مجموعة تراجم لعدد من علماء وأعيان نابلس في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وقد حوت هذه التراجم مادة تتعلق بالجوانب السياسية والإدارية والعلمية والإجتماعية

والإقتصادية لنابلس إذ حصلنا من خلال هذه التراجم عن إشارات تشير إلى بعض الشخصيات الإدارية المرموقة التي تعاقبت على إدارة نابلس وما أصاب الوضع الإداري من تطور خاصة في حالة إضافة نابلس إلى غيرها من الولايات، كما أفاد البحث بالإشارة إلى من تولى وظائف معينة في نابلس بالبذل والبرطلة.

رابعاً: كتب السير والحوليات:

١- **الكامل في التاريخ:** لأبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني المعروف بإبن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م).

ويعتبر كتاب الكامل في التاريخ من المؤلفات التاريخية الضخمة التي اعتمد في تأليفها على كثير من المصادر المتخصصة والكتابات المدونة في البلاد المختلفة وحاول المؤلف أن يجمع عناصر الحادثة الواحدة التي تقع في عدد من السنين ليكتبها في سنة واحدة وان لم يوفق في كل الأحوال، وقد أمدّني المصدر أثناء الدراسة عن نابلس بالكثير من المعلومات التاريخية القيمة مثل الثورات التي قامت في فلسطين عامةً بما فيها نابلس في العصر العباسي وذلك عند الحديث عن التطور التاريخي لنابلس كما أشار إلى الصراعات التي قامت بين أبناء البيت الأيوبي، وإلى إقامة الملك الكامل محمد في نابلس أثناء مفاوضاته مع فردريك وترتيب الولاة عليها من قبله.

٢- **تاريخ بطاركه الكنيسة المصرية:** لكيرلس الثالث، إبن لقلق: وهو من بين المصادر العربية الهامة التي أعتمدنا عليها في التاريخ لنابلس فيما بين الحملتين السادسة والسابعة، وقد انفرد بأكمل رواية عن مهاجمة الداوية المقيمين في يافا لمدينة نابلس سنة ٦٤٠هـ ١٢٤٢م كما انفرد دون غيره من المصادر العربية بالاشاره إلى حادثة قيام قوات الملك الصالح نجم الدين ايوب بمهاجمة وحصار يافا في نفس العام رداً على قيام الداوية بالهجوم على نابلس.

٣- **أما مخطوطة الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية**: لمؤلفه المجهول فهو من المصادر العربية الهامة التي انفردت أيضاً في ايراد اكمل رواية عن قيام الداوية بمهاجمة نابلس ٦٤٠هـ١٢٤٢م، كذلك كان المصدر العربي الوحيد الذي انفرد بايراد النص الكامل للخطاب الذي ارسله الناصر داود صاحب الكرك إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينعي اليه هذه الكارثة -وقد قمت بايراد نص هذه الرسالة في ملاحق الرسالة.

٤- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**: لمحي الدين أبو الفضل عبد ا لله رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان عبد الظاهر السعدي المصري ولد في القاهرة سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) وتوفي سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٢م) وكان ابن عبد الظاهر كاتباً في ديوان الإنشاء لسيف الدين قطز ومن بعده الظاهر بيبرس وقد رافق ابن عبد الظاهر قطز في حملتة ضد المغول وسرعان ما اتصل ببيرس وحاز ثقتة بعد ان تولى الأخير حكم مصر والشام واستمر ابن عبد الظاهر في منصبة بديوان الانشاء حتى بدايات حكم المنصور قلاوون،وقد اتاح عمل ابن عبد الظاهر في ديوان الانشاء له الاطلاع على الكثير من الوثائق كما كان مشاركا في الأحداث وقد تضمنت كتاباته الكثير من المعلومات التاريخية القيمة وقد افاد البحث في الاشاره إلى سياسة الدولة المملوكية في القضاء على المذهب الشيعي كما اشار إلى سيطرة التتار على المدينة واستعادتها من ثم على يد المماليك ثم ما قام بين الامراء المماليك من خلافات حول اقتسام الاقطاعات وتحكيم قطز في ذلك حيث اعطى نابلس لشمس الدين البرلي.

٥- **مفرج الكروب في اخبار بني ايوب**: لابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) وهو من المصادر الهامة التي عنيت بالحديث عن فترة زمنيه موحده وأسره حاكمه هي الأسره الايوبية وتأتي أهمية هذا المصدر لكون مؤلفة كان معاصراً لكثير من الأحداث وخاصة ما ساد بين ابناء البيت الايوبي من خلافات وعداء وحروب وما خلفتة تلك الأحداث من آثار على أوضاع نابلس والمسلمين بها، وهو في روايتة للأحداث يرويها كشاهد عيان أما الأحداث التي لم يشاهدها بنفسة فيرويها نقلاً

عمن شارك بها من المسؤولين ممن احتلوا مكانه خاصة في العصر الايوبي فضلاً عن القضاة والعلماء والمعاصرين الذين جالسهم واستمد معلوماته منهم وهو من المصادر التي لا غني عنها لدراس التاريخ الأيوبي اذ خصصه للحديث عن أسرة صلاح الدين وكيفيه وصولة للحكم وتكوينه لدولته المتراميه الأطراف واتخاذه من الجهاد وسيلة لتدعيم الاساس الذي قامت علية دولته لمواجهة اعداء الاسلام الفرنجة ومن خلال سياسة الجهاد يتحدث عن حروب صلاح الدين ضد الفرنجة ومعركة حطين واستعادة نابلس ثم العناية بها،كما يشير إلى المكاتبات التي قامت بين والي نابلس والامراء الصلاحيه ضد انفراد الملك العادل بالسلطه في مصر والشام،كذلك يتحدث عن قيام تحركات فرنجية سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) ضد المسلمين وخروج العادل لملاقاتها واقامته بنابلس اثناء الحشد كما يشير إلى اتخاذ المعظم عيسي لنابلس مكاناً لاقامتة اثناء تصديه للفرنج في معظم اوقاته.

٦- **مخطوطة زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**: لمؤلفها ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الدوادار توفي سنه ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م وهو احد مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون تقلد عدة وظائف هامه في الدولة منها نيابه السلطنه في الكرك ونيابة السلطنه في الديار المصرية، وهو من المؤلفات التي أرخت للدوله المملوكيه الأولى سيما وان المؤلف كان معاصراً للأحداث ومشاركاً في معظمها وشهد الكثير منها وسجلها،وقد أمدنا الجزء العاشر من هذا المخطوط بمعلومات قيمة عن نابلس اذ اشار إلى اقطاعات الملك الظاهر في ريف نابلس وجعلة هذه الاقطاعات إقطاعات تمليك بعد معركة ارسوف (٦٦٣هـ/١٢٦٥م).

٧- **السلوك لمعرفة دول الملوك**: لتقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم البعلبكي الاصل المعروف بالمقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) وهو من كبار مؤرخي العصر المملوكي الذين امتازوا بالدقة والتحري لما ينقلة من اخبار اضافة لما امتاز به من ثقافة واسعه وعلم غزير انعكس على كتاباته، اذ انه من المؤرخين القلائل الذين

عـالجوا مواضيـع متعـدده وقدمـوا تحليـلات علميـة دقيقـة لظواهـر بسياســية واقتصاديـة واجتماعية ولعل في رسالة كشف الغمه وما تعرضت له من تحليلات قيمه عن الأوضـاع السياسيه والإقتصادية في مصر والشام ما يدلل على ذلك أما كتابه السـلوك لمعرفـة دول الملوك فهو من المصـادر الاساسية الـتي لا غنـى عنهـا للبـاحث وقـد أمدّنـا هـذا المؤلـف الضخم بما حواه من ماده تاريخيه الكثـير مـن المعلومـات عـن اوضـاع نـابلس ولا سيما السياسيه إذ أشار إلى العديد من الكوارث الطبيعية الـتي المـت بنـابلس مـن اوبئـه وغـلاء وفتن.

٨- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**: لمؤلفـة القـاضي أبـو اليمـن مجـير الديـن العليمـي الحنبلي ت(٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) وهو من ابناء القدس وكان معـاصراً للفـترة الاخـيره مـن حكـم سلاطين المماليك وتميزت كتاباته بعدم التصنع والرغبه في استحلاب الرضـا عنـد الحكام كما لم تكن كتاباته ذيولاً وتكملات لكتب سبقته زمنياً.

وبالرغم من ان الانس الجليل موسوعة تاريخيه ضخمه عـن مدينـتي بيـت المقـدس والخليل إلا انه قد امدنا بمعلومات قيمة عن نابلس فأمدّنا بمعلومات اقتصادية هامة وقيمـة وتعرض للاضطرابات التي اصابت الحياة الإقتصادية واسبابها، كما كان معاصراً للسلطان الاشـرف قايتبـاي وذكـر لنـا الأحـداث الـتي وقعـت في فـترة حكمـه ابتـداء مـن سـنه (٨٧٢-٩٠٠هـ/ ١٤٦٧-١٤٩٤م) كشاهد عيان وقـد افدنـا منـه كذلـك في مواضـع كثيره منها اشارته إلى أهمية طبقة العلماء في الدولة المملوكية وكثره اعداد العلماء الذين خرجوا من نابلس كما افادنـا مـن الناحيـة الإداريـة في ضبـط حـدود نـابلس مـن جهـة الشمال بسبب وجود المدينه المقدسة.

الفصل الأول

جغرافية نابلس

استمدت نابلس أهميتها من موقعها الجغرافي والاستراتيجي المميز، وتلفظ نابلس بفتح النون وألف، وضم الباء الموحدة، واللام وسين مهملة في آخرها(١) وقد احتفظت نابلس بهذه التسمية منذ بنائها مع بعض التحريف لكون هذه التسمية مأخوذه عن اللفظة الأغريقية NeaPolis بمعنى "المدينة الجديدة" وذلك تميزاً لها عن شكيم Shechem القديمة، التي ثارت على الرومان مما دفع الامبراطور الروماني نيرون(٢) (٥٤-٦٨)م الى تدميرها على يد قائده فاسبسيانيوس(٣) الذي أعاد تأسيس مدينة جديدة عرفت باسم نابلس في ما بين (٧١-٧٢م)(٤)، غرب المدينة المدمرة، وفي موقع قرية Mabartha (٥) وقد أكد ذلك بعض قطع العملة الرومانية التي اكتشفت في نابلس وحملت تاريخ تأسيسها اي ما بين سنة احدى وسبعين واثنين وسبعين

---

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله بن عبدالله: معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩، ج٥، ص ٢٤٨، وسيشار اليه فيما بعد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البدان، اعتنى بتصحيحة رينود ركوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠، ص٢٤٠ وسيشار اليه فيما بعد، أبو الفدا: تقويم البلدان. البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق: مراصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت،ج٣، ص١٣٤٧ وسيشار اليه فيما بعد البغدادي: مراصد الاطلاع، القلقشندي أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، تح محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١ ١٩٨٧م، ج٤ ص١٠٦و١٠٧ وسيشار اليه فيما بعد.القلقشندي: صبح الأعشى. ابن السباهي زادة: أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، لوحة رقم ٩٣، مخطوط مصور على ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، وشريط رقم ٥٥٩ وسيشار اليه فيما بعد. ابن السباهي: أوضح المسالك.

(٢) نيرون (٥٤-٦٨م) من الأباطرة الرومان، اتسمت فترة حكمة بتدهور الادارة الرومانية وعلاقاتها بالممالك العميلة لها في الشرق وقد اثير الجدل حول هذه الشخصية فقد عُدَّ بانه متبع الجنون ونسب اليه حريق روما سنة ٦٤م. سيد أحمد الناصري: تاريخ الأمبراطورية الرومانية، دار النهضة العربية. القاهرة، ط٢، د.ت، ص ١٥٩-١٦٦. وسيشار اليه فيما بعد، الناصري: الإمبراطورية الرومانية.

(٣) فاسبسيانوس (٧٠-٩٦م) ويعَد مؤسس الاسرة الفلافية التي حكمت الامبراطورية الرومانية فترة وقد اتبع في حكمه سياسة الاصلاح داخل الامبراطورية، الناصري: الامبراطورية الرومانية، ص١٩٦.

(٤) سعيد البيشاوي: نابلس الاوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية، د.ن، عمان ١٩٩١، ص١٥، وسيشار اليه فيما بعد البيشاوي، نابلس.

(٥) قرية ما برثا Mabartha تقع غرب مدينة شكيم ويذهب البعض الى انها قرية بلاطة المعروفة الآن شرقي نابلس وهذه القرية كانت قرب معبد شكيم. جونز،أ،هـ: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع،ط١، عمان، ١٩٨٧، ص٩٥ وسيشار اليه فيما بعد جونز: مدن بلاد الشام.

بعد الميلاد(١). ومدينة شكيم التي دمرها الرومان واحدة من أقدم المدن الكنعانية في فلسطين، والمعنى اللغوي لشكيم الكتف او المنكب ومما يؤكد المعنى اللغوي ان شكيم تقع في سفح جبل عيبال، أي ان المدينة شيدت على كتف الجبل(٢).

وقد ذكرت نابلس في العهد القديم بإسم شكيم(٣)، في ما ذكرت في العهد الجديد بإسم سوخار(٤) بمعنى: السكر والكذب، كصفتان اشتهر بهما اهل شكيم(٥)، ولما دمرت شكيم عرفت المدينة المقامة باسم نابلس ورغم اشتهار المدينة بإسمها الجديد نابلس وذيوعه، فإن المصادر اللاتينية قد درجت على تسميتها بالسامرة(٦). ولا يعرف السبب في الإصرار على استخدام هذا الاسم بدلاً من نابلس رغم مرور فترة طويلة على تجذّر هذا الاسم ويلاحظ بأن هناك اختلاف بين المؤرخين والجغرافيين الغربيين في كتابة نابلس، فالمؤرخون اللاتينيين يكتبوها بصيغة Naplouse و NeaPolis، بينما ترد في مواضع اخرى بصيغة نيابوليم NeaPolim أو نيابولي Neapoli (٧)، وينسحب هذا الاختلاف على المراجع الاوروبية الحديثة إذ تكتب بالفرنسية الحديثة بصيغة Naplouse نابلوس(٨).

---

(١) بورشارد من جبل صهيون: وصف الارض المقدسة، ترجمة سعيد بيشاوي،دار الشروق عمان، ١٩٩٥، هامش ص١٠٨ وسيشار اليه فيما بعد بورشارد: وصف الارض المقدسة، جونز. مدن بلاد الشام ص٩٥.

(٢) بيشاوي: نابلس، هامش ص٥٣.

(٣) الكتاب المقدس، سفر التكوين، ٣٣: ٤.

(٤) الكتاب المقدس: سفر يوحنا ٤: ٥ وانظر ايضاً.
Anonymus Pilgrims, Tr. From the original Latin by Aubrey- Stewart, London, 1894 in P.P.T.S. Vol. 1 Page 36.

(٥) جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس، بيروت ١٨٩٤،١٩٠١ ج١، ص٦٢٤ وسيشار اليه فيما بعد بوست؛ قاموس الكتاب المقدس.

(٦) دانيال الراهب: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب، ترجمة سعيد بيشاوي، د.ن، عمان،ط١، ١٩٩٢ ص١٠٨، وسيشار له فيما بعد دانيال: رحلة دانيال الراهب.

(٧) Genevieve, B:B: Le Cartulaire Du Chapitre Des Saint sepulcre De Jerusalem P.P 86.92.93.96.97

(٨) Enlart,C: Les Monuments des Croises dans Le Royaume de- Jerusalem Vol II Paris 1928 Page 282.

أما في الانجليزيـة فتكتب بصيغة Nablus نابلس(١). وتقع المدينة على خـط طـول ٥٧ درجة و ٣٠ دقيقة وخط عرض ٣٠ درجة(٢).

وقد تمتعت منطقة نابلس بموقع جغرافي هام، اذ انهـا تتوسـط الأقليـم الجبلـي الفلسـطيني بصفة عامة وجبال نـابلس بصفـة خاصـة، وهـذا الموقـع اكسـبها اهميـة اسـتراتيجية مـن حيـث الحصانـة، اذ أن الموقـع المتوسـط سـهل امكانيـة الدفـاع عـن المنطقـة في حالـة تعرضهـا لإعتـداء خارجي(٣) ، ولكن حصانـة المنطقـة ذات الريـف المتسـع الـذي يمكنهـا مـن التصـدي لمحاولات الاعتداء لا يعني بالضرورة حصانة المدينة ذاتها، فوليم الصوري يذكر بأن مدينة نـابلس لم تكـن محصنة و لم يكن لها اسوار او تحصينات خارجية ولا حتـى خنـدق(٤) ،أمـا بورشـارد فيذكـر "ان مدينة نابلس بين جبلين لكنها غير محصنة، ولا يمكن ان تحصن بأي حال من الأحوال. وكـل مـا يستطيع السكان ان يفعلوه اذا اقـترب العـدو مـن احـدى بوابـات المدينـة ان يهربـوا مـن البوابـة الاخرى، هذا اذا كانوا اقل من الناحية العددية، حيث تقع المدينة في وادٍ بين جبال مرتفعة جداً، وبهذا يمكن لأي شخص ان يرمي الحجارة بواسطة اليد الى داخل المدينة"(٥)، واعتماداً علـى مـا أورده وليم الصوري وبورشارد يتبين ان المدينة لم تكن محصنة تحصيناً جيداً، وانها اعتمدت على ريفها المتسع الذي مثل بالنسبة لها عمقاً اسـتراتيجياً مكنهـا مـن المقاومـة والصمـود في الاوقـات الحرجة، يضاف الى ذلك ان الموقـع المتوسـط قـد اكسبها اهميـة تجاريـة كـبرى اذ غـدت محـط

(١) RICHARD, J:the latin kingdom of Jerusalem, Vol A Amsterdam , 1979, P.P. 19,21.24.

أما الرواية العربية فقد اشارت لسبب آخر مغاير لتسمية المدينة بهذا الاسم فقالت ان شيخاً من اهل المعرفة مـن نـابلس قـال بأنهـا: انـه كان ها هنا وادٍ فيه حية قد امتنعت فيه وكانت عظيمة جداً وكانوا يسمونها بلغتهم "لس" فاحتالوا عليها حتى قتلوهـا وانـتزعوا نابهـا وجاءوا بها وعلقوها على باب هذه المدينة فقيل هذا ناب "لس" اي ناب الحية ثم كثر استعمالها حتى كتبوهـا متصلـة نـابلس هكـذا، وغلب هذا الاسم عليها ياقوت، معجم البلدان ، ج٥، ص٢٤٨.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤ ص١٠٧.

(٣) عبدالله عارف: مدينة نابلس "دراسة اقليمية" دمشق ١٩٦٤م ص١٢، وسيشار اليه فيما بعد، عبدالله عارف: مدينة نابلس.

(٤) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية والاعمال المنجزة فيما وراء البحار، ت، سهيل زكار، دار الفكـر، دمشق ط١، ١٩٩٠ ج١، ص٦٩٠ وسيشار اليه فيما بعد، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية.

(٥) بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٨.

القوافل القادمة من الشرق والمتجهة غرباً نحو البحر او القادمة من الجنوب الى الشمال وكانت هذه القوافل مضطرة للمرور بنابلس لكونها تشغل الممر الضيق الذي يصل الغور بالبحر في تلك النواحي(١) وللوقوف على الأهمية الأستراتجية للمنطقة يجدر بالباحث دراسة المنطقة من الناحية الجغرافية والتعرف الى أقسام السطح فيها.

أولاً: الجبال

وهي تشكل الجزء الشمالي من سلسلة الجبال الفلسطينية. والتي يحدها من الشمال الغربي سلسلة جبال الكرمل وتطل هذه السلسلة من الشمال على مرج(٢) إبن عامر ومن الشرق على غور الاردن ومن الغرب تنحدر باتجاه البحر المتوسط ويحدها من الجنوب جبال القدس ويبلغ طولها حوالي ٤٠ كم ومتوسط عرضها ٤٠ كم(٣).

وقد اشتهرت جبال نابلس بحسن مناظرها ووعورة بعض أقسامها وخصب أوديتها(٤) ويشكل الجزء الاوسط من جبال نابلس الغربية هضبة يقسمها وادي اسكندر الى قسمين:

القسم الأول يطلق عليه جبل جرزيم والقسم الثاني ويطلق عليه جبل عيبال(٥).

---

(١) عبد الله عارف، مدينة نابلس، ص١٢.

(٢) مرج: بالفتح ثم السكون والجيم. وهي الارض الواسعة فيها نبت كثير تَمْرُجُ فيها الدواب اي تذهب وتجيء، وأصل المرج القلق ويقال مَرَّج الخاتم في يدي مرجاً اذا قلق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٠.

(٣) كامل خالد الشامي: جغرافية فلسطين "دراسة الاقاليم الطبيعية، جامعة سبها ١٩٩١، ص٣١-٣٢ وسيشار اليه فيما بعد كامل الشامي: جغرافية فلسطين.

(٤) خليل طوطح: جغرافية فلسطين، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣، ص١١ وسيشار اليه فيما بعد خليل طوطح: جغرافية فلسطين.

(٥) كامل الشامي، جغرافية فلسطين، ص٣٢.

أولاً: جبل جرزيم

ويقع جنوب غرب نابلس وبينه وبين عيبال وادٍ ضيق(١) ، ويرتفع عن سطح البحر ٨٨١م. وقد ذكر في التوراه بإسم كريزم اذ لليهود فيه اعتقاد عظيم(٢).

كما ذكر بإسم جبل الطور(٣) ويعرف بإسم الجبل القبلي، وهو جبل مقدس عند السامريين لأنهم يعتقدون انه الموضع الذي اراد ابراهيم عليه السلام ذبح ابنه اسحق عليه(٤). والجبل مركب من الحجر الكلسي وهو عارٍ من الأشجار إلا من بعض جوانبه، وتتركز كثير من الينابيع المائية في هذا الجبل، وتتفجر عند منحدراته الشمالية اثنتان وعشرون عيناً منها عين الصبيان ورأس العين وعين بيت الماء (٥) ونهر أبي فطرس القريب من الرملة الذي يخرج من عيون متصلة بجبال نابلس(٦).

---

(١) اندراوس كرشه: يوغاركي ايض: الثمار الشهية حغرافية المملكة العثمانية، المطبعة الوطنية، طرابلس الشام، ١٩١٢ ص١٨٠ وسيشار اليه فيما بعد كرشة، الثمار الشهية.

(٢) البغدادي: مراصد الاطلاع ج٣، ص١٣٤٧ ابن شداد؛ عز الدين ابي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم: الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (تاريخ لبنان والاردن وفلسطين، تح سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق ١٩٦٢ ص٢٧٨ وسيشار اليه فيما بعد ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥، ص٢٤٨.

(٣) الهروي، أبي الحسن علي بن أبي بكر: الاشارات الى معرفة الزيارات، تح جانين سورديك، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣ ص٩٦ وسيشار فيما بعد الهروي الاشارات الى معرفة الزيارات. والطور في اللغة العبرانية اسم لكل جبل ثم صار علماً لجبال بعينها منها طور زيتا بالقدس وجبل الطور المطل على طبرية وطور سينا: ابن السباهي: أوضح المسالك لوحة رقم ١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٦ وانظر ايضاً كرشه: الثمار الشهية ص١٨٠-١٨١ ومما يجدر ذكره في هذا المجال ان اليهود يعتقدون بأن مسألة الذبح قد تمت على جبل موريا بالقدس وليس على جبل جرزيم وجبل موريا عند اليهود بمعنى الجبل المختار وهو احد الجبال الاربعة التي شيدت فوقها مدينة بيت المقدس. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، دار الكتب المصرية، ١٩٧٤. ص٣١. واذا كان اليهود يتفقون مع السامريين على ان اسحق هو الذبيح مع الاختلاف في تحديد الموقع الا ان هذا الاتفاق يتنافى وعقيدتنا كمسلمين اذ الثابت في العقيدة الاسلامية ان الذبيح هو اسماعيل وان مكان الذبح هو مكة وللاطلاع المزيد من التفاصيل على هذه القضية انظر سورة الصافات الآية ١٠٢-١٠٧ سيد قطب: في ظلال القران، ج٢٣ دار الشروق، بيروت ط١ ١٩٨٥ ص٦٣-٦٦. الطبري: ابي جعفر محمد بن جرير: تاريخ الامم والملوك دار الفكر للطباعة والنشر، د.م ١٩٧٩ ج١، ص ١٢٨-١٣٥. وسيشار اليه فيما بعد الطبري: تاريخ الأمم.

(٥) محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث دمشق، ط١، ١٩٨٧ ص٢٥٣؛ وسيشار اليه فيما بعد شراب: معجم بلدان فلسطين.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣١٥.

ثانياً: جبل عيبال

ويعرف بإسم جبل ستّ سلمية "او جبل اسلامية نسبة الى أخوين من الأولياء ماتا ودفنا في محل واحد(١) ، وهو أعلى قمم جبال نابلس اذ يرتفع ٩٤٠م عن سطح البحر(٢) وهو من الصخر الكلسي اجرد سوى بعض جوانبه التي تكسوها اشجار الزيتون وقمة عيبال سهل فسيح يمكن للواقف عليه ان يرى قسماً كبيراً من المناظر الخلابة(٣) ، ومن جبال نابلس العرقه، ويرتفع عن سطح البحر ٨٤٣م ويدعى بذلك نسبة الى خربة العرقة المجاورة(٤) وجبال فقوعة وتقع على سفوحها قرية فقوعة وقدسميت الجبال بهذا الاسم نسبة لهذه القرية(٥). وجبل عبيدي غرب نابلس(٦) وتكون الجزء الشمالي الشرقي من جبال نابلس. وجبل الجعيدي غرب نابلس ايضاً(٧) . والجبل الأبيض ويقع غرب نابلس ايضاً(٨) ، وجبل القرد غرب نابلس(٩) ، وجبل الخروب في قرية بيت وزن(١٠) ، وجبل عجره في بيت وزن ايضاً (١١) ، وجبل دير حميد(١٢)، وجبل حزام، في قرية بيت وزن(١٣) وجبل النوبة قرب قرية برقا(١٤) وجبل الرامي قرب قرية اجنسنيا(١٥) وجبل عين عيناء وهو من الجبال المرتفعة حيث يصل ارتفاعه الى ٩٠٤ م عن سطح البحر وهو

---

(١) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين (في الديار النابلسية)، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١،د.م، ج٢، ق٢، ١٩٧٠ ص٢٣ وسيشار اليه فيما بعد الدباغ: بلادنا فلسطين خليل طوطح: جغرافية فلسطين، ص١٣.

(٢) عبدالله عارف: مدينة نابلس، ص٢٤.

(٣) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢،ق٢، ص٢٢.

(٤) محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٥٣٠.

(٥) أسعد منصور: مرشد الطلاب الى جغرافية الكتاب المقدس، ص٧٧ ويعرف جبل فقوعة باسم جبل جلبوع لكثرة تكرار الاسم من السياح الذين يأتون لتلك المنطقة.

(٦) سجل محكمة نابلس الشرعية، رقم ١٧ ص٧.

(٧) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٣ أ ص١١٤ وسجل رقم ١٧ ص٧٢.

(٨) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٢ ص٢٩ وسجل رقم ١٤ ص ٢٩٦ وسجل رقم ١٧ ص٢٩.

(٩) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٨ ص٧٣.

(١٠) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٤ ص٣١٢.

(١١) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٤ ص٣١٢.

(١٢) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ٢٠ ص١٩١.

(١٣) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٢ ص ١٥٢ وسجل رقم ١٤ ص ٣٠٣.

(١٤) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٣ أ ص٩١.

(١٥) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٧ ص٦٨٤.

ثاني اعلى قمم جبال نابلس وسمي كذلك نسبة الى قرية عين المجاور(١) وجبل الركبة ويقع بين قريتي قبلان وحوريش ويرتفع ٨٩١م وهو ثالث قمم نابلس(٢).

ثانياً: السهول الداخلية

تقع هذه السهول شرق مدينة نابلس وتمتد على شكل شريط ضيق فيما بين الاتجاه الشمالي الشرقي والجنوب الغربي وبموازاة قرية بيت دجن(٣) وتتجه هذه السهول نحو الشرق بعرض لا يتجاوز ٢,٥ كم ويبلغ اقصى عرض لها ٨,٥كم بين بيت دجن وعسكر(٤) ويبلغ طول هذه السهول من جنوب حوارة(٥). الى عزموط(٦) في الشمال حوالي ١٢كم تقريباً وهي عبارة عن منطقة منبسطة قليلة الارتفاع تكسوها تربة فيضية عميقة تصلح للزراعة(٧)، وهي معتدلة المناخ وتزرع فيها الحبوب والقطاني على اختلاف انواعها كالقمح والشعير والفول والعدس(٨). ومن اشهر هذه السهول: سهل عرابة وهو احد اكبر السهول الداخلية شبه المغلقة بين مرتفعات نابلس، ويمتد في قضاء جنين شمال عرابة ويتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٢٣٠-٢٤٥م وهو يتخلل جبال نابلس، وقد عرفه الكنعانيون بإسم سهل دوثان ويجري في هذا السهل وادي

---

(١) محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٥٥٩.

(٢) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢ ق٢، ص٢٤.

(٣) بيت دجن: قرية تقع الى الجنوب الشرقي من مدينة نابلس انظر.
Beyer, G. Neapolis und sein Gbiet in der Kreuzfahrerzeit in Z.D.P.V.LX 11 (1940) P. 184.

(٤) عسكر: قرية تقع على بعد ميل واحد شرق نابلس واشتهرت بكثرة اشجار الزيتون المزروعة في اراضيها حتى سميت عسكر الزيتون، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص١٢٣ انظر ايضاً.
Fetllus. Description of Jerusalem and the Holy Land in P.P.T.S. Vol.V, ,London 1892, P.34.

(٥) حوارة قرية تقع الى الجنوب من مدينة نابلس وتبعد عنها مسافة ٩كم. Beyer: Neapolis und Sein Gbiet P: 190.

(٦) عزموط: وتقع الى الجهة الشرقية من نابلس وعلى مسافة ٥كم منها وتزرع فيها الحبوب وتشرب من مياه الامطار، الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٢ ق٢، ص٢٨٤.

(٧) عبد الله عارف: مدينة نابلس ص٢٥.

(٨) إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة عمال المطابع التعاونية، نابلس ط٢،١٩٧٥، ج١، ص٤٤ وسيشار اليه فيما بعد احسان النمر: تاريخ جبل نابلس.

النص الذي ينتهي في نهر المفجر ووادي دعوق الذي يسيل بين قريتي فحمة ومركية(١) في الجهة الشرقية لعرابة.

ثم سهل صانور احد السهول الصغيرة الواقعة في جبال نابلس وينسب الى قرية صانور الواقعة عند زاويته الجنوبية الغربية ويرتفع ٣٥٠م عن سطح البحر وتملؤه الامطار والوديان التي تصب فيه من الجبال المجاورة في فصل الشتاء فيصبح بحيره او مستنقعاً ضحلاً مما يجعل البعض يسميه سهل الغرق ونظراً لتأخر جفافه يبقى مدة طويلة من السنة غير صالح للزراعة(٢) اضافة الى سهل مخنه او بورين الممتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وسهل سالم جنوب قرية سالم وسهل عسكر. المنسوب الى قرية عسكر وسهل البقيعة جنوب شرق طمون(٣) وسهل الكفير وقوصين(٤) وكفراستونا(٥) .

ثالثاً: الغور(٦) النابلسي

وهوجزء من حفرة الانهدام الاسيوي العظيم، التي تشكلت بفعل انفساح هائل على وجه الارض(٧) ، ويبدأ الغور النابلسي في الشمال عند قرية عيون ام خيسة الواقعة عند مصب وادي شوباش ومن الفاطور والقاعون وينتهي في الجنوب عند مضارب عرب الكعابنة على

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢،ص٢٨. Beyer: Neapolis und Sein Gbiet. P 192

(٢) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢،ص٢٨.

(٣) طمون: تقع شمال شرق نابلس بجبالها الشاهقة وتبعد عن نابلس ٢٣كم: بورشارد وصف الارض المقدسة، ص١٠٣.

(٤) قوصين، تقع جنوب قرية بيت شرف وهي وعرة المسالك مبنية على رأس جبل مرتفع ذكرها ياقوت باسم كوسين ونسب اليها الفضل بن زيد الكوسيني. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ص٤٨٩.

(٥) كفرا ستونا تقع هذه القرية الى الجنوب الشرقي من نابلس
Hutteroth, W.D. and K. Abdalfattah: Historical Geography of Palestine, for Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century, Erlangen 1977, P 133

(٦) الغور: المنخفض من الأرض وقيل الغورما تداخل وهبط وغور الاردن بالشام بين القدس ودمشق وهو منخفض عن أرض دمشق والقدس وذلك سمي الغور طولة مسيرة ثلاثة أيام وعرضه نحو يوم فيه نهر الاردن وبلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبرية واشهر بلاده بيسان بعد طبرية وهو وخم شديد الحرارة غير طيب الماء واكثر ما يزرع فيه قصب السكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٢١٦-٢١٧.

(٧) خليل طوطح: جغرافية فلسطين، ص٢٢.

حدود قضاء القدس، وكذلك للجنوب من خربتي فصايل والدشة(١) وقد اشار الى الغور النابلسي الهروي حيث قال: غور نابلس به قرية يقال لها عمًّا بها قبر ابي عبيده ابن الجراح رضي الله عنه(٢) ، وتمتاز هذه المنطقة بإرتفاع كبير في درجات الحرارة؛ لذلك تنمو فيها مزروعات المناطق الحارة كالنخيل والموز والنيلة والارز والقطن(٣) ، كما تمتاز هذه المنطقة بتدني كثافتها السكانية(٤) ، وذلك بسبب الارتفاع الكبير في درجات الحرارة كما سبق واشرنا.

أما مناخ نابلس فيمتاز بالاعتدال لكونها تقع ضمن أقليم البحر الابيض المتوسط الذي يمتاز بفصل صيفي جاف يمتد لأكثر من ستة شهور في السنة وبفصل شتاء بارد ماطر قصير ويتراوح متوسط درجة الحرارة بين ٩° في كانون الثاني و٢٤° في تموز(٥) ، والمناخ في شمال جبال نابلس لا يختلف عنه في جنوبها والفرق في درجات الحرارة عند اعلى قمة لا يزيد على ٢ مئوية و٣مئوية عن المتوسط العام لدرجات الحرارة في المناطق الاخرى والسبب في ذلك يعود الى عامل الارتفاع اما الاطراف الشرقية المطلة على غور الاردن، فترتفع فيها درجات الحرارة الى ١٠مئوية عن المعدل العام للحرارة(٦) ، ولتعدد المناخ في جبل نابلس ومجاورته للبحر المتوسط وحفرة الانهدام في الشرق يظل هواؤه متبدلاً فيمر نسيم البحر من الغرب الى الشرق ونسيم البر الى البحر غرباً بلا إنقطاع لذلك يمتاز بالاعتدال(٧).

وتزيد كمية الامطار السنوية الهاطلة على نابلس على ٦٣١ملم وان كانت متذبذبة من سنة الى اخرى ومن شهر الى آخر وتتركز الامطار في اشهر الشتاء وتبلغ ذروتها في شهر كانون

---

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢ ص٣٩.

(٢) الهروي: الاشارات الى معرفة الزيارات، ص١٧.

(٣) المقدسي: شمس الدين ابي عبد الله محمدبن احمد بن ابي بكر: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل ليدن، ١٩٦٧، ص١٧٩، وسيشار اليه فيما بعد المقدسي: احسن التقاسيم حيث يورد المقدسي اوصاف الغور بأنه بلد الحر والنيل والموز والنخيل.

(٤) Beyer: Neapolis und Sein Gbiet P. 203.

(٥) عبد الله عارف: مدينة نابلس، ص٣٠.

(٦) كامل الشامي: جغرافية فلسطين، ص٣٣.

(٧) احسان النمر: تاريخ جبل نابلس، ص ٤٥.

الثاني وتتفاوت كمية الامطار من جهة الى اخرى داخل مدينة نابلس.فتتلقى جبال المدينة كميات اكبر بكثير مما تتلقاه الأودية والسهول الداخلية(١).ففي حين تسقط على الاطراف الغربية والشمالية والجنوبية كميات من الامطار تتراوح بين ٦٠٠-٧٠٠ملم فإن الاطراف الشرقية لا تزيد فيها كمية الامطار عن ١٠٠-٢٠٠ملم في العام كما تسقط الثلوج ابان موسم الشتاء على القمم الجبلية التي يصل ارتفاعها الى ٧٠٠م بصورة متفرقة وفي القمم التي يصل ارتفاعها الى ٩٠٠م تسقط الثلوج عليها بصورة منتظمة(٢).

أما فيما يتعلق بالوضع المائي لنابلس فقد توفر لها ثلاثة موارد أساسية للمياه ويأتي في طليعة هذه الموارد مياه الامطار والتي تعّد المورد الاساس الذي اعتمد عليه المزارعون في انشطتهم الزراعية في هذه المنطقة، ولعل كميات الامطار الساقطة على منطقة نابلس كافية لانبات المزروعات المختلفة(٣). كما تشرب منها قرى بأكملها عن طريق تجميعها في ابار خاصة في موسم الشتاء ويلي مياه الامطار في الاهمية الينابيع والعيون التي اشتهرت بها منطقة نابلس واعتبرت مصدراً ثانياً وهاماً اعتمدت عليه المنطقة في انشطتها المختلفة واليها اشار الكثير من الجغرافيين والرحالة المسلمين والاجانب الذين زاروا المنطقة وسجلوا انطباعاتهم حول هذا المورد فيتحدث الحموي عن نابلس ذاكراً بأنها كثيرة المياه(٤)، اما الحنبلي فقد وصفها بأنها كثيرة الاعين(٥) وكذلك النابلسي الذي وصفها بكثرة الاعين(٦)، اما الحجاج والرحالة الغربيون الذين زاروا المنطقة فقد لفت انظارهم كثرة مياه العيون في نابلس فدونوا ذلك في رحلاتهم فيذكر دانيال بانه يتخلل نابلس عدد من الينابيع العذبة الباردة المياه(٧).

---

(١) عبد الله عارف: مدينة نابلس، ص ٣٤.

(٢) كامل الشامي: جغرافية فلسطين، ص٣٣-٣٤.

(٣) عبدالله عارف: مدينة نابلس، ص٣٨.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٨.

(٥) الحنبلي، ابو اليمن مجير الدين: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان ١٩٧٣، ج٢، ص٧٥ وسيشار اليه فيما بعد الحنبلي: الانس الجليل.

(٦) النابلسي، عبد الغني: الحضرة الانسية في الرحلة القدسية، تح اكرم حسن العلبي، دار صادر، بيروت ط١ ١٩٩٠، ص٧٤ وسيشار اليه فيما بعد النابلسي: الحضرة الانسية.

(٧) دانيال: رحلة دانيال الراهب ص١٠٨-١٠٩.

ولعل في كثرة ما حفلت به المصادر من اشارات الى مياه العيون في نابلس ما يجعلنا نستنتج ان المنطقة كانت في طليعة المناطق الفلسطينية ان لم تكن اكثرها غنى بمياه الينابيع والتي منها الينابيع المرتفعة حيث يشرب منها السكان مثل عين العسل أو المنخفضة التي تروى منها البساتين مثل عين القصب(١) ، ولعله من المفيد ان نذكر بأن هناك قرى كثيرة في نابلس تشرب من مياه الينابيع والعيون الموجودة فيها مثل برقه(٢) وعسكر وبلاطة(٣) وغيرها وانه يتفجر من المنحدرات الشمالية لجبل الطور اثنتان وعشرون عيناً(٤) ولا يخفى ان كثرة هذه العيون والينابيع قد ساهمت في تطوير الاقتصاد النابلسي إذ ادارت هذه العيون والينابيع الطواحين المائية والتي درت على اصحابها الاموال الكثيرة(٥) فقد استخدم سكان نابلس الطاقة المائية في إدارة الطواحين لطحن الحبوب ومعاصر الزيتون وقصب السكر مما ساعد على تطوير اقتصاد المنطقة.

وأخيراً تأتي مياه الانهار أو ما نطلق عليه في مصادرنا الاسلامية بإسم المياه الجارية والى هذا المورد اشار الجغرافيون فالاصطخرى يقول "فلسطين ماؤها من الامطار واشجارها وزروعها اعذاء(٦) -بعيدة عن الماء- إلا نابلس فإن بها مياهاً جارية(٧) وتحدث القلقشندي عن ذلك بقوله

---

(١) احسان النمر: تاريخ جبل نابلس، ج١، ص٥٤٩.

(٢) برقة: قرية تقع شمال غرب نابلس وتبعد عن نابلس مسافة ١٨كم. Beyer: Neapolis und sein Gbiet P.192.

(٣) بلاطة: قرية تقع شرق مدينة نابلس وتبعد عنها ٣كم ذكرها ياقوت بأنها من اعمال نابلس وبها دفن يوسف الصديق عليه السلام، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١، ص٤٧٨. Beyer: Neapolis und Sein Gbiet P. 168-169.

(٤) محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص ١٥٢.

(٥) Hutteroth; Historical Geography of Palestine P. 33.

(٦) اعذاء: بمعنى البعد عن الماء ان ذلك يعني بما ان الزروع بعيدة عن الماء فأن هنالك مصدر اخر تعتمد عليه تلك المزروعات في حياتها الا وهو الطل بمعنى الندى وهو ما اشار اليه القران الكريم في قوله تعالى " كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل" سورة البقرة الاية ٢٦٥ ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر الرحالة البرتغالي برتراندون دى لا بروكير اثناء زيارته لفلسطين فسجلها وكان اكثر دقة من الاصطخري حين شرحها واشار الى اعتماد الزراعة في فلسطين على الندى كمصدر رئيسي في حياتها برتراندون دي لابروكير: رحلة برتراندون، ت محمود زايد، مجلة ابحاث الجامعة الاميركية ع ٣ بيروت ١٩٦٢ ص ٣١٢ وسيشار اليه فيما بعد برتراندون: رحلة برتراندون.

(٧) الاصطخري: أبي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي مسالك الممالك. مطبعة بريل ليدن ١٩٦٧ ص٥٦، وسيشار اليه فيما بعد الاصطخري مسالك الممالك.ابن السباهي: أوضح المسالك، مخطوط، لوحة ٩٣ وزاد ابن السباهي آن فلسطين أرخى بلاد الشام.

"وليس بفلسطين بلده فيها ماء جار سواها وباقي ذلك شرب اهله من المطر وزرعهم عليه(١) أما شيخ الربوة فقد وصفها بأنها ذات مياه جارية(٢)، في حين وصفها ابن بطوطة بقوله" انها مطرده الانهار"(٣) ، أما النابلسي فقد أشار الى الماء في المدينة بالجمام اي لغزارته وعذوبته(٤) ونخلص من خلال هذه الشواهد عن تصور واضح للوضع المائي في منطقة نابلس بحيث يصح القول أن المنطقة موضوع الدراسة كانت في طليعة المناطق الفلسطينية غنى بالمياه ولا عجب في ذلك فكمية الامطار المتساقطة على المنطقة لا تقل عن ٦٠٠ملم، وهي كمية كافية لتحقيق الجريان ولكن يجب ان لا ننسى ايضاً ان تلك الكمية المتساقطة من الامطار تتأثر بعوامل مختلفة ويأتي في طليعتها معدلات التبخر، وطبيعة الصخور، واستعمالات الأراضي، وهي عوامل من شأنها تحديد كمية الجريان وفصليته وعليه فإننا نستنتج ان المياه الجارية في منطقة نابلس تقسم الى مياه دائمة الجريان وفصلية الجريان(٥) .

ومن المياه دائمة الجريان في نابلس وادي الفارعة ويبدأ في جبال نابلس الى الشمال من عيبال وبالقرب من قرى عصيره الشمالية(٦) وطلوزة(٧) ثم ينحرف نحو الجنوب الشرقي محاذياً الجبل الكبير حتى يصل الى نهر الاردن الى الجنوب من جسر دامية، ويعتبر هذا الوادي من أهم

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤، ص١٠٧.

(٢) شيخ الربوة، شمس الدين ابي عبدالله محمد ابي طالب الانصاري الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر طبع في ليبزج، ١٩٢٣ ص٢٠٠ وسيشار اليه فيما بعد شيخ الربوة: نخبة الدهر.

(٣) ابن بطوطة، ابو عبدالله محمد بن محمد بن ابراهيم اللواتي: تحفة النظار في عجائب الامصار المعروفة برحلة ابن بطوطة ص٥٦. ويقصد ابن بطوطة بقوله انها مطردة الانهار بمعنى دائمة الجريان.

(٤) وقد تغنى النابلسي بالماء في نابلس بقوله:

ايها الغادي على نابلس   جئت خير الارض والناس الكراما
الغناء الرحب والعيش الرضي   والهواء العذب والماء الجماما

النابلسي: الحضرة الانسية ص٧٥.

(٥) عبد الله عارف: مدينة نابلس، ص٤٠.

(٦) عصيرة الشمالية: قرية كبيرة تقع شمال نابلس يفصل بينهما جبل عيبال وتبعد عن نابلس ٦كم. الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢ ص٤٢٥.

(٧) طلوزة: قرية من قرى نابلس وتقع شمال شرق نابلس وتبعد عنها ١٥كم.. Beyer: Neapolis und Sein Gbiet P. 189

أودية الغور وتعود أهميته لكون مياهه تجري طيلة ايام السنة اذ تتجمع من عيون متعددة تقع في أراضي قرية طلوزة وأهمها عين ادليب وعين الفارعة أو رأس البركة الواقعتان بالقرب من سرج الفارعة جنوب طوباس(١) ويلتقي في اثناء جريانه عند جسر الملاقي على طريق نابلس برافده المشهور بإسم وادي الباذان ويسير حتى يصب في نهر الاردن(٢) ، وادي التفاح يبدأ هذا الوادي من مدينة نابلس ويجري بإتجاه الغرب ويتشكل من مسيلين من جبلي جرزيم وعيبال ويأتيه وادي آخر من هضاب قرية عصيرة الشمالية، ويلتقي به قرب قرية بيت ايبا(٣) ، وبين دير شرف(٤) ورامين(٥) ويتلقى الوادي رافداً آخر قادماً من قرى برقة وبيت امرين(٦) وسبسطيه(٧) فتزداد مياهه وتجري حتى وادي الزيمر عند طولكرم(٨).

وادي الباذان وينبع من العيون الواقعة على السفوح الشرقية والجنوبية لقرية طلوزة وبعد أن تتجمع هذه العيون تلتقي في طريقها بمياه عين التبان وتبقى مياه الباذان جارية طيلة السنة إلا انها أقل غزارة من مياه الفارعة(٩).

---

(١) طوباس: قرية كبيرة شمال شرق نابلس وتشتهر بزراعة القمح وتبعد عن نابلس ٢٠كم.. Hutteroth, Historical Geography P. 125.

(٢) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢ ق٢، ص٤٤.

(٣) بيت ايبا: قرية من قرى نابلس تقع الى الغرب منها وتبعد عن نابلس مسافة ٧كم، الدباغ: بلادنا فلسطين ج٢ ق٢، ص٣٤١.

(٤) دير شرف: قرية تقع شمال غرب نابلس وتبعد عنها مسافة ٩كم، سعيد بيشاوي: الممتلكات الكنيسة في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٩٠ ص٢٥٨، وسيشار اليه فيما بعد بيشاوي: الممتلكات الكنيسة.

(٥) رامين: كلمة سريانية تعني الأمكنة العالية قرية تقع في الجنوب الشرقي من عنبتا وتبعد ١٧كم عن طولكرم، محمد شراب: معجم بلدان فلسطين ص٤١١.

(٦) بيت امرين: قرية تقع الى الشمال الغربي من نابلس وعلى مسافة ١٨كم، الدباغ: بلادنا فلسطين ج٢، ق٢ ص٤١١.

(٧) سبسطية بلده من فلسطين المشهورة وبينها وبين بيت المقدس مسيرة يومين نحو (٤٢ميل وتقع الى الشمال الغربي من نابلس) وهي بلده حصينة كثيرة الاشجار والعيون جزيلة الحدائق والرياض وكروم العنب وغياض الزيتون، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٨٤. النابلسي، عبد الغني: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تح رياض عبد الحميد، دار المعرفة ط١، دمشق ١٩٨٩ ص٣٥ وسيشار اليه فيما بعد النابلسي: الحقيقة والمجاز. بورشارد وصف الارض المقدس، ص١٠٤. بنيامين بن يونه التطيلي: رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، طبع في المطبعة الشرقية، بغداد، ط١، ١٩٤٥ ص ٩٥-٩٦ وسيشار اليه فيما بعد بنيامين رحلة بنيامين.

(٨) طولكرم: اصل الاسم (طور-كرم) والطور تعني الجبل فالمعنى جبل كرم، تقع في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني على الخط الحديدي بين حيفا وسيناء محمد شراب: معجم بلدان فلسطين ص٤١١؛ عبدا لله عارف: مدينة نابلس، ص٤٠.

(٩) الدباغ: بلاد فلسطين ج٢ ق٢ ص٤٤.

وادي المالح وهو من الوديان التي تجري مياهه طيلة السنة ويبدأ من شرق قرية تياسير(١) وينتهي بالاردن أما الأودية الفصلية التي تسيل مياهها في فصل الشتاء فأهمها: وادي شوباش(٢) والذي يبدأ من قرية المغير(٣) ورابا(٤) وابزيق(٥) وينتهي في نهر الاردن(٦). ووادي دوراً ويبدأ من جوار قرية طمون ماراً بأراضي قرية البقيعة ويعرف قبل مصبه بنهر الاردن بإسم ابو سدرة(٧).

ومن الاودية ايضاً وادي القاضي(٨) ، ووادي حمدان قرب قرية دير الغصون(٩) ووادي البرج في قرية تل(١٠) ووادي ابي شجرة في قرية جماعين(١١) ، ووادي قرية بيت وزن(١٢) ، ووادي القطيري في قرية بيتا(١٣) ، ووادي السبيل غرب نابلس(١٤) ، وغير ذلك من الاودية الفصلية التي تسير في منطقة نابلس في فصل الشتاء.

وقد ترك لنا الرحالة الجغرافيون الذين زاروا المنطقة انطباعاتهم ودونوا لنا مشاهداتهم بحيث أفادتنا تلك الملاحظات والمشاهدات في التوصل الى صورة حية عن نابلس في الفترة

---

(١) تياسير وهي تقع على هضبة عالية في شمال شرق طوباس وتبعد عنها ٣ كلم، بورشارد: وصف الأرض المقدسة ص ١١٠.

(٢) الدباغ: بلادنا فلسطين ج٢ ق٢ ص٣٩-٤٠.

(٣) المغير: قرية تقع في الجنوب الشرقي من نابلس على بعد ٣٤كم، الدباغ: بلادنا فلسطين ج٢ ق٢، ص٣٢٦.

(٤) رابا: قرية تقع جنوب شرق جنين ويوجد بها مقام النبي رابين الذي اعطى القرية اسمه محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٤٠١.

(٥) ابزيق: قرية تقع في الشمال الشرقي من قرية طوباس الدباغ: بلادنا فلسطين ج٢ق٢ ص٤٥٢.

(٦) الدباغ: بلادنا فلسطين ج١ ق٢، ص ٤٢٩.

(٧) المرجع نفسه والقسم ص٤٤.

(٨) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٣ أ ص٤٩ وسجل رقم ١٧ ص٤٤٤.

(٩) دير الغصون: قرية تقع على بعد ١٢كم شمال شرق طولكرم، محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٣٩٤.

(١٠) تل: قرية تقع الى الجنوب الغربي من مدينة نابلس وتبعد عنها ١٤كم الدباغ: بلادنا فلسطين ، ص٣٥٠.

(١١) جماعين: اوجماعيل قرية في جبل نابلس. وتقع الى الجنوب الغربي من المدينة وتبعد عنها مسافة ١٦كم ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٥٩-١٦٠، Beyer :G. Neapolis und sein Gbiet P. 168-169.

(١٢) بيت وزن: تقع القرية في ظاهر بيت ايبا في قضاء نابلس: محمد شراب: معجم بلدان فلسطين ص٢٠٦.

(١٣) بيتا: قرية تقع جنوب مدينة نابلس وتبعد عنها ١٣كم .Hutteroth, Historical Geography P 134

(١٤) سجل محكمة نابلس الشرعية رقم ١٤ ص٢٧٨ وسجل رقم ١٧ ص٦٠ وسجل رقم ١٩ ص٦٩.

موضوع الدراسة. فقد ذكرها الاصطخري بقوله "فلسطين ماؤها من الامطار وأشجارها وزروعها اعذاء إلا نابلس فأن بها مياهاً جارية"(١). أما الحموي فقد وصفها في معجمة بأنها مدينة مشهورة في أرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل أرضها حجر(٢).

أما شيخ الربوة الدمشقي فقد وصف المدينة وصفاً رائقاً فقال عنها "مدينة نابلس مدينة خصبة نزهة بين جبلين متسعة ما بينهما ذات مياه جارية وحمامات طيبة وجامع حسن تقام فيه الصلوات وكثير قراءة القرآن به ليلاً ونهاراً والاشتغال فيه كثير وهي كأنها قصر في بستان قد خصها ا لله بالشجرة المباركة وهي الزيتون(٣).

فيما لفت نظر البغدادي وهو يصفها ما امتازت به المدينة من الجمال والنظافة فقال عنها مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة الماء نظيفة(٤). أما ابن فضل ا لله العمري فقد ذكرها بقوله "مدينة ممدنه يحتاج اليها ولاتحتاج لسواها(٥). وبذلك يكون العمري قد جمع كل محاسنها ومميزاتها في عبارة لطيفة دلت على قدرة فائقة ومعرفة اكيدة بالمدينة.

---

(١) الاصطخري: مسالك الممالك، ص٥٦.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٨.

(٣) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠.

(٤) البغدادي: مراصد الاطلاع ج٣ ص١٣٤٧. القزويني زكريا بن محمد بن محمود: اثار البلاد اخبار العباد، دار صادر بيروت، د:ت ص٢٧٧ وسيشار اليه فيما بعد القزويني اثار البلاد.

(٥) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين ابي العباس احمد بن يحي: مسالك الابصار في ممالك الامصار" دولة المماليك الاولى تسح دوروتيا كرافولسكي، المركز الاسلامي للبحوث: بيروت ط١، ١٩٨٦ ص١٨٧ وسيشار اليه فيما بعد العمري: مسالك الابصار؛ القلقشندي: صبح الاعشى ج٤، ص١٠٧.

أما إبن بطوطة فقد زار المدينة في القرن الثامن الهجري وكتب عنها يقول "انها مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً(١) ، أما إبن شاهين فقد تحدث عنها بقوله "مدينة حسنه كان بها قلعه هدمت ولها اقليم يشتمل على ثلاثمائة قرية(٢).

أما الحنبلي فقد اشار في كتابة الانس الجليل الى وصفها بأن روى عن المشرف بسنده عن كعب انه قال"أحب البلاد الى الله الشام واحب الشام الى الله تعالى القدس واحب القدس الى الله تعالى جبل نابلس ليأتين على الناس زمان يتماسحون بالجبال بينهم، ثم اخذ في وصف المدينة بقولة "مدينة بالأرض المقدسة مقابل بيت المقدس من جهة الشمال مسافتها عنه نحو يومين يسير الاثقال خرج منها كثير من العلماء والأعيان وهي كثيرة الاعين والاشجار والفواكة ومعظم الاشجار بضواحيها الزيتون وبها كثير من السامرة(٣). أما النابلسي فيصف المدينة نقلاً عن الحنبلي ولا يزيد عن وصفه شيئاً(٤).

أما الرحالة والحجاج الاجانب فقد تحروا في وصفهم لها الدقة ولعلهم في تركيزهم على بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية التي يتعرضون لها بالوصف اكثر توسعاً من رحالتنا وجغرافيينا فالحاج الروسي يذكر بانها مدينة واسعة تتوفر فيها جميع الاشياء من مختلف الانواع وتقع بين جبلين مرتفعين جداً ويتخلل المدينة عدد من الينابيع العذبة الباردة ويكثر في اراضيها جميع انواع اشجار الفاكهة مثل التين والبندق والخروب واشجار الزيتون التي تحيط بالسامرة مثل الغابات الكثيفة، وعلى حدودها توجد حقول غنية بجميع انواع الحنطة، وتتسم اراضي

---

(١) ابن بطوطة: أبو عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي: تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروفة بأسم رحلة ابن بطوطة، تح طلال حرب، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص٥٦ وسيشار اليه فيما بعد ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة.

(٢) ابن شاهين، غرس الدين خليل الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس رىايس، مطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤، ص٤٦ وسيشار اليه فيما بعد ابن شاهين: زبدة كشف الممالك.

(٣) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٧٥.

(٤) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٣-٧٤.

المدينة بشكل عام بجمالها وتنتج الزيت والنبيذ والقمح بكثرة وتستورد مدينة بيت المقدس جميع ما تحتاجه من طعام من هذا المكان وتسمى السامرة في الوقت الحاضر بمدينة نابلس(١).

أما بورشارد فقد تحدث عنها بقوله تقع مدينة شكيم التي تدعى اليوم باسم نيابلوس (نابلس)(٢) بين هذين الجبلين وهي مدينة جميلة جداً ومليئة بالاشياء الجيدة ولكنها غير محصنة(٣).

وبعد فإن قراءة متأنية للنصوص التي سبق عرضها تجعلنا نؤكد ان المنطقة التي نحن بصدد دراستها قد حوت ضمن اطارها الجغرافي على السهل والجبل والغور، وقد تمتعت تبعاً لذلك بازدهار عظيم وغنى وافر فهي من أخصب المناطق واغناها ولا توجد بها بقعة غير قابلة للزراعة أو خالية من المياه، وقد زرع فيها الكثير من الاشجار والمزروعات المثمرة بحيث غدت جنة يانعة. بحيث يصح لنا أن نعّد العصر المملوكي الاول لولاية نابلس واحداً من ازهى العصور وأكثرها استقراراً وتقدماً في هذا المجال وهو ما سنلمسه بوضوح حين نتحدث عن الحياه الاقتصادية في نابلس.

وبعد أن تحدثنا عن الاوصاف الجغرافية والدلالات التي تستشف من خلالها نتحدث الآن عن الاطار الجغرافي بحدوده وتبعيته الادارية في العصر المملوكي لنتلمس مدى الصعوبة التي يواجهها الباحث في تحديد ولاية مثل ولاية نابلس كون الحدود الادارية للولاية تتأثر بقضية التبعية الادارية والظروف السياسية التي تعيشها الدولة والولاية مما ينعكس عليها اما امتداداً أو تقلصاً، وفي هذا الاطار لا تسعفنا المصادر الاسلامية بحدود دقيقة يركن اليها الباحث فعلى

---

(١) دانيال: رحلة دانيال الراهب، ص١٠٨-١٠٩.

(٢) سبق ان اشرنا في بداية هذا الفصل وفي معرض الحديث عن التسمية والبناء الى ان مدينة شكيم تختلف كلياً عن مدينة نابلس وذلك ان شكيم دمرت سنة ٦٧م. و لم يقدر لبنائها ان يعاد ثانية أما نابلس فقد شيدت غرب المدينة المدمرة عام ٧١م ولا زالت ماثلة للعيان الى اليوم.

(٣) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٠٨.

الرغم من وقوع الولاية في وسط فلسطين، وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي حازتها وعبرت عنها كتابات مصادرنا سابقة الذكر الا ان عملية التحديد الدقيق تبقى بالغة الصعوبة، ولعل الحد الاكثر ضبطاً والذي تجمع عليه المصادر بدقة هو الحد الجنوبي ويعود ذلك الى وجود المدينة المقدسة في تلك الجهة فالمقدسي يذكر بأن حد القدس من جهة الشمال تخوم نابلس(١) وكذلك الحنبلي الذي يذكر بأن نابلس مقابل بيت المقدس من جهة الشمال ومسافتها عنه نحو يومين بسير الاثقال(٢)، وإن الفاصل الذي يفصل بين عمالة القدس وعمالة نابلس قرية سنجل(٣) وعزون(٤) ورأس بني زيد من أعمال الرملة(٥). أما باقي الجهات فهي غير محددة بدقة واستناداً الى المصادر الاوروبية وبخاصة الرحالة المعاصرين لفترة موضوع البحث فإن الحدود تصبح على الوجه التالي.

من الشمال مدينة جنين(٦) فعند هذه البلدة ينتهي اقليم الجليل ويبدأ اقليم السامرة (نابلس)(٧) ومن الشرق نهر الاردن الذي يبعد عن الحد الشمالي لنابلس حوالي سبعة فراسخ(٨)،

---

(١) المقدسي: احسن التقاسيم، ص١٧٣.

(٢) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٧٥.

(٣) سنجل: بكسر اوله وسكون ثانية وكسر الجيم واخره لام. بليده من نواحي فلسطين وعندها جب يوسف الصديق عليه السلام، ياقوت، معجم بلدان ج٣ ص٢٦٤.

(٤) عزون: قرية تقع شمال قلقيلية ويغطي الزيتون مسافة كبيرة من أرضها، محمد شراب: معجم بلدان فلسطين ص ٥٣٢.

(٥) أحمد سامح الخالدي: اهل العلم والحكم في ريف فلسطين جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ط١ ١٩٦٨، ص٤٣.

(٦) جنين: بلاد حسنة بين نابلس وبيسان من ارض الاردن بها عيون ومياه، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٢٠٢.

(٧) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٠٣.

(٨) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٠٣، سعيد بيشاوي: نابلس ص٣٦، اسعد منصور مرشد الطلاب ص٦٨. الفرسخ:يتألف من ثلاثة اميال اي ان الفرسخ كان حوالي ٦كم. فالترهنس: المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية ١٩٧٠، ص٩٢. وسيشار اليه فيما بعد هنس: المكاييل والأوزان.

أما من الجهة الغربية فتحدها مدينة قيسارية وارسوف* (١)، هذا فيما يتعلق بقضية حدود الولاية اما من حيث تبعيتها الادارية في العصر المملوكي فنحن نعلم ان بلاد الشام قد قسمت في هذا العصر الى وحدات ادارية اطلق عليها نيابات أو ممالك وان عدد هذه النيابات لم يكن ثابتاً بل يتغير تبعاً لظروف السلطنة فوجد هناك نيابات دمشق وحلب وحماه وطرابلس وصفد والكرك(٢)، مع بدايات الدولة المملوكية ثم استحدثت فيما بعد نيابة غزة (٧١١هـ/١٣١١م) ونيابة القدس (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) وفي نهاية الدولة المملوكية قلص عدد النيابات بحيث جمعت نيابة القدس وغزة والرملة معاً وصفد وطرابلس الشام وبيروت وصيدا وأعمالها معاً، ودمشق وحماة وحلب وعينتاب(٣). وتعد نيابة دمشق في ظل هذه التقسيمات كبرى النيابات الشامية بل يذكر الخالدي ان نيابة دمشق حوت على ست نيابات هي القدس وصرخد وبعلبك وحمص وعجلون ومصياف(٤). وتبعاً لهذه التقسيمات فقد ادرجت ولاية نابلس في بداية العهد المملوكي ضمن نيابة دمشق(٥) واضحت جزءاً منها إلا ان هذه التبعية لم تحظ بالثبات والاستقرار بل

---

* قيسارية: من اعمال فلسطين الساحلية ويذكر ياقوت انها من اعيان امهات المدن واسعة الرقعة طيبة الهواء كثيرة الجند والاهل فتحها معاوية بن ابي سفيان في خلافة عمر بن الخطاب وكانت اخر مدينة فتحها العرب على الساحل الفلسطيني وامتدح الرحالة قيسارية واشادوا بحسنها وحسن موقعها وقوة تحصينها ومناعة سورها وقلعتها الحصينة وعيونها المائية الجارية ومسجدها الجامع القريب من البحر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٢١، ناصرو خسرو: ابي معين الدين: سفرنامة المعروفة برحلة ناصرو خسرو ت احمد خالد، جامعة الملك سعود، ط١، الرياض، ١٩٨٣، ص٥٠-٥١.

- ارسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا وكان بها خلق من المرابطين ولم تزل بايدي المسلمين الى ان فتحها جودفري صاحب بيت المقدس في سنة ٤٩٤هـ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٥١-١٥٢

(١) بورشارد: وصف الارض المقدسة ص١٠٦ وص١٦٢ حيث اشار الى ان الواقف في سبسطية يستطيع رؤية قيسارية وعموم جبال نابلس وانه الى الجنوب من قيسارية وعلى بعد ثلاثة فراسخ تقع ارسوف، مما يعني ان حدود نابلس امتدت في فترة الدراسة الى قيسارية وارسوف.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ، ج٤، ص ١٨٦، حيث ذكر بأن الممالك المعتبرة في البلاد الشامية ست ممالك.

(٣) أحمد ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغوري سلطان مصر وأعمالها ص٣ نسخة مخطوطة لدى الباحث.

(٤) الخالدي: بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٤٧ مخطوط توجد منه نسخة في مركز المخطوطات والوثائق في الجامعة الأردنية، شريط رقم ٤٤٣٩.

(٥) اليونيني قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد: ذيل مرآة الزمان مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن، الهند ط١، ١٩٥٤، ج١، ص٧٣، وسيشار اليه فيما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤٦. العمري: ممالك الأبصار ، ص ١٨٧.

امتازت بالتغير والتردد فقد فصلت عن نيابة دمشق في حدود سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩) والحقت بنيابة غزة التي تم استحداثها عام (٧١١هـ/١٣١١م)(١).

ولم تلبث هذه التبعية لنيابة غزة ان انتهت والحقت الولاية بنيابه بيت المقدس التي استحدثت سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣)(٢) واصبحت واحدة من بين الولايات الثلاث التي ضمتها نيابة القدس إضافة الى الخليل والرملة(٣). وقد انفرد القلقشندي في موضعين في صبح الاعشى بالاشارة الى ولاية نابلس بالمملكة النابلسية الاول في معرض حديثة عن الهدنة المعقودة بين السلطان الملك الظاهر ت (٦٧٦هـ) ١٢٧٧م وبين مملكة بيروت من البلاد الشامية، وهنا ذكر المملكة النابلسية والصرخدية(٤) والثانية في الحديث عن الهدنة بين الملك المنصور قلاوون وولده الملك الصالح علاء الدين علي حيث ذكر مملكة نابلس وأعمالها(٥) ولما كان اسم مملكة يطلق على الوحدة الادارية الكبرى فهل يعني تميز نابلس بهذه الصفة واللقب تميزاً استقلالياً معيناً خاصة مع اشارته اليها في موضع آخر بالولاية الخامسة الباقية على حالها في الانفراد بالولاية(٦). وقد اختير لادارة شؤون الولاية من قبل المماليك مسؤول كبير اطلق عليه لقب امير أو كاشف، وكان هذا الامير أو الكاشف يعين في البداية من قبل والي النيابة التي تتبع لها نابلس ثم اصبح التعيين فيما بعد يتم من الابواب السلطانية في القاهرة، وقد اورد القلقشندي نسخة بتوقيع لولاية نابلس من قبل السلطان مباشرة طالب فيها السلطان واليه بمراقبة الامن والمحافظة على

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، اعتناء بيرند راتكه، فرانز شتاينر، فسبادن، ١٩٧٩، ج١٥، ص٤٨٢. محمود علي خليل عطا الله: نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الافاق. الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٥٩، وسيشار اليه فيما بعد عطا الله: نيابة غزة.

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٥. غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، ١٩٨٢، ص١٩. وقد تحدث الدكتور غوانمة عن قيام النيابة في القدس مستعرضاً التواريخ التي ساقها المؤرخين ومنهم القلقشندي، ورجح تاريخ ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م معللاً ذلك بخوف السلطان الأشرف شعبان على القدس من الخطر التتري مما جعله يرفع مكانتها الى نيابة لمقاومة هذا الخطر.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٠٥. انظر ايضاً البغدادي: مراصد الاطلاع ج٣، ص١٣٤٧.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٤، ص٤٥.

(٥) المصدر نفسه والجزء ص٥٩.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٠٦.

ارواح الناس وارزاقهم(١) وقد تبيانت رتبة هـذا الامـير فتـارة يكـون امـير طلبخانـة وتـارة امـير عشرين وتارة امير عشرة(٢) وقد تعاقب على ادارة ولاية نابلس شخصيات ذات مكانـة مرموقـة في الدولة نذكر منهم الحسن بـن يوسـف بـن أيـوب البـدر التركمـاني الـذي ولي نيابـة القـدس والرملة ونابلس والكرك غير مرة في أوقات مختلفة(٣).

وقد حدث في مناسبات عِدة أن أضيف إلى نائب القـدس كشـف الرملـة ونـابلس ومـن هؤلاء السودوني بن عبد الرحمن الذي ناب بالقدس أيام الظاهر جقمق مراراً اضيف اليه كشـف الرملة ونابلس.(٤)

أما عن التطور التاريخي لمدينة نابلس فسأوردها منذ الفتح الاسلامي حيث تمكـن القـائد عمرو بن العاص عندما توجه الى فلسطين من فتـح غـزة ثـم فتـح بعـد ذلـك سبسـطية ونـابلس واعطى اهلها الأمان لأنفسـهم وأموالهـم ومنـازلهم على ان الجزيـة علـى رقـابهم والخـراج علـى أرضهم(٥) وكان ذلك في حدود عام ١٥هـ/ ٦٣٦م اما من الناحية الادارية فقـد قسـمت بـلاد الشـام بعـد الفتـح الى اجنـاد وكـانت مدينـة نـابلس تتبـع جنـد فلسـطين وتعـرف بإسـم كـورة نابلس(٦). ولما قامت الدولة الاموية في حدود سنة ٤٠هـ/ ٦٦١ أصبحت فلسطين ومن ضمنهـا نابلس من ضمن أملاك هذه الدولة.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٢ ص٣١٨-٣١٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٦.

(٣) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت ج٣، ص ١٣١، وسيشار اليه فيما بعد السخاوي: الضوء اللامع.

(٤) نفس المصدر، ج٣، ص١٧٤.

(٥) البلاذري ابي الحسن: فتوح البلدان، تح رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بـيروت ١٩٨٣ ص١٤٤ وسيشـار اليه فيما بعد البلاذري: فتوح البلدان. ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ص٢٤٣.

(٦) ابن خردذابة: ابي القاسم عبد الله: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن ١٩٦٧، ص٧٨-٧٩ وسيشار اليه فيما بعد ابن خردذابة المسالك والممالك.

وقد امتازت هذه الفترة بالهدوء اذ لم تشر المصادر الى اية احداث ذات قيمة سياسية في هذه الفترة(١) وبعد سقوط الدولة الاموية ١٣٢هـ/ ٧٤٩م آلت بلاد الشام ومن ضمنها نابلس الى أملاك الدولة العباسية. ونقرأ في هذه الفترة عن قيام أهالي قرية بيت ماما بالشكوى الى الخليفة المتوكل(٢) ضعفهم وعجزهم عن اداء الخراج على عشرة دنانير فامر المتوكل على الله بردهم الى ثلاثة دنانير(٣) وكنتيجة طبيعية لضعف ابن السليل الشيباني والي فلسطين الذي تمرد على الخلافة العباسية واستبد بحكم فلسطين بما فيها نابلس سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م الا انه ما لبث ان هزم وقضى على تمرده في ٢٥٦هـ/٨٦٩م(٤).

ثم تبعت فلسطين لحكم والي مصر العباسي احمد بن طولون الذي تمكن من بسط نفوذه على الشام وضمها الى سيادته تحت سمع ونظر الخليفة العباسي المجرد من كل صلاحياته اللهم الا الدعاء له على المنابر وغدت نابلس بذلك من أملاك الدولة الطولونية في مصر(٥).

وبعد ان قضى على الدولة الطولونية وقامت الدولة الاخشيدية غدت نابلس من املاكهم وبقيت على تبعيتها للأخشيد حتى عام (٣٢٨هـ/ ٩٦٨م) حيث ثارت الحرب بينه وبين محمد بن رائق وهي الحرب التي انتهت بتقسيم فلسطين بين المتحاربين وغدت نابلس من أملاك ابن رائق. وذلك أن بنود الاتفاقية نصت على أن تكون الرملة وما وراءها للأخشيد

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام، بيروت ١٩٦٩-١٩٧٢ ج١، ص١٠١ وسيشار اليه فيما بعد كردعلي: خطط الشام.

(٢) المتوكل على الله: جعفر بن محمد المعتصم ويكنى ابا الفضل وامه ام ولد طخارستانيه تسمى شجاع بويع في اليوم الذي توفي فيه الواثق ٦ ذي الحجة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦م، كان اسمر رقيق البشرة يضرب لونه للصفرة وكان مهيباً شجاعاً رفع المحنة ومنع الجدل في الدين وصفت له الدنيا فنال منها اعظم الحظ قتل بسامراء في ٣ شوال ٣٤١هـ/٩٥٢م، المسعودي، ابو الحسن بن الحسين بن علي: التنبية والاشراف، دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨١، ص٣٢٩ وسيشار اليه فيما بعد المسعودي: التنبيه والاشراف.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٣.

(٤) ابن الاثير: ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ج٥ ص٣٣٤ وسيشار الية فيما بعد ابن الاثير: الكامل في التاريخ.

(٥) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٨.

وباقي الشام لإبن رائق(١) وبقيت نابلس في حوزة ابن رائق حتى مقتله سنة (٣٣٠هـ/ ٩٤١م) حيث عادت مرة اخرى لحكم الاخشيد الذي استمر حتى ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م حيث تمكنت بعدها الدولة الفاطمية من الاستيلاء على مصر والشام(٢) والقضاء وعلى الاخشيدين.

ولقد حاولت الدولة الفاطمية نشر مذهبها الشيعي الا أنها لقيت مقاومة غير يسيره من السكان وقد عبر عن هذه المقاومة اصدق تعبير محمد بن أحمد بن سهل بن نصر أبو بكر المعروف بإبن النابلسي الذي افتى بوجوب قتال الفاطميين مما دفع بوالي الشام الى إلقاء القبض عليه وارساله الى مصر في قفص من خشب وقد خاطب جوهر قائد الفاطميين بقوله "لو كان معي عشرة اسهم لرميت تسعة في المغاربة وواحد في الروم. فأمر جوهر بسجنه وحشو جلده تبناً(٣) ، مما يدل على عدم استقرار الحكم الفاطمي لفلسطين بل على قيام ثورات عديدة ضدهم ادت الى خروج فلسطين من ايديهم غير مرة مثل ثورة أبي تغلب بن حمدان ضد العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) وثورة بني الجراح(٤) مما جعل نابلس متغيرة التبعية بين الفاطميين والخارجين عليها. وفي القرن الخامس الهجري ظهر على مسرح الاحداث السياسية الاتراك السلاجقة السنة وقد تمكن هؤلاء من بسط حمايتهم على الخلافة العباسية ونجحو في مد نفوذهم على بلاد الشام والسيطرة على دمشق سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م(٥).

---

(١) الكندي: ابي عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاء: تهذيب رفن كست، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨، ص٣٠٦-٣٠٨، وسيشار اليه فيما بعد الكندي: الولاة. ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣١. أبو الفداء عماد الدين اسماعيل: المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٢٨٦، وسيشار اليه فيما بعد أبو الفدا: المختصر.

(٣) ابن العماد الحنبلي، ابي الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب، دار الافاق الجديدة، بيروت، د.ت، ج٣، ص٤٦ وسيشار اليه فيما بعد ابن العماد: شذرات الذهب.

(٤) ابن القلانسي: ابي يعلي حمزة: تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ ص٢١،٢٢ وسيشار اليه فيما بعد أبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق.

(٥) ابو الفدا: المختصر، ج٢، ص١٩.

وآلت نابلس تبعاً لذلك للحكم السلجوقي السني وتوقف الاهالي عن إقامة الخطبة للفاطميين واعادوها للخليفة العباسي، وباشر القادة السلاجقة حكم الشام ومن بينها نابلس امثال سقمان وايلغازي إبني ارتق الذين كانا على نابلس والقدس(١). الا انه وفي سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) اعاد الفاطميون سيطرتهم على القدس ونابلس بسبب انشغال السلاجقة بالصراع الجديد الذي دخلوا فيه مع الفرنجة(٢) ووقف الفاطميون موقف المتفرج الذي لا يعنية من الامر(٣) شيئاً وقد واصل الفرنجة زحفهم في بلاد الشام واستولوا على مدن الساحل الشامي واحدة تلو الاخرى حتى وصلوا بقواتهم الى اسوار بيت المقدس وحاصروها وذلك في (٤٩٢هـ/١٠٩٨م) وقاومت المدينة ما بوسعها وصمدت صموداً رائعاً امام المعتدين لدرجة اكتشف معها امراء الفرنجة المحاصرين للقدس عن حاجتهم للأكثار من نصب الآت الحصار لاسقاط المدينة فقرروا في المجلس الذي عقدوه في ٥ حزيران (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) أن يكفوا عن القيام بأية هجمات اخرى حتى تتوافر لهم المنجنيقات والسلالم التي تمكنهم من اقتحام المدينة غير ان الحاجة الى المواد الخام اللازمة للتصنيع دفعتهم للقيام بالبحث عنها وقد وصلتهم امدادات تمثلت في ست سفن رست في ميناء يافا حاملة معها المؤن والاسلحة والحبال والمسامير اللازمة لصناعة ادوات الحصار الا ان الحاجة ظلت قائمة وماسة للخشب اللازم للبناء وكان عليهم ان يرسلوا بحملات سارت أميالاً لكي تحصل على الخشب و لم يبدأ العمل في صناعة ادوات الحصار الا بعد ان اوغل تانكرد وروبرت فلاندرز باتباعهما حتى بلغوا الغابات الواقعة حول منطقة نابلس وعادوا بكتل والواح من الخشب تحملها الابل والاسرى المسلمون فتمت صناعة السلالم اللازمة لتسلق الاسوار(٤). وقد تم دخول المدينة بوحشية حيث اباد الفرنج كل سكان المدينة

---

(١) أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٢١١.

(٢) النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب: نهاية الارب في فنون الادب، تح محمد محمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص٢٤٦-٢٤٧ وسيشار اليه فيما بعد النويري: نهاية الأرب.

(٣) مجهول: اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت حسن حبشي دار الفكر العربي د.م ١٩٥٨ ص١٧٧وسيشار اليه فيما بعد مجهول: اعمال الفرنجة.

(٤) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ت الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨١، ج١، ص٤١٩-٤٢٠.

والذين قدرتهم المصادر الاسلامية بسبعين الف مسلم(١) ، وبعد ان استقرت الأمور للفرنجة في بيت المقدس صارت الخطوة التالية امامهم الاستيلاء على بقية المدن الفلسطينية ويبدو ان هذه العملية لم تواجه صعوبات كثيرة ذلك ان موجة العنف التي رافقت عملية سقوط القدس كانت كافية لبث الذعر في نفوس سكان المدن والقرى المجاورة وذلك كان من ضمن استراتيجيات الفرنج التي اتبعوها في المناطق الاخرى فضلاً عن خلو تلك المدن من وسائل الدفاع الضرورية للوقوف في وجه الأعداء(٢).

فبادر سكان نابلس الى الاسراع بالاستسلام وارسال وفد الى الفرنجة لدعوتهم الى استلام المدينة فسارع تانكرد يساعده يوستاش البويوني لاستلام المدينة دون قتال في عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م (٣) على رأس فئة كبيرة من الفرسان والمشاه وبلغا المدينة التي سرعان ما أعلن اهلها استسلامهم(٤) وبعد استلامهم نابلس شرع تانكرد بالتوجه منها الى جنوب الجليل في الشمال حيث شرع في تكوين امارة عرفت فيما بعد بإسم امارة الجليل وشكلت مدينة نابلس ركناً مهما من اركان هذه الإمارة. وبعد وفاة الملك غودفري دي بويون سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) وتولى بلدوين الاول عرش المملكة وكنتيجة لما حل بانطاكية من ضربات على يد المسلمين ادت الى اسر صاحبها الامير بوهيمند اضطر تانكرد للرحيل الى انطاكية سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠١) ليخلف خالة في قيادة انطاكية فقام بلدوين الاول بمنح امارة الجليل لهيو اوف سانت أومر بعد أن فصل عنها حيفا التي اعطاها لجالديمار كارنبل ونابلس التي احتفظ بها كمقر مدينة ملّكية او اقطاعية خاصة يشرف عليها بنفسه(٥) ، وقام بلدوين تبعاً لذلك بوضع حامية افرنجية فيها لحفظ الامن كما قام ببناء قلعة على جبل جرزيم لحماية المدينة وايواء الجند ويبدو ان بناء القلعة جاء بسبب عدم الفائدة من تحصين نابلس نفسها(٦).

---

(١) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٩.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،ط٣، ١٩٧٨،ج١، ص٢٤٦.

(٣) Enlart, les monuments des Croises Vol II P.283.

(٤) مجهول: اعمال الفرنجة، ص١٢٠ محمد مؤنس: الرحالة الاوروبيون في مملكة بيت المقدس، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٢، ص٩٩.

(٥) بيشاوي: الممتلكات الكنيسة، ص٧٤.

(٦) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٠٨.

وفي سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م) منح بلدوين قسماً من مدينة نابلس كاقطاع لاسرة ميللي Milly كما قام بتعيين نائب عنه في نابلس حمل لقب Viscount لادارة شؤون المدينة(١) ، والتي كانت ملزمة بتقديم الخدمات العسكرية لمملكة بيت المقدس وكذلك الزام رعاياها من المسلمين بدفع ضريبة العشر للكنيسة اللاتينية(٢). وقد أبدت مدينة نابلس في ظل الاحتلال الفرنجي ضروباً من المقاومة العنيفة ضد هذا الوجود وحاولت بكل ما تستطيع الخروج من دائرة الاحتلال الفرنجي وان لم تستطيع تحقيق هذا الهدف فإن هذا لم يمنعها من تقديم المساعدة للقوات الاسلامية التي كانت تجتاح المنطقة بين فترة واخرى ومن ذلك.

ما حدث سنة (٥٠٧هـ/ ١١١٣م) حينما قام كل من الامير مودود صاحب الموصل والامير طغتكين صاحب دمشق بالتوغل بقواتهما داخل حدود فلسطين حتى وصلا الى طبرية(٣). وأوقعا الهزيمة ببلدوين الاول الذي خرج للقائهما واضطر أمام شدة الهجوم الى الالتجاء لاحد التلال القريبة من طبرية مما دفع بالامراء المسلمين الى حصاره بغية القضاء على ما تبقى من قواته(٤) وفي اثناء المحاصرة قامت قوة إسلامية من قوات دمشق والموصل بشن هجوم على نابلس وتدميرها وقد أشار المؤرخون المسلمون والصليبيون الى قيام سكان نابلس بمساعدة القوات الاسلامية(٥) الا ان انتهاء الغارة وانسحاب القوات الاسلامية قد دفع بالفرنجة على الارجح الى القيام باعادة اعمار المدينة ولابد ان الاهالي صادفوا عنتاً وقسوة من الفرنجة لوقوفهم مع اخوانهم المسلمين في هذه الاعمال وكذلك تحركت القوات الدمشقية (٥٣٢هـ/١١٣٧م)

---

(١) la Monte,L.,: The Viscounts of Naplouse in the twelfth Century dans syria 1938 P.P 272-278.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧٧، ٤٨٧.

(٣) إبن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٦٦.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٦.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٦-١٨٧، فوشية الشارتري: تاريخ الحملة الى القدس، ت زياد العسلي، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٠، ص٢٠٧، وسيشار اليه فيما بعد فوشية الشارتري: تاريخ الحملة الى القدس.

مستفيدة من تحرك حامية نـابلس لنجـده الملـك فولـك في السيطرة على المدينـة وقتـل سـكانها النصارى باستثناء اولئك الذين استطاعوا اللجوء الى القصر والقلعة ثم احرقت المدينة(١).

ويتحدث أسامة بن منقذ في مذكراته عن المقاومة الشعبية التي قام بها اهالي نـابلس ضـد وجود الفرنجة وهي مقاومة تعبر عن الرفض الاسلامي للاحتلال الفرنجـي لاراضينـا ومـن ضمـن صورها قيام رجل من نابلس بالاحتيال على الحجاج المسـيحيين والتعـاون مـع أمـه وكـان يقـوم بقتلهم(٢).

وفي عهـد الملـك فولـك (٥٢٦- ٥٣٨هــ) (١١٣١-١١٤٣م) وتحديـداً في عــام (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) شهدت المدينة زيارة الاميرين معين الدين أنر وأسامة بن منقـذ بدعـوه مـن اولريك Olerek فيسكونت نابلس وهما اللذان ارتبطا معه بعلاقات مـودة وصداقـة ومـع ذلـك نقل لنا اسامة انطباعاته عن مدى الظلم والتعسف الذي عانـاه سـكان نـابلس في ظـل الاحتـلال الفرنجي(٣)" وفي عام (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) شهدت مملكة بيت المقدس صراعاً بين بلدويـن الثـاني وامه الملكة ميلسند على السطلة وانتهى الصراع بإتفاق بين الطرفين بموجبه قسـمت المملكـة بـين الفرقاء لتكون القدس ونابلس من نصيب الملكة الام(٤).

وبعد وفاة الملكة الوالدة قام الملك باسترجاع نابلس والقدس وضمها الى اقطاعاته غير انه تـوفي (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م). دون أن يـترك وريـث للعــرش فتسـلم اخـوه Almaric (٥٥٨-

---

(١) Enlart, les Monument des Croises P. 283.

(٢) اسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار تحرير فيليب حتي جامعة برستون الولايات المتحدة ١٩٣٠، ص١٧٧و١٧٩ وسيشار اليه فيما بعد اسامة بن منقذ: الاعتبار.

(٣) اسامة بن منقذ: الاعتبار ص١٧٧و١٧٩.

(٤) Enlart, les monument des croises P. 283.

٥٧٠هـ/١١٦٢-١١٧٤) الذي منح نابلس كاقطاع لماري كومنينا ابنة اخي الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين اثر زواجهما(١).

وفي عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧ منح الملك القائمين على كنيسة القيامة ارضاً في نابلس اقاموا عليها كنيسة بإسم آلام السيد المسيح Possion وقيامته وهي الكنيسة التي اصبحت فيما بعد الجامع الكبير(٢) ومع قيام الدولة الايوبية في مصر (٥٦٩/١١٧٣م) تغير ميزان القوى بين المسلمين والفرنج لصالح المسلمين خاصة بعد ان تم توحيد بلاد الشام ومصر تحت قيادة صلاح الدين وهو ما سنعرض له في الفصل الثاني عند الحديث عن نابلس في ظل الحكم الايوبي.

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ص٦٠٩.

(٢) Enlart, les Monument des croises P.P 283/284.

طبوغرافية مدينة نابلس

لقد ضمت نابلس أربع نواح حي ناحية جبل قبلي، ناحية جبل شامي (الشمالي) وناحية قاقون وناحية بني صعب.(١)

ولقد كانت معظم بيوت نابلس مبنية من الحجر وتشبه الحصون ولم يوجد بها أي بيوت مبنية من الخشب(٢) ولقد كانت هذه البيوت مكونة من طابقين فوقاني وتحتاني(٣).

وكانت نابلس تشتمل على العديد من المحلات كمحله الريش، وحبله، وغرب، والدباغة وقريوت وياسمينة، وعقبة، والعامود، وفاخوره، والجوره، والسوق الشقي، وقيسارية وميدان، وكانت هذه المحلات ترتبط بمركز المدينة حيث السوق الرئيسي المعروف بالسوق السلطاني عن طريق عدة شوارع منها شارع حمام الشجاع في محله ياسمينه وشارع العافيط في محلة الغرب، وشارع البلاط وشارع عين حسين وكانت هذه الشوارع تبدأ من وسط المدينة حيث الجامع الكبير والسوق المحيطين وتمتد الى محلات المدينة المختلفة(٤).

ولقد وجد في نابلس العديد من الأسواق غير السوق السلطانية وكانت هذه الأسواق تسمى حسب موقعها من المدينة أو حسب السلع أو المهن المتداولة منها: سوق عين السوق، وسوق المربعة، والسوق الغربي، والسوق الشرقي، وسوق الغزل، وسوق السكانية، وسوق النجارين وسوق اللحامين، وسوق العطارين(٥).

ولقد حظي سوق السلطان بمكانه مميزه لكونه من أضخم أسواق نابلس ومدنها، فقد كان مبنياً من بوابات حجرية وتغلق يومياً مع قدوم الليل وكان بطول ٢٠٠١ خطوة ويتكون من ٣٧٠ دكان على الجانب وكلها كانت مرتبة وبالرغم من وجود اسواق متخصصة في بيع

---

(١) محمد عدنان البخيت: نابلس ونواحيها في القرن السادس عشر على ضوء الوقفيات التي تحتفظ بها سجلات الدولة العثمانية، مجلة المنارة، مج١، جامعة آل البيت، ص٩٠ وسيشار اليه فيما بعد البخيت: نابلس ونواحيها.

(٢) Evliya Tshelbis: Travels in Palestine, the Quartery of the Deptat Anliquitces in Palestine, val IX No1, p13 وسيشار اليه فيما بعد Evliya Tshelbis: Travels in Palestine.

(٣) البخيت: نابلس ونواحيها ص ٣-٩.

(٤) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٠.

(٥) البخيت: المرجع السابق، ص٩٠.

بعض الأدوات الا انه كان يباع هنالك كل شيء تقريباً، وفي مركز السوق كان هنالك ١٠٠ دكان على جانبية ذات ممرات مسقوفة والى يسار السوق كان يوجد حصن يشبه الخان الضخم مع وجود مواقد متجاورة في الوسط بسقف رصاصي(١).

أما بالنسبة للدكاكين فقد اختصت هذه الدكاكين ببيع سلع محدده ومن ذلك دكانان اختصا ببيع الحلويات التي اشتهرت بها نابلس، وكان هنالك دكان اشتهر ببيع حب الهال ودكاكين اختصت ببيع العنب وهكذا(٢).

وقد وجد في نابلس العديد من معاصر الزيت، والمصابن وعدد كبير من الحمامات(٣)، ومرافق آخرى مثل المسالخ والطواحين حيث وجد في نابلس اكثر من أربع عشرة طاحونة موزعة على محلات نابلس وجوارها، بعض هذه الطواحين شتوي أقيم في الأودية كوادي الفارعة، ووادي البيدان، ووادي نابلس، وبعضها كان يتكون من حجر كطاحونة الشاغورية التي كانت تتكون من أربعة احجار، وطاحونة العقبة وقد كان يلحق بهذه الطواحين أفران(٤).

---

(١) Evliya Tshelbis: Travels in Palestine P 139.

(٢) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩١، ولمزيد من التفصيلات عن دكاكين نابلس أنظر محمد البشرلي وآخرون، املاك وأوقاف المسلمين في فلسطين. مركز الأبحاث للفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، د.ت، أنظر من ص٨٥ -٩٣ وسيشار اليه فيما بعد ابشرلي: املاك واوقاف المسلمين.

(٣) سنتحدث عنها بالتفصيل عند الحديث عن العمران الفصل الخامس.

(٤) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٢.

الفصل الثاني

الحياة السياسية في نابلس

نابلس في العصر الايوبي

بعد انتهاء معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) توجهت قوة من قوات صلاح الدين بقيادة حسام الدين لاجين باتجاه مدينة نابلس، حيث تمكنت وبمساعدة من سكان المدينة المسلمين من تحرير المدينة[١] ، وردها الى الحظيرة الاسلامية، وقد اقدم السلطان صلاح الدين بعد التحرير على اقطاع نابلس واعمالها وضياعها ونواحيها وقلاعها لإبن اخته الامير حسام الدين لاجين[٢] ، المشهور بالعدل والامان الامر الذي ساعد على استقرار المنطقة وقد اشار البنداري لذلك فقال: عن نابلس "فعادت بلدة محشوة بساكنيها كالرمان وبقيت الى اخر عهده وعمّرت بعدله واحسانه، رفقة ورفده[٣].

وبوفاة الامير حسام الدين لاجين ٥٨٧هـ/١١٨٤[٤] ، انتقل اقطاع نابلس لسيف الدين بن المشطوب[٥]، علي بن احمد الهكاري[٦] والذي وصفته كتب التراجم بالجور والظلم حيث تغير حال مدينة نابلس الأمر الذي دفع سكان نابلس للتصريح بشكواهم الى صلاح الدين

---

(١) ابو شامة: شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل بيروت، د.ت،ج٢.ص٨٨. وسيشار اليه فيما بعد أبو شامة: الروضتين

(٢) البنداري، الفتح بن علي: سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩ص ٣٠٢، وسيشار اليه فيما بعد البنداري: سنا البرق الشامي.

(٣) نفس المصدر، ص٣٠٢.

(٤) ابن الجوزي:شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي: مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٩٥١، ج٨، ق١، ص٣١٢ وسيشار اليه فيما بعد ابن الجوزي: مرآة الزمان.

(٥) المشطوب، لقبه والده وانما قيل له ذلك لشطبه في وجهه ابن خلكان، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٧٧، ج١، ص١٨٠، وسيشار اليه فيما بعد ابن خلكان وفيات الاعيان.

(٦) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تح جمال الدين الشيال، دار احياء التراث القديم المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٩٥٧، ج٢، ص٣٨١، وسيشار اليه فيما بعد ابن واصل: مفرج الكروب.

وذلك حين اجتاز نابلس من القدس في طريق عودته الى دمشق سنة ٥٨٨هـ/١١٨٥م فبثوا شكواهم الى السلطان واستغاثوا به فقال: ما لهولاء يتظلمون من المشطوب وهو راكب بين يديه فقال: يا علي لو كان هؤلاء يدعون لك حتى يسمع الله فكيف وهم يدعون عليك[١] . فنهاه صلاح الدين وزجره وازال ما اوقعه بالرعية، ويبدو ان صلاح الدين كان يدرك ان الظلم من ابن المشطوب قد وقع بسبب اقطاع كافة نابلس له الامر الذي جعله يتلافى ذلك بعد وفاة ابن المشطوب حيث اوقف السلطان بعده ثلث نابلس على مصالح القدس الشريف، واقطع الباقي لولده عماد الدين احمد بن سيف الدين المشطوب واميرين معه[٢].

وذلك من اجل تعزيز خطة صلاح الدين في تدعيم وتقوية عروبة واسلامية بيت المقدس وقد يكون ذلك من اجل تخفيف النفوذ والسيادة المالية لمن يتسلم نابلس.

ويلاحظ بان نابلس قد دخلت في دائرة الصراع بين أبناء البيت الايوبي أثر وفاة صلاح الدين (٥٨٩هـ/١١٩٣م) إذ ان الصورة العامة لورثة صلاح الدين انهم قد اشتغلوا بالصراعات المحلية بينهم لاقتسام المملكة حيث كانت مصر من نصيب الملك العزيز عثمان، اما الشام فجعلت من نصيب الملك الافضل، في حين اصبحت حلب من نصيب الملك الظاهر غازي[٣].

وتبعاً لهذا الانقسام غدت نابلس من ضمن مملكة الملك الافضل، وتلحق دمشق إدارياً. وقد اقر الافضل الامير عماد الدين بن المشطوب ومعه الاميرين على اقطاعهم كما كان ايام

---

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ، ق١، ص٤٢٠.

(٢) الحنبلي: احمد بن ابراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تح ناظم رشيد د.ن:د.م:١٩٧٩،ص١٧٩، وسيشار اليه فيما بعد الحنبلي: شفاء القلوب، ابن واصل:مفرّج الكروب، ج٢،ص٤١٠؛ ابن الوردي زين الدين عمر: تتمة المختصر في اخبار البشر، تح احمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠، ج٢، ص١٥٩، وسيشار اليه فيما بعد ابن الوردي: تتمة المختصر.

(٣) ابن الاثير: ابي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ج٩، ص٢٢٦-٢٢٧؛ وسيشار اليه فيما بعد ابن الاثير: الكامل.

الناصر صلاح الدين، وقد أشارت المصادر الى عدم مضبوطيتهم، ووقوع التدليس في عهدهم، حيث تلاعب هؤلاء الامراء بالثلث الموقوف على مصالح القدس(١).

ومن المعروف بأن الخلافات والمنازعات قد دبت بين الاخوة فحدث سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م خلاف بين الملك الافضل والملك العزيز عثمان بسبب طمع كل من الاخوين بملك الاخر.

وقد كان للامراء دور بارز في توسيع شقة الخلاف بين الاخوين، وهنا وتفادياً للصدام الذي كان سيقع بينهما، اشار الوزير ابن الاثير على الملك الافضل بأن يخلي القدس لاخيه الملك العزيز فكتب الافضل للعزيز في ذلك، وفوض اليه القدس وعمله. فسر العزيز بذلك وشكر لاخيه. فلما بلغ ذلك من هم في نابلس خافوا من محاسبة الملك العزيز لهم لكونهم قد مدوا ايديهم الى الاوقاف، ومن جملتها ثلث نابلس الموقوف على عمارة القدس ومصالحة فكتبوا الى الافضل وتمكنوا من ثنيه عن عزمه، فتغير الملك العزيز لذلك وتكدر باطنه(٢) . ولكن الخواطر هدأت بعد ان تدخل الملك العادل الذي تمكن من تقليص حدة التوتر، ونجح في عقد الصلح بين الاخوين وهو الصلح الذي تم على اساسه ضم نابلس والقدس الى الملك العزيز عثمان(٣). وبذلك غدت نابلس من ضمن املاك العزيز عثمان والذي اقدم في عام (٥٩١هـ/١١٩٤م) على اقطاعها لفارس الدين ميمون القصري شريطة اعداد سبعمائة فارس لمقاتلة الفرنج(٤) ، ولكن فترة حكم الملك العزيز عثمان لم تطل كثيراً اذ توفي في عام (٥٩٥هـ/١١٩٨م)(٥) ، لتنتقل مقاليد

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٥.

(٢) المصدر نفسه الجزء والصفحة.

(٣) المصدر نفسه الجزء، ص٣٠.

(٤) ابو المحاسن، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغريبردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للطباعة، القاهرة، ج٦،ص١٣٧. وسيشار اليه فيما بعد أبو المحاسن: النجوم الزاهرة.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩،ص٢٤٣.

الامور من بعده الى عمه الملك العادل الذي نجح في بسط سيطرته على مصر، وتطلع بعد ذلك الى دمشق محاولاً انتزاعها من ابن اخيه وضمها الى أملاكه.

وفي هذه الفترة كان فارس الدين ميمون القصري مقيماً بنابلس، فلما بلغه اسقاط خطبه الملك المنصور بن العزيز، واستقلال الملك العادل بالملك عظم عليه ذلك ونفر منه، وانكره وكتب الى الملك العادل مكاتبات تنم عن عدم رضاه عن هذا التحول الذي حصل في مصر[1] ولم يكتف ميمون القصري بمكاتبه الملك العادل بل كاتب الامراء الصلاحية (نسبة الى صلاح الدين) يحرضهم على العادل ولكنه لما لم يجد منهم استجابة للقيام ضد العادل[2]، قرر الانضمام مع الملك الافضل في مواجهة الملك العادل الذي اعلن رغبته في السيطرة على دمشق[3].

وفي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م خرج الملك العادل من القاهرة بعساكره لتحقيق رغبته في السيطرة على دمشق واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمد، وسار العادل حتى نزل على نابلس، وقدم طائفة من عسكره، فساروا الى دمشق واستولوا عليها، مما استدعى قيام الملك الافضل والظاهر غازي بمحاصرة دمشق[4]. لكن الملك العادل نجح في اذكاء الخلاف بين الاخوين، الامر الذي ادى الى النزاع بينهما فقررا الرحيل عن دمشق في اول محرم من عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م، وقد علم العادل بالنبأ فرحل الى دمشق واستقر بها، وكان الظاهر غازي قد

---

(١) حول هذه المكاتبات انظر النويري: شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب: نهاية الارب في فنون الادب، تح محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ج٢٩، ص١٩-٢٠، وسيشار اليه فيما بعد النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص١٩-٢٠، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١١٧-١١٨.

(٢) المقريزي، احمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد مصطفى زياده. مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧، ج١، ق١، ص١٥٤. وسيشار اليه فيما بعد المقريزي: السلوك.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٤٥.

(٤) ابن سباط: حمزة بن احمد بن عمر: صدق الاخبار تاريخ ابن سباط تح عمر عبد السلام التدمري، جروس برس، لبنان ط٢، ١٩٩٣، ج٩، ص٢٤٥، وسيشار اليه فيما بعد ابن سباط: صدق الأخبار.

عاد الى حلب ومعه جماعة من الامراء من بينهم الامير فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس الذي اكرمه الظاهر غازي بأن اقطعه عزاز(١).

اذاً يبدو لنا ان ابناء السلطان صلاح الدين لم يستطيعوا ملء الفراغ الذي احدثه رحيل والدهم وبالتالي لم يستطيعوا النهوض بالمشروع الكبير الذي نهض به والدهم، وهو تحقيق الاتحاد لمواجهة خطر الفرنجة، الذي استهدف النيل من البلاد الاسلامية، وكانت الظروف السياسية المحدقة بالامة تتطلب رجلاً ذا مواصفات سياسية وعسكرية فذة، تمكنه من اعادة تحقيق الوحدة للامة ومن ثم مواجهة الاخطار الفرنجية المحدقة بالبلاد، ويبدو ان هذه الصفات قد تجمعت في شخص الملك العادل الذي كان موضع ثقة صلاح الدين في كثير من المواقف والظروف.

ان مجمل الاحداث تجعلنا نميل الى ان العادل نجح في اعادة بناء الوحدة بين مصر والشام بعد ان كادت تعصف بها الخلافات التي دبت بين ابناء السلطان الناصر صلاح الدين والتي تعود في معظمها لطبيعة نظام الاقطاع العسكري الذي ساد في الدولة الايوبية، ذلك ان صلاح الدين ما ان اكمل بناء دولته ووحد اجزاءها حتى بادر الى توزيعها على شكل اقطاعات بين ابنائه واخوته وامرائه وفي رأينا ان ما اقدم عليه صلاح الدين من توزيع لمملكته بين ابنائه كان له ما لا يؤيده في مجريات الاحداث السياسية، ذلك ان هذا النظام كان مسؤولاً عما انتهت اليه الدولة من اعادة تمزيق بعد ان وحدها لانه من شأنه الحيلوله دون بقاء المقاتلين تحت السلاح لمدة طويلة وخاصة في مواسم الفلاحة وجني المحاصيل وقد بدت عيوب هذا النظام واضحة لصلاح الدين في حياته وخاصة اثناء حصاره لعكا فقد بات واضحاً ان صلاح الدين قد فقد سيطرته على اقطاعاته فأخذ كبار الامراء وقادة الجند يضجرون من طول مدة الحصار على عكا ويبدو ان قوة شخصية صلاح الدين وما حققه من انتصارات على الفرنجة قد حافظت على وحدة

(١) عزاز. هي بليدة فيها قلعة وبها رستاق شمالي حلب بينهما يوم وهي طيبة الهواء. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص ١١٨.

دولته، ولكن بعد وفاته استقل ابناؤه وكبار رجال دولته باقطاعاتهم واصبحت الدولة مكونه من عدة ممالك تنازعت فيما بينها وقد نجح العادل في توحيد مصر والشام ولكنه لم يستفد من تجربة صلاح الدين ولم يعمل على تدارك اخطائه لانه قام فيما بعد بتقسيم الدولة بين ابنائه ليدخل الاخوة من جديد في الصراع، وهو الصراع الذي سيستمر حتى نهاية الدولة على يد المماليك.

أما فيما يتعلق بنابلس في هذه المرحلة، فقد غدت من املاك الملك العادل، وقد حدث في هذه الاثناء زلزلة مدمره امتدت الى الشام والساحل وهدمت مدينة نابلس ولم يبق بها جدار قائم الا حارة السامرة، وقد قتل في هذه الزلزلة تحت الهدم جمع كثير من سكان نابلس[١].

ومن ناحية اخرى فاننا لا نعثر عما يشير الى قيام الملك العادل باقطاع نابلس لاي من الامراء المحيطين به الا قيام العادل بمنح فلسطين لابنه الملك المعظم عيسى، وبطبيعة الحال وكجزء من أرض فلسطين اصبحت نابلس من أملاك المعظم عيسى.

وقد لعبت نابلس في الفترة الأيوبية دوراً لا يستهان به في التصدي للفرنجة ومقاومتهم. شأنها في ذلك شأن بقية المناطق الفلسطينية ففي عام (٦٠٧هـ/١٢١٠م) تحركت جموع اسلامية من دمشق الى نابلس حيث كان يقيم الملك المعظم عيسى، بهدف التحرك باتجاه مدينة عكا لمهاجمة معاقل الفرنجة فيها، وقد عمل الملك المعظم عيسى عند وصول هذه القوات على تجهيزها واعدادها وبعد ذلك سار هو ومن معه نحو الفرنجة فقتلوا خلقاً وخربوا اماكن كثيرة وعادوا سالمين[٢].

---

(١) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٢٨.

(٢) ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، تح ابو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ ج١٣، ص٦٤. وسيشار اليه فيما بعد إبن كثير، البداية والنهاية.

وفي عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) تتابعت وصول الامدادات الفرنجية الى ساحل عكا قادمة من أوروبا بغية الاستيلاء على القدس الشريف واسترداد البلاد الساحلية ولما علم الملك العادل بذلك توجه هو وقواته لملاقاة الفرنجة فوصل الى نابلس ثم الى بيسان وتحركت القوات الفرنجية من عكا باتجاه بيسان بقصد ملاقاته فخاف العادل ان لقيهم و لم تتكامل عنده العساكر الاسلامية ان يكسر فلا تقوم للاسلام بعد ذلك قائمة[1] فتحرك الى دمشق وطلب ان تتجمع عنده العساكر[2] وطلب من ابنه الملك المعظم عيسى البقاء مع فرقة من الجند في نابلس لمنع الفرنجة من الاستيلاء على بيت المقدس، فاستعد الملك المعظم لذلك وتوجه مع قواته الى عقبة اللبن خوفاً على القدس[3] ويبدو لنا ان الملك المعظم قد بقي في نابلس و لم يغادرها بعد الهجوم الفرنجي بدليل انه عندما توفي الملك العادل سيف الدين في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٦١٥هـ/٣١ آب ١٢١٨م كان المعظم عيسى مقيماً في نابلس[4] فارسل اليه خبر وفاة والده في عالقين فانتقل الى هناك وقام بنقل جثمان والده الى دمشق حيث دفن هناك.

وفي عام (٦١٦هـ/١٢١٩م) استولى الفرنجة على دمياط وقد احدث ذلك دوياً هائلاً في العالم الاسلامي، وقد بادر الملك المعظم عيسى للقيام بواجبه بتجهيز قواته ومساعدة القوات

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣،ص٢٥٣. الدواداري، ابي بكر عبدالله بن ايبك: كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح سعيد عاشور، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ج٧، ص١٨٧، وسيشار اليه فيما بعد ايبك: كنز الدرر. ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون المسمى: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، م٥، ق٤، ص ٤٠٩، وسيشار اليه فيما بعد ابن خلدون: العبر.

(٢) أبي شامة، شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسماعيل: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تح محمد زاهر الكوثري، ط٢، دار الجيل بيروت ١٩٧٤ ص١٠٢، وسيشار اليه فيما بعد أبو شامة: تراجم القرنين. اشارات بعض المصادر بخصوص هذا الصراع الى قيام الفرنج سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م بنقض الهدنة التي كانت معقودة بين الطرفين وذلك عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م أنظر بخصوص ذلك أبي شامة تراجم رجال القرنين، ص ١٠٢، أبي الفضائل، محمد بن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، تح أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١، ص٧٣، وسيشار اليه فيما بعد أبو الفضائل: التاريخ المنصوري، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٨٩.

(٣) ابي شامة: تراجم رجال القرنين،ص١٠٢، المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص١٨٧. ابن واصل: مفرج الكروب،ج٣،ص٢٥٤.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب،ج٣،ص٢٧٥، ابن خلدون: العبر، م٥، ق٤، ص٤١١، ويؤيد النويري ما ذهبنا اليه حيث يشير الى لقاء تم بين الفرنجة والملك المعظم عيسى على القيمون وانتصار الملك المعظم عيسى في هذا اللقاء واقام بنابلس فكتب اليه كريم الدين الخلاطي خبر وفاة والده، النويري: نهاية الارب، ج٢٩،ص٨٢-٨٣.

الدمشقية في نابلس للرد على هذا الاعتداء الذي تعرضت له دمياط[١] كذلك اعتاد المعظم عيسى اثناء تواجده في نابلس على القيام بشن الغارات الاعتراضية والمتقطعة على القوات الفرنجية ويسجل بانه الملك المعظم كان نازلاً مره بنابلس وفي معسكره يومئذ بهاء الدين نصير بن محمد القيسراني فبعث الملك المعظم جماعة من عسكره فاغاروا على مدينة قيسارية من الساحل وكانت يومئذ بيد الفرنج فاسروا وقتلوا وعادوا مظفرين منصورين وجلبوا معهم ثماراً من قيسارية اترج كثير وليمون، فقام الملك المعظم باهداء جزء من هذه الثمار الى القيسراني[٢].

لقد حظيت نابلس خلال عهد الملك المعظم عيسى باهتمامه الكبير، ومن أوجه هذا الأهتمام بأنه اعتبرها خط دفاع متميز لمحاربة الفرنج والدفاع عن القدس ففي سنة ٦٢٤/١٢٢٧م جهز العساكر الى نابلس لحماية القدس من اطماع الأمبراطور فردريك وانفق على هذه العساكر ٩٠٠ ألف درهم[٣] . فاقام بها فترات متعدده الى حين وفاته (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) ويبدو لنا ان المعظم عيسى كان يقوم بنفسه بتعين الولاه على نابلس على الرغم من اغفال المصادر الاسلامية لاسماء هؤلاء الولاه، ومع ذلك لدينا اشارة تحدثت عن قيام الملك المعظم عيسى بعرض نابلس على سنقر الحلبي الصلاحي ت(٦٢٠هـ/١٢٢٣م)[٤] لكنه عاد واعرض عنه ولم ينصفه[٥] وبعد وفاة الملك المعظم عيسى خلفه على الحكم ابنه الملك الناصر داود وهو شخصية لم تتوافر له الحنكة والخبرة السياسية الكافية لادارة شؤون الحكم في فترة امتازت بالقلق وعدم الاستقرار وسرعة التغير والتبدل في الاحداث مما سهل الامر على عمه الملك الكامل محمد حاكم مصر في انتزاع دمشق منه على ان تكون للملك الاشرف وما معها

---

(١) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٩٥-٩٦، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٨-٢٣٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢١٧.

(٣) يوسف غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان ط٢، ١٩٨٢، ص٢١٤، نقلاً عن مخطوط ابن رافع السلامي مختصر التواريخ لوحة ٣٢٧.

(٤) سنقر الحلبي الصلاحي الامير مبارز الدين كان من كبار رجالات الدولة بحلب ثم انتقل عنها الى ماردين.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٢٦، الصفدي: الوافي بالوفيات ج١٥، ص٤٨٨. ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص٣١٩.

الى عقبة فيق* (١) وقرر للناصر الكرك، والشوبك والصلت والبلقاء، والاغوار، ونابلس واعمال القدس(٢) فبقيت نابلس والحالة هذه ضمن املاك الناصر داود بن المعظم عيسى وفي سنة ١٢٢٨/٦٢٥م خرج الكامل من مصر فنزل في غزة ثم في تل العجول واثناء ذلك تمكن من انتزاع نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال من ابن اخيه الناصر داود ثم سار الى نابلس واقام في دار الملك المعظم عيسى ولقد تزامن ذلك مع وصول الأمبراطور فردريك الثاني على رأس قواته الى مكاني ٥ شوال (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) حيث بدأت مفاوضات بين الطرفين ورتب الولاه من قبله في نابلس والخليل وبيت المقدس وغيرها من الاعمال التابعة للناصر داود(٣) واستمرت لفترة طويلة حيث انتهت بتوقيع الاتفاقية في تل العجول بظاهر غزه والتي حصل الفرنج بمقتضاها على بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وبقي المسجد الاقصى وقبة الصخرة بايدي المسلمين كما حصل الفرنج ايضاً على مدينتي صيدا وتبنين وجميع القرى الواقعة على طول الطريق بين يافا وعكا والقدس اضافة الى اللد والرملة بينما احتفظ المسلمون بنابلس والخليل وطبرية(٤) وبقيت نابلس وقراها تحت سيطرة الكامل محمد حتى تنازل الناصر داوود عن دمشق والشوبك الى عمه الكامل الذي رد اليه بلاده باستثناء دمشق والشوبك وبيت المقدس ثم قام الناصر داوود بتأسيس امارة الكرك الايوبية واصبحت نابلس والقدس والخليل ومنطقة شرقي الاردن من ضمن هذه الامارة(٥) ولم تمض بضعة اسابيع على توقيع المعاهدة ورحيل فردريك عن القدس حتى دبر ائمة المسلمين والزهاد في نابلس والخليل في عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) هجوماً على بيت المقدس فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم الى برج داود للاحتماء به وقاموا بطلب النجدة من عكا ولم يجبر المغيرين على العودة سوى قدوم نائبي الامبراطور باليان سيد

* عقبة فيق: المكان الذي ينحدر فيها الى غور الأردن وهو يشرف على طبريا وبحيرتها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٨٦.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٠-٢٣١. المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٢٦.

(٢) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، ص٣٤٦-٣٤٧.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٧٧، ابن خلدون: العبر، م٥، ق٤، ص ٤١٨.

(٤) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص٣٧٨، ابن لقلق كيرلس الثالث، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشر انطون خاطر وازلود بارمستر، جمعية الاثار القبطية، القاهرة، ١٩٧٤، م٤، ج١، ص٥١، وسيشار اليه فيما بعد ابن لقلق: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

(٥) يوسف غوانمة: امارة الكرك الايوبية، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢ص٢٣١، وسيشار اليه فيما بعد غوانمة، امارة الكرك الايوبية.

صيداء وجاربنه على رأس جيش وانكر الامراء المسلمون صلتهم بهذا الغاره[1] ولا شك ان ما قام به المسلمون من اغارة انما يعبر عن الرفض الاسلامي لتلك المعاهدة واصرارهم على مقاومة الفرنجة المحتلين لبلادهم. والظاهر ان احوال نابلس قد اتسمت بالهدوء بعد هذه الغارة وتبعيتها لامارة الكرك اذ لم تتعرض لأي هجوم فرنجي وبقيت الأحداث تسير بانتظام حتى سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) حيث توفي الكامل محمد وتسلطن على مصر من بعده ابنه العادل الثاني وقد حاول الناصر داود استغلال هذه الفرصة لاسترداد ما كان قد اقتطعه منه عمه الكامل ولكن الجواد مظفر الدين يونس نائب العادل في دمشق خرج له وجرت بينهما معركة في موقع ظهر الحمار بين نابلس وجنين في ١٤ ذي الحجة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) وانتهت بهزيمة قاسية للناصر داود في حين قوى الجواد يونس بنتيجة هذه المعركة حيث استولى على جميع خزائن الملك الناصر[2] ولكن الملك العادل الثاني تخوف من الجواد فأمر برد ما اخذه من الملك الناصر داود فاعاد الجواد للناصر ما اخذه منه[3] وبالتالي عادت نابلس مره اخرى للانضمام الى امارة الكرك الايوبية بزعامة الملك الناصر داود.

ولم تلبث بلاد الشام ان غرقت من جديد في النزاع بين ابناء البيت.الايوبي وذلك حينما اعلن الملك الصالح نجم الدين ايوب بعد استيلائه على دمشق من اخيه العادل الثاني عن رغبته في الاستيلاء على السلطة في مصر مستعيناً بعمه الصالح عماد الدين اسماعيل حاكم بعلبك وفي طريقه الى مصر استولى نجم الدين ايوب على نابلس ومكث بها منتظراً عمه الصالح الا ان الصالح اسماعيل غدر به ولم يأت بل قام بالاستيلاء على دمشق واعلن الطاعة للملك العادل الثاني[4] ولما علم الصالح نجم الدين بذلك وهو مقيم بنابلس توجه على الفور الى دمشق مخلفاً نابلس وراءه واثناء مسيره لدمشق تخلى عنه معظم جنوده وذلك بسبب خوفهم على اولادهم

(١) Benvenisti, the crusaders in the Holy land, P. 48. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية،ج٣،ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) ابن سباط: صدق الأخبار،ج١، ص٣١٦، ابو الفداء عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر: المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت،د.ت ج٣،ص١٦٢-١٦٣. النويري: نهاية الارب،ج٢٩، ص٢٣١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب،ج٥،ص١٩٣.

(٤) النويري: نهاية الارب،ج٢٩، ص٢٥٨-٢٥٩، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٦،ص٣٠٦.

واهليهم بدمشق وكان الفساد قد استشرى فيها فتركوا الصالح ايوب وساروا الى دمشق وبقي الصالح في مماليكه وغلمانه وبرفقته جاريته شجرة الدر ام خليل وهنا قرر نجم الدين العوده الى نابلس فطمع فيه اهل الغور والقبائل، وكان مقدمهم شيخاً جاهلاً يقال له مسبل من أهل بيسان قد سفك الدماء فتقاتل عسكر الصالح معه حتى كسروه(١) ثم تابعوا مسيرهم الى نابلس.

وفي هذه الفترة عاد الناصر داود الى الكرك حيث اخبره نائبه الوزيري في نابلس بما حدث للملك الصالح ايوب(٢) فما كان من الناصر الا ان ارسل عساكر الى هناك حيث قاموا بالقاء القبض على الصالح ايوب وارسلوه الى الكرك حيث سجن هناك(٣) ولكن الملك العادل الثاني لم يقنع بسجن اخيه فبعث الامير علاء الدين بن النابلسي الى الناصر داود طالباً منه ان يبعث اليه بأخيه الصالح(٤).

الا ان الناصر داود رفض طلب الملك العادل اذ كان يطمع ومن خلال هذا الرفض ان يساوم الملك العادل على اخيه الملك الصالح بغية اعطائه دمشق التي انتزعت منه سابقاً(٥).

الا ان سجن الملك الصالح ايوب لم يطل لأكثر من سبعة شهور حيث افرج عنه الملك الناصر(٦) وذلك بسبب الخلاف الذي وقع بين الناصر داود والعادل الثاني حيث قاما بعد ذلك وسارا الى قبة الصخرة، وتحالفا بها على ان تكون ديار مصر للصالح ايوب ودمشق والبلاد

---

(١) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٦،ص٣٠٧، الدواداري: زبدة الفكرة،مخطوط، ج١٠، لوحة ٢٧، مخطوطة مصورة في الجامعة الاردنية، شريط رقم ٢٠.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٣٠٧.

(٣) ابن ايبك: كنز الدرر،ج٧،ص٣٣٧.

(٤) المقريزي: السلوك،ج١ ق٢،ص٢٩٠. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٦،ص٣١٠.

(٥) المقريزي: السلوك،ج١ ق٢، ص٢٩٠.

(٦) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد: وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج٥، ص٤٨، وسيشار اليه فيما بعد ابن خلكان: وفيات الأعيان.

الشرقية للناصر داود[1] واقاما بعد ذلك في نابلس. واثناء اقامتهما وصلت اليهما الرسل تستدعي الملك الصالح للقدوم الى مصر لتسلم مقاليد الحكم بها بعد ان قبض جماعة من المماليك الاشرفية ومقدمهم ايبك الأسمر على العادل الثاني وجعلوه في خيمة صغيرة وعليها من يحفظه[2].

ولما تأكد الصالح ايوب والناصر داود من الاخبار الواردة اليهم تركا مدينة نابلس، وتوجها الى مصر حيث وصلاها في ذي القعدة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ودخل الصالح الى قلعة الجبل، وزينت له البلاد، ولما استقر الصالح في ملك مصر وبصحبته الناصر داود حصل عند كل واحد منهما استشعار من صاحبه وخاف الناصر داود ان يقبض الصالح عليه فطلب اذناً بالمغادرة متوجهاً الى بلاد الكرك[3].

على ان المنازعات لم تلبث ان نشبت من جديد بين الفرنجة والمسلمين، اذ ورد في تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية "ان الفرنج صاروا يخرجون من بيت لحم وغيرها ويتعقبون بالناس يقتلونهم في الطريق ويستبيحون اموالهم، فبلغ الملك الناصر بن المعظم صاحب الكرك ونابلس وجبل الخليل وبيسان ذلك فسرى على بيت لحم، وقتل كل من بها من فرنجي ونصراني واخذ الأموال وسبى الذراري وكانت ايام فتن ومخاوف"[4] وقد اثار ما فعله الناصر داود الداوية المقيمين في يافا فما كان منهم الا ان خرجوا من يافا وجاءوا الى نابلس وقتلوا كل من كان بها من مسلمين ونصارى وهدموا الجامع الى الأرض، وحرقوا الأشجار وأخربوا الديار وحكى انهم لما احاطوا بالناس وجمعوهم قالوا: من كان نصرانياً ينعزل حتى نخلصه ففرح النصارى بذلك وامتازوا من المسلمين فلما صاروا عزله عادوا اليهم فقتلوهم اجمعين، وأما المسلمون فأنهم قتلوا منهم واسروا بعضهم وكان القتل يعم النسوان والولدان والصغار والكبار واقاموا بها ثلاثة ايام،

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص١٦٦.

(٢) ابن ايبك: كنز الدرر،ج٧،ص٢٣٨. ابو الفداء: المختصر،ج٣،ص١٦٦.

(٣) ابو الفداء:المختصر، ج٣،ص١٦٦. .

(٤) ابن لقلق، كيرلس الثالث: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشرة انطوان خاطر وازولد بورمستر، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، القاهرة ١٩٧٤، م٤، ج٢، ص١١٨، وسيشار اليه فيما بعد ابن لقلق: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

ثم عادوا بالسبي والغنائم وكانت فتنة ما روى اشد منها(١) وعندما بلغ الناصر داود خبرهم، وجه اليهم قصده وشهر عليهم من عزمه سيفا ففروا فرار الليل من وضح النهار، ولم يكن لهم دون الناصر من انصار فتعلقوا بحصونهم القريبة ولاذوا بها من وقع سهامة المصيبة(٢) وقد ارتاع الناصر ولما شاهده من اثار القتل والتدمير الذي اصاب المدينة على يد فرسان الداوية، وقد عبر عن مشاعره في رسالة بعث بها للشيخ عز الدين بن عبد السلام واصفاً فيها فداحه الخسائر التي لحقت بنابلس واهلها من جراء الهجوم وما ارتكبه الداوية من جرائم ضد السكان(٣) وجاء رد الفعل الاسلامي على هذه المذبحة بقيام قوات الملك الصالح نجم الدين ايوب بالخروج الى الشام في الفي فارس بقيادة شمس الدين سراسنقر حيث قامت هذه القوات بمحاصرة يافا لفترة لكنها عادت دون تحقيق شيء(٤) ورغم ما تعرضت له نابلس من ويلات على يد الفرسان الداوية الا ان المنازعات بين امراء البيت الايوبي استمرت واتسعت شقتها اذ ما لبثت العلاقات ان ساءت ما بين الناصر داود والصالح ايوب مما حدا بالناصر داود الى أحياء التحالف مع الصالح اسماعيل من اجل محاربة الصالح ايوب، لا بل قاما وتحالفا مع الفرنجة لمحاربة الصالح ايوب وانتزاع مصر منه مقابل تسليم الفرنجة كافة الاعمال الساحلية(٥) ولقد لعبت نابلس في هذا الصراع دوراً هاماً حيث كانت المكان الذي تجمعت فيه القوات المساندة للملك الناصر في حربه ضد الصالح ايوب والتي جعل على قيادتها كل من سنقر الحلبي ونائبة الوزيري متحالفة مع كل من الداوية والاسبتارية وامراء الفرنج(٦).

---

(١) نفس المصدر والجزء، ص١٣١.

(٢) مجهول: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، مخطوط، لوحة ١١٨ نسخة مصورة لدى الباحثة عن مخطوط المتحف البريطاني، لندن رقم ٣٠٢٥.

(٣) انظر نص الرسالة في الملحق.

(٤) ابن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م٤، ج٢، ص١٣١.

(٥) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٠٥؛ المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣١٥.

(٦) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٠٥.

وقد ادى هذا التحالف الى قيام الصالح ايوب بحشد قواته بقيادة ركن الدين بيبرس الكخي احد مماليكه الذين كانوا معه في حبسه بالكرك متحالفاً مع الخوارزميين(١) ، وقد التقا الطرفان عند غزه وتمكنت القوات المصرية والخوارزمية من هزيمة التحالف الفرنجي الشامي شر هزيمة(٢) واستولى الصالح ايوب على غزة والسواحل والقدس(٣) وبذلك تكون نابلس قد انتقلت الى حكم الصالح ايوب في مصر وهنا قام بيبرس بفرض سيطرته على نابلس والخليل وبيت جبريل والسواحل والاغوار و لم يبق بيد الناصر سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون(٤) ولكن هذه التبعية لم تدم كثيراً اذ لما رأى الخوارزمية تبدل نية السلطان الصالح عما كان قد وعدهم به من اقطاعات يملكهم اياها تغيرت نياتهم عليه واتفقوا على الخروج عن طاعته لذلك كاتبوا الامير ركن الدين بيبرس واستمالوه فمال اليهم، فكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك فوافقهم ونزل اليهم واجتمع بهم ثم عادوا الى الكرك واستطاعوا الاستيلاء على نابلس والقدس والخليل وبيت جبرين والاغوار(٥)، واعادوها الى خطيره امارة الكرك الأيوبية.

وقد عاثت جموع الخوارزمية بنابلس والساحل فساداً كبيراً وبقيت بها مما حدا بالملك الصالح الى اعادة استماله مملوكة ركن الدين بيبرس بواسطة القاضي نجم الدين محمد بن سالم

---

(١) الدولة الخوارزمية:- يتمي الخوارزمية الى محمد بن انوش تكين وكان والده مملوكاً لاحد امراء البيت السلجوقي وقد رباه والده فاحسن تأديبه فنشأ عارفاً واديباً واشتهر بالكفاية وحسن التدبير فعلى شأنه بين كبار السلاجقة وتدرج في المناصب العليا في الدولة حتى اسند اليه حكم مدينة خوارزم عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وقد كان لضعف الدولة السلجوقية عقب وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، اثر كبير في بزوغ نجم الدولة الخوارزمية وظهورها كدولة مستقلة على انقاض الدولة السلجوقية وقد حاولت الدولة الخوارزمية بشتى الوسائل ان تقوي نفوذها في الشرق الادنى فوجدت في صراعات البيت الايوبي فرصة طيبة لتقوية نفوذهم على حساب امراء هذا البيت.

اسامة زكي زيد: الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الاسلامي في عصر بني ايوب، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية م٣، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٨٤. ص٢٤٦-٢٤٩. وسيشار اليه فيما بعد اسامة زيد: الخوارزمية.

(٢) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٠٥، المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣١٦-٣١٧.

(٣) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٨.

(٥) نفس المصدر والجزء والقسم، ص٣٢١-٣٢٢.

النابلسي المعروف بابن قاضي نابلس فاستطاع ان يخدعه ويمنيه حتى فارق الخوارزمية وعاد الى الديار المصرية فاعتقل بقلعة الجبل وكان آخر العهد به[1].

وتمكنت قوات الصالح من قصد غزه ومن ثم نابلس واعادت نابلس الى سيطرته بعد ان فرقت جموع الخوارزميين منها الى الصلت ثم توجه اليهم فقاتلهم وكسرهم وبدد شملهم وكان الملك الناصر معهم فسار الى الكرك وتحصن بها[2] واستمرت نابلس على تبعيتها للصالح نجم الدين ايوب حتى وفاته عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[3] حيث خلفه على الحكم ابنه المعظم تورانشاه الذي قام عليه المماليك بانقلاب ونجحوا في قتله سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[4] وبموته كانت بداية النهاية للدولة الايوبية.

نابلس في ظل الصراع الايوبي – المملوكي

وفي هذه الحقبة دخلت نابلس في دائرة الصراع الايوبي المملوكي وهو الصراع الناجم عن التنافس على الحكم ما بين الايوبين الرافضين لسيطرة مماليكهم بالامس وما بين المماليك الطامحين في تأسيس دولة خاصة بهم.

وتعود بداية هذا الصراع الى (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وقت مقتل تورانشاه وسيطرة المماليك على السلطة في مصر فجاء رد الفعل من البيت الايوبي عنيفاً وبالتحديد من قبل الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الذي استولى على دمشق[5] وكافة بلاد الشام بما في ذلك نابلس[6] وقد أستاء الناصر يوسف من سيطرة المماليك على مقاليد السلطة في مصر فقرر إعادة

(١) المصدر نفسه والجزء والقسم،ص٣٢٣.
(٢) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٢١؛ المقريزي: السلوك،ج١ ق٢،ص ٣٣٩.
(٣) نفس المصدر،ص٣٢٥.
(٤) المقريزي: السلوك،ج١ ق٢،ص٣٦٠
(٥) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٣.
(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨١.

الامور الى نصابها وذلك بان سار بعساكره الى مصر الا ان العساكر المملوكية سارعت الى لقائه ودارت المواجهة ما بين العسكرين بالقرب من العباسة وتمكنت القوات المملوكية من حسم النتيجة لصالحها والحاق الهزيمة بالشاميين(١).

ثم عزز المماليك تفوقهم بارسال قوة في سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) ارسلها المعز ايبك التركماني بقيادة الامير فارس الدين اقطاي حيث تمكنت هذه القوة من بسط سيطرتها على الساحل ونابلس الى نهر الاردن(٢) ولكن العساكر الشامية لم تستسلم لما اصابها في المرة الاولى وبادرت الى دفع القوات المغيرة واستطاعت قهر الجيش المصري(٣) وبذلك عادت نابلس الى السيطرة الايوبية.

وبقي الصراع مشتعلاً بين الطرفين فترة طويلة من الوقت حتى سارع الخليفة العباسي رغبة منه في حقن دماء المسلمين الى عقد الصلح ما بين الايوبين والمماليك وهو الصلح الذي تولى اتمامه مبعوث الخليفة الشيخ نجم الدين البادرائي، وتم بموجبه الاتفاق على ان يكون للمصريين الى الاردن وللناصر ما وراء ذلك بمعنى ان يدخل للمصريين غزه والقدس ونابلس والساحل كله(٤).

الا ان هذا الصلح الذي اقره الطرفان المتنازعان لم يستمر لفترة طويلة اذ حدث ونتيجة لتدهور الاحوال في مصر بعد ان اقدم المعزاييك على قتل فارس الدين اقطاي زعيم المماليك

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٤.

(٢) المقريزي: السلوك،ج١، ق٢، ص٣٨١.

(٣) الذهبي: شمس الدين ابي عبدالله :كتاب دول الإسلام، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر اباد، ط١، ١٣٣٧هـ، ج٢، ص١١٩، وسيشار اليه فيما بعد الذهبي: دول الاسلام.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣٨٥ ابن سباط: صدق الأخبار، ج١ص٣٦٢. ابو الفداء: المختصر،ج٣ ص١٩٠.ابن خلدون العبر، م٥، ق٤، ص٤٤٥.

البحرية[1] الى حدوث انقسامات خطيرة داخل مصر؛ وعلى اثر هذه الانقسامات قام انصار فارس الدين اقطاي ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الالفي وسنقر الاشقر بالتوجه الى الشام حيث نزلوا على غزه، وهناك اتصلوا بالسلطان الناصر صاحب الشام وسألوه ان يأذن لهم بالوصول اليه، فاجابهم الى ذلك واقاموا عنده يحرضونه على قصد الديار المصرية فكان ان اقطعهم الاقطاعات ووثق بهم وكان المعز قد كتب اليه وأوهمه فطلب الملك الناصر من المعزايبك القدس وجميع البلاد الساحلية التي اخذها منه عند حدوث الصلح بحكم انها كانت جارية في اقطاع البحرية، وانهم قد انتقلوا اليه واستقروا في خدمته فاعادها الملك المعز اليه[2] وكانت نابلس في هذه الفترة اقطاعاً للامير بيبرس البندقداري[3].

وهنا نلاحظ ان نابلس اصبحت هدفاً لاطماع الايوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر فتارة تتبع الايوبيين وتارة تتبع المماليك ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان نابلس غدت هدفاً لاطماع الفرنجة بحيث سعى الملك لويس التاسع بعد هزيمته في مصر واقامته في فلسطين للسيطرة على نابلس لكي يهدد بها بيت المقدس باعتبارها خط الدفاع الاول عنها لوقوعها على الطريق الموصل اليها ولقربها منها وبادر لويس الى عقد اجتماع في (٦٥١هـ/١٢٥٣م) مع فرسان الداوية والاسبتارية وبارونات البلاد اعلمهم فيه برغبته في القيام بحمله لاخذ مدينة نابلس وقد اجمع الداوية والاسبتارية وبارونات البلاد على تحبيذ فكرته في الاستيلاء على المدينة لكنهم رأوا الا يذهب هو بشخصه حتى لا تضيع الاراضي المقدسة باجمعها ان حدث له حادث، فقال لهم:

---

(١) المماليك البحرية: هم الجماعة الذين اشتراهم السلطان نجم الدين أيوب بديار مصر نظراً لما مر به من حوادث وتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يبقى معه سوى مماليكه، فلما استولى على مصر أكثر من شرائهم وجعلهم معظم عسكره وقبض على باقي الأفراد الذين كانوا مع أبيه وأخيه واعطى مماليكه الامريات فصاروا بطانته المحيطين بدهليزه وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على نهر النيل، المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٤٣٣-٤٣٤. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٤.

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٩.

انه لا يجوز له الذهاب دون موافقتهم ومن ثم بقي هذا المشروع معطلاً لان بارونات البلد لم يوافقوا على ذهابه بنفسه(١).

على اية حال بقي المماليك البحرية في خدمة الملك الناصر حتى سنة (٦٥٥هـ/١٢٦٦م) حيث حصلت الوحشة بين الطرفين فخاف كل منهما من الاخر لذلك قرر المماليك البحرية مفارقة دمشق، ولما وصلوا نابلس اتفقوا على التوجه الى الملك المغيث عمر في الكرك فتوجه اليه كل من بيبرس وقلاوون وسيف الدين بلبان الرشيدي(٢).

وقد استمرت اقامة هؤلاء البحرية حتى سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) حينما حصلت منافره بين بيبرس والمغيث دفعت بالامير بيبرس الى مفارقة المغيث والعودة ثانية الى الناصر يوسف الذي قام باقطاعه نصف نابلس وجنين واعمالها بمائه وعشرون فارساً(٣) وبقي مقيم عنده حتى حصل من الناصر ما اوجب على بيبرس الانقلاب عليه اذ تخاذل الناصر يوسف في التصدي للهجمات التتارية على البلاد الاسلامية مما دفع بيبرس الى تركه والتوجه الى السلطان قطز في مصر(٤) وقد استقبله قطز وانزله في دار الوزارة واقطعه قليوب واعمالها(٥) اما الملك الناصر فبعد التخاذل الذي ابداه في مواجهة التتار احتار في اين يتوجه فترك دمشق وتوجهه هو ومن معه الى جهة الديار المصرية وبصحبته الملك المنصور صاحب حماه، واثناء ترحالة مر بنابلس واقام بها اياماً ثم

(١) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، القديس لوسي حياته وحملاته على مصر والشام تح، حسن حبشي، دار المعرفة، مصر، ط١ ١٩٦٨، ص٢٤٧. وسيشار اليه فيما بعد جوانفيل، مذكرات.

(٢) الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تح، حسان عباس، دار الثقافة: بيروت، د.ت، ج١، ص٢٧٣، وسيشار اليه فيما بعد الكتبي: فوات الوفيات. الدواداري بيبرس المنصور: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة،ج١، مخطوط لوحة ٦١، نسخة مصوره على ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية شريط رقم ٢٠، وسيشار اليه فيما بعد الدوداري: زبدة الفكرة.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٤١٥. الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص٣٨. حيث يشير الى ان الناصر اقطع بيبرس نابلس بمائة فارس فقط. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧،ص٩٩.

(٤) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧،ص٩٩.

(٥) العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، تح محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، حوادث سنة ٦٥٧ ص٢٢٤ وسيشار اليه فيما بعد العيني: عقد الجمان.

غادرها وترك فيها الامير مجير الدين بن ابي زكري، والامير علي بن شجاع ومعهما جماعة من العسكر(١). وقد بقيا في المدينة استعداداً للتصدي لهجمات التتار الذين وصلوا اليها بعد رحيل الناصر وهاجموها واخذوها بالسيف(٢) بعد ان كبسوا على جيوش المسلمين بها وقد قتل التتار الاميرين مجير الدين وعلي بن شجاع(٣) اما بقية جموع العساكر فقد تمزقت وتشتت في البلاد ووصل جزء منها الديار المصرية(٤) وهكذا سقطت المدينة في قبضة التتار، ولا شك ان نابلس قد عانت من كارثة التتار معاناة كبيرة خاصة في هذه الفترة المضطربة من تاريخها حيث استعرضنا قضية تعرضها لاطماع المتنازعين على السلطة في المنطقة، وما تركه هذا النزاع من اثار على المنطقة ولا شك ان نابلس قد دخلت في حقبة مظلمة من تاريخها في ظل الاحتلال التتري حيث بقيت المدينة محتلة من قبل التتار حتى استطاع السلطان قطز ان يهزمهم في معركة عين جالوت قرب نابلس وذلك يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/٣ أيلول ١٢٦٠م(٥) وإثر هذا الانتصار استرد المماليك المناطق التي سيطر عليها التتار ومن ضمنها نابلس: ومن هنا وطد المماليك حكمهم ونفوذهم ودالت الدولة الايوبية لتدخل نابلس حقبة جديدة من تاريخها تعيشها في ظل المماليك.

ولاية نابلس في العهد المملوكي:

بعد هزيمة التتار في عين جالوت واستعادة المناطق الاسلامية منهم، وقع خلاف بين الامراء المماليك حول اقتسام الاقطاعات في بلاد الشام بصورة عامة فحكموا السلطان قطز ليقوم بحسم اختلافهم فعمل قطز على توزيع الاقطاعات عليهم، حيث كانت نابلس من نصيب الامير شمس الدين اقوش البرلي، وكان مقطعاً نابلس من الايام المظفرية فأقره السلطان وزاده

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص١٠٢، ولدينا اشارة سجلها الهمذاني تشير الى علاقة صداقة بين الملك الناصر وهولاكو وان هولاكو قد احاط الناصر برعايته وفوض اليه حكومة دمشق وسيره في ثلاثمائة فارس: رشيد الدين الهمذاني:جامع التواريخ،م٢ ج١، ص٣١٦.

(٢) الذهبي: دول الاسلام،ج٢، ص١٢٥.

(٣) أبو الفداء: المختصر،ج٣، ص٢٠٢.

(٤) ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر ،ج٨،ص٤٧.

(٥) أبو الفداء: المختصر، ج٣،ص٢٠٥.

بيسان[1] وقد ظل الامير شمس الدين اقوش البرلي والياً على نابلس حتى بعد مقتل السلطان قطز على يد ركن الدين بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م[2] وقد اقر السلطان بيبرس الامير شمس الدين اقوش البرلي، والياً على نابلس الا ان الامير شمس الدين ما لبث ان نبذ طاعة السلطان وترك ولاية نابلس[3].

ومما يجدر ذكره في هذا الاطار، ان السكان في دمشق قد تلقوا نبأ مقتل السلطان قطز وتولي السلطان بيبرس بالحذر والقلق ولعلهم قد اسفوا على الجزاء الذي ناله المظفر بطل عين جالوت، وعز عليهم ان قاتل قطز يصبح سلطاناً عليهم، وعندئذ تحركت في نفوسهم عوامل الثورة والسخط ولعل سكان نابلس لم يختلفوا في مشاعرهم اتجاه ما حدث عن باقي سكان الشام لذلك لم يتردد الامير شمس الدين أقوش البرلي في نبذ طاعة السلطان والخروج عليه وأن يدعو لنفسه بالشام[4].

ولكن الاحداث اثبتت ان السلطان بيبرس كان على قدر المسؤولية التي القيت على عاتقه وقد اثبت بثاقب بصره، وحنكته السياسية وقوة شكيمته وشجاعته النادرة، انه واحد من اعظم سلاطين الاسلام فقد ثبت اركان الدولة، والتفت الى الثورات الداخلية التي اشتعلت من قبل التتار والفرنجة الذين حاولوا ضرب الدولة الناشئة والقضاء عليها فأخمدها وشرع في تطهير البلاد من الغزاة المعتدين. وقد نجح الى حد بعيد في تقليم اظافر الفرنجة والتتار وحماية البلاد من

---

(1) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠، مخطوط لوحة ٨٧. النويري: نهاية الارب، ج٣، ص٤٤، العيني: عقد الجمان، ص٣٢٢. ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح ونشر عبد العزيز خويطر، الرياض، ط١، ص١٣٤، وسيشار اليه فيما بعد ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر.

(2) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص٢٠٧.

(3) ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح، عبد العزيز خويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦، ص٩٧، وسيشار اليه فيما بعد ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر. ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص٢١٠-٢١١.

(4) يوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الاردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢، ص٥٨، وسيشار اليه فيما بعد غوانمة: التاريخ السياسي.

شرهم، ورغبة منه في النهوض بذلك شمل بلاد الشام برعايته فشرع في اعادة ما دمره التتار من قلاع وحصون واقام الجسور بحيث انه اعاد للبلاد سابق عهدها من نهوض وازدهار.

وفي عام (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) التفت الظاهر بيبرس الى نابلس، فأخذ يعمل على تنظيمها فكان ان قام بمنح نصف اقطاع نابلس للأمير سيف الدين سلار[١] وقد بقي عليها سلار مدة ستة اشهر ثم ما لبث السلطان ان غير رأيه وقرر نقله الى مصر وتركه لاقطاع نابلس[٢] ومن ناحية اخرى فان المصادر لا تشير الى من كان يتولى نابلس فيما بين عام (٦٦٠-٦٦٤هـ/ ١٢٦١-١٢٦٥م) من الولاه او الى من كانت تقطع ولكن هناك اشارات تحدثت عن قيام السلطان الملك الظاهر بيبرس باقطاع مناطق من قرى نابلس الى امرائه مثل ما حدث (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)، بعد معركة ارسوف حيث قام السطان باقطاع قرية بورين[٣] مناصفة ما بين ا لاميرين جمال الدين اقوش المحمدي، والامير فخر الدين الطنبا الحمصي[٤] حيث اشهد السلطان على نفسه بذلك وكتب كتاب التمليك الشرعي الجامع بذلك وفرق النسخ منه لكل أمير نسخة بما ملكه اياه وقد جعل السلطان بيبرس تلك الاقطاعات اقطاعات تمليك تدوم للولد وولد الولد الى آخر الدهر[٥].

وفي عام (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) شارك والي نابلس والاغوار الامير بدر الدين محمد بن رحال في عمارة جسر دامية على نهر الاردن[٦] وقد جاءت عمارة الجسر تعبيراً عما اكنه الظاهر

---

(١) شمس الدين سلار: رجل تركي من قبيلة دورك وهو من مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله ولاه واسط الكوفة والحلة ، النويري: نهاية الارب، ج٣٠،ص ٥٤-٥٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٣، المقريزي: السلوك، ج١ق٢، ص٤٦٨.

(٣) بورين: بلدة تقع على بعد عشرة اكيال جنوب نابلس وتشتهر بزراعة الحبوب والخضر محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص١٧٢.

(٤) مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك (٦٥٨-٦٧٠هـ) نشرة وليم بو لشية نسخة مصورة لدى الباحثة عن المكتبة الظاهرية بدمشق م٥١٦، ص١٣٩-١٤٠. وسيشار اليه فيما بعد مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك.

(٥) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠، لوحة ١٠٣، ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٤.

(٦) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٤٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦١.

بيبرس لهذه المنطقة من الاهتمام فهي تقع على طريق القوافل بين دمشق والقاهرة، اضافة لما تمثله من اهمية اقتصادية بالنظر الى خصب اراضيها والتي انتجت الغلال الوفيرة وفي طليعتها قصب السكر[1] لذلك ندب السلطان بيبرس الامير جمال الدين المهندار لعمارة هذا الجسر، وهنا استعان هذا الامير بوالي نابلس والاغوار ابن الرحال في العمارة، وقد تمكنا من انجاز هذا البناء الذي ساهم في خدمة التجارة وتسهيل التنقلات بين أجزاء السلطنة المملوكية.

ونكاد في الفترة ما بين (٦٦٤-٦٧٧هـ/١٢٦٥-١٢٧٨م) لا نعثر على اخبار عن نابلس فيما بين ايدينا من مصادر ويبدو لي انه ونتيجة لطول فترة الحكم المملوكي كما سيظهر لنا (٦٥٨هـ-٩٢٢هـ/١٢٦٠-١٥١٦م) وذلك مقارنة مع العهد الايوبي السابق (٥٨٣-٦٥٨هـ/١١٨٧-١٢٦٠م) قد وفر لنابلس فترة من الامن والاستقرار كانت في امس الحاجة لها وقد ترك ذلك أثراً كبيراً على المدينة بحيث التفتت الى مختلف مظاهر الانشطة الحضارية من معمارية واقتصادية وعلمية بحيث ابدعت نابلس الكثير من مظاهر التقدم والرقي في هذه الفترة، ولعل من ابرز سمات نابلس في هذه الفترة وبخلاف الفترة السابقة ان الولاية عاشت بمنأى عن الهجمات الفرنجية والتترية التي كانت تتعرض لها بين الفترة والاخرى، ان نهاية مثل هذه الاعتداءات قد ساعد في ارساء دعائم الامن والاستقرار وهو ما لم توفره الفترة السابقة ولعل في تعرض نابلس للهجوم الذي شنه الداوية عليها سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وتعرضها للغزو التتري ما يدعم ما ذهبنا اليه من المعاناه والقسوة التي كانت تعانيها نابلس من جراء تلك الاعتداءات في الفترة السابقة وهو ما كان ينعكس باثارة السلبية على كل أوجه الحياة في نابلس.

ان مثل هذه الاوضاع المضطربة قد انتهت الآن في ظل الدولة المملوكية، ولعل ذلك يعود الى شدة بأس الدولة المملوكية ولرهبة الفرنجة منهم فغدت لذلك نابلس مدينة داخلية من مدن السلطنة المملوكية البعيدة عن الاخطار وهو ما مكنها من المشاركة في مختلف نواحي الحياة

---

(١) غوانمة: التاريخ السياسي، ص٧٤.

أن ما اشرنا اليه لا يعني ان نابلس باتت في عزلة عن المشاركة في الحياة السياسية المملوكية؛ فقد حدث في عام (٦٦٩هـ/١٢٩٩م) ان قام صاحب قبرص بمساومة الملك الظاهر لآخذ بعلبك ونابلس مقابل مجموعة من الاسرى المسلمين وقعوا في يده بعد ان تكسرت سفنهم في عرض البحر ولكن السلطان بيبرس رد على رسل صاحب قبرص بقوله "باننا نأخذ منكم حصونكم اول بأول وتطلب مني حصوني"(١) لذلك لم يجبه الى طلبه على اية حال توفي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس في دمشق يوم الخميس (٢٧ محرم ٦٧٦هـ/٣٠ حزيران ١٢٧٧م) واجلس مكانه على تخت السلطنة ابنه الملك السعيد ناصر الدين ابو المعالي محمد بركه(٢) ولم يقبل المماليك بمبدأ توريث العرش لكونهم نظروا الى السلطان على انه مملوك مثلهم، ولا بد ان يؤول العرش تبعاً لذلك للأمير الاقوى والاكثر شجاعه ومقدرة على تصريف الأمور، لذلك اثيرت المتاعب في وجه الملك السعيد رغبه منهم في التخلص منه، وقد استعان الملك السعيد بعربان جبل نابلس وعساكر من دمشق وصفد وطرابلس وذلك لردع مجموعة الامراء الخارجين عن طاعته، والذين التجأوا بدورهم الى المرج الأصفر واقاموا به وهنا حاول الملك السعيد القيام بأجراء الصلح بعد خروجه الى الشام، الا ان الامراء رفضوا ذلك وامتنعوا عن الحضور فما كان منه الا ان استعان بعربان نابلس والعساكر السابقة الذكر حتى يتمكن من الخروج من دمشق والوصول الى مصر. وقد لازمه العربان والعساكر وقاموا على خدمته وحمايته حتى وصل الى غزه واصبح في مأمن عن الامراء الخارجين عليه فاغدق لذلك الملك السعيد الاموال على من رافقه وانفق عليهم الشيء الكثير(٣).

على اية حال لم يستطع الملك السعيد الاحتفاظ طويلاً بالعرش حيث اجبر على التنازل عنه نهاية شهر ربيع (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) لصالح اخيه بدر الدين سلامش على ان يتولى سيف

---

(١) ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٨. ابن ايبك: كنز الدرر، ج٨، ص١٦١.

(٢) ابو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٠.

(٣) ابن اياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور تح، محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ج١، ق١، ص٣٤٤-٣٤٥. وسيشار اليه فيما بعد ابن اياس: بدائع الزهور.

الدين قلاوون مهمة الاتابك والذي ما لبث ان مهد الامور لصالحه وقام بعزل سلامش، وارتقاء عرش السلطنة مكانه في ٢١ رجب ٦٧٨هـ ١٧ تشرين ثاني ١٢٧٩م(١).

وبعد ان استقرت له الامور قام بتعيين الامير عماد الدين داود بن ابي القاسم والياً على ولاية نابلس وذلك في سنة (٦٨٠هـ/١٢٨٠م)(٢) الا ان هذا الوالي لم يمكث طويلاً في ولايته حيث قام السلطان قلاوون بعزله في سنة ولايته هذه وبتعيين الامير زين الدين قراجا البدري مكانه(٣) على ان اداره البدري لهذه المنطقة قد اتسمت بالاضطراب اذ لم يلبث ان قام البدو المحيطين بنابلس بالتمرد على السلطنة المملوكية ومهاجمة نابلس ونهبها وقتل الكثير من سكانها مما دفع بالامير علاء الدين ايدكين الفخري نائب غزه للتدخل في الامر والحضور الى نابلس لمساعده واليها في إقرار الامور، واعادة الامن الى نصابه ومواجهة هؤلاء البدو، ومعاقبتهم حتى لا تسول لهم انفسهم بالخروج مرة اخرى على السلطة، وقد تمكنا من القبض على المهاجمين وشنقا اثنين وثلاثين منهم وسجن الباقي(٤) وعلى إثر هذه الحركة التمردية قام السلطان قلاوون بعزل قراجا البدري وتعيين الامير جمال الدين اقوش الحمصي بدلاً منه في ولاية نابلس(٥).

وبعد رحلة قضاها سيف الدين قلاوون في الجهاد وتثبيت أركان الدولة اعتل عله الموت وذلك اثناء استعداده لغزو عكا واشتدت عليه الى ان توفي في السادس من ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٠ تشرين ثاني ١٢٩٠م(٦) وتقلد الامر من بعده السلطان الاشرف خليل بن قلاوون وبعد قضائه على المعارضة المألوفة في مثل هذه الحالات شرع في إتمام الاستعدادات لغزو عكا

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١،ق٣،ص٦٧٠.

(٣) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، تح حسن محمد الشماع، كلية الاداب، جامعة البصرة، ج٧، ص٢٢٦. وسيشار اليه فيما بعد ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات.

(٤) المصدر نفسه والجزء،ص٢٢٥، المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٩-٧٠٠.

(٥) المصدر نفسه والجزء،ص٢٢٦.

(٦) ابو الفداء: المختصر،ج٤، ص٢٣.

فارسل الى مدن الشام وحصونها لاستنفار الاهالي للجهاد كما طلب من جميع النواب هناك الحضور بجيوشهم للمشاركة في الجهاد[1] وما من شك في ان ولاية نابلس ممثلة بواليها المملوكي قد شاركت في الاستعداد والجهاد لطرد بقايا الفرنج من بلادنا ذلك ان نداء الملك الاشرف كان عاماً لكل ثغور الشام ومدنها وبالتالي ورغم عدم الاشارة في المصادر مباشرة الى مشاركتها الا اننا نستطيع ان نستنتج هذه المشاركة لكون السلطان لم يستثني احداً من شرف الجهاد.

على أية حال لم تطل فترة حكم السلطان الاشرف خليل اذ ما لبث ان نشب بينه وبين الامراء المماليك نزاعاً ترتب عليه اتفاق هؤلاء على التخلص منه وفعلاً دبر الامراء مؤامرة انتهت بقتله في ١٢ محرم ٦٩٣هـ /١٣ كانون اول ١٢٩٣م. وقد شارك فيها بفعالية الامير حسام الدين لاجين، وتم تنصيب اخيه محمد بن قلاوون مكانه ولكن صغر سنه جعل الامراء المماليك يتأمرون عليه، وهنا نجح زين الدين كتبغا وحسام الدين لاجين في تدبير مؤمراة اطاحت بالسلطان محمد بن قلاوون، واعتلاء كيتغا مكانه لعرش السلطنة ولكنه لم يستقر فيها اكثر من تسعة اشهر حيث دبر لاجين اثناء خروجهم الى الشام مؤامرة اطاحت به ليتولى شؤون السلطنة حسام الدين لاجين[2] الذي تلقب بالملك المنصور، وقد كانت نابلس دائمة التفاعل مع الاحداث والتغيرات التي تصيب الدولة المملوكية ومنها هذا الحدث الذي تم في عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م اذا اقيمت له الخطبة في القدس الشريف وبلد الخليل وغيرهامن بلاد الشام والساحل اما نابلس فقد دقت البشاير بها وتزينت لسلطنة حسام الدين لاجين[3] احتفالً بهذه المناسبة.

---

(١) المصدر نفسه والجزء، ص٢٤.

(٢) ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص٣٠-٣٤.

(٣) مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، نشره زيتر ستين، ليدن، ١٩١٩ ج٧، ص٤١.وسيشار اليه فيما بعد مجهول: تاريخ سلاطين المماليك.

وفي ١١ ربيع الآخر ٦٩٨هـ/٢٧ كانون ثاني ١٢٩٩ وثب الأمراء على لاجين وقتلوه بسبب سياسته الهوجاء ضدهم واعادوا السلطان محمد بن قلاوون الى السلطنة وهي سلطنته الثانية[1]، وفي سلطنة محمد بن قلاوون الثانية تعرضت نابلس في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م لهجمة مغولية شرسة بقيادة محمود غازان[2] وهي الهجمة التي استولى فيها المغول على دمشق وانتشروا حولها مهاجمين الأماكن المجاورة لها وقد انتهت غاراتهم الى القدس وبلد الخليل ونابلس [3] وارتكب المغول خلال هذه الهجمة الوحشية شتى الفظائع جرياً على عادتهم في معظم المناطق التي دخلوها حتى دخلوا الى غزه، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفراً[4] وهنا لم تقف نابلس مكتوفة الايدي بل شارك عربانها في الحملة التي قادها سلطانهم دفاعاً عن انفسهم وبلادهم لدرء خطر غازان ومن معه حيث خرج للقائه سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وتلاقى الفريقان على مرج راهط، وكان بينهما وقعة لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الوقعات المشهورة وانتهت بانتصار السلطان محمد بن قلاوون وهزيمة عساكر غازان بعد ان قتل منهم نحو النصف واسر البعض منهم[5] وفي السنة ذاتها (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وقعت حادثة غريبة انقسمت على اثرها نابلس على نفسها وكادت تقع فتنه بين اهلها ذلك ان الحنابلة قد صاموا شهر رمضان حسب عادتهم بالاحتياط. واستكمل الشافعية وغيرهم شعبان وصاموا، ولما اتم الحنابلة صيام ثلاثين يوماً افطروا وعيدوا، وصلوا صلاة العيد في الوقت الذي لم ير فيه الهلال، غير ان الشافعية وغيرهم صاموا ذلك النهار واصبحوا فافطروا وعيدوا وصلوا صلاة العيد، وعندما علم نائب الشام بذلك، انكر هذا العمل على متولي نابلس وأنبه مستهجناً كيف ان الناس في نابلس لم يجمعوا على يوم واحد للصيام والعيد وهو أمر لم يسمع بمثله من قبل[6]؟

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٤، ص٤٠.

(٢) غازان: احد ملوك المغول الذين تولوا العرش سنة ٦٩٤هـ، الهمذاني: جامع التواريخ، م٢ ج١، ص١٢.

(٣) النويري: نهاية الارب، ج٢٧،ص ٤١٣.

(٤) النويري: نهاية الارب، ج٢٧، ص ٤١٣.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١٣.

(٦) المقريزي: السلوك،ج١، ق٢، ص٩٤١.

وفي الفترة الواقعة ما بين عامي (٧٠٢-٧٣٦هـ/١٣٠٢-١٣٣٥م) لم ترد في المصادر اية اشارات او ذكر لنابلس باستثناء الاشارة التي تحدثت عن اشغال منصب والي نابلس من قبل نجم الدين ابن الزيبق[١] وعلى ما يبدو ان نابلس في هذه الفترة قد نعمت بالاستقرار والأمن.

وقد شهدت الولاية العديد من الفتن والاضطرابات وخاصة في العصر المملوكي الثاني (عصر الجراكسة) وسنلحظ على هذا العصر ان الأحداث ستدور كلها حول حركات التمرد والعصيان التي قادها العشير والعربان[٢] في نابلس ويبدو لي ان دراسة حركات العشير والعربان في المنطقة تستحق ان تدرس بمنظار اكثر شمولية مما حاول البعض ان يضعها فيه فهي في معظمها لم تعبر عن جنوح هؤلاء الى الشغب والفوضى وحب الإثارة والنهب بقدر ما كانت في احيان كثيرة اكثر عمقاً وايجابية مما يظن، لقد كانت في جانب من جوانبها، ومنذ بداية الدولة المملوكية عبارة عن حركات مقاومة عربية موجهة ضد الدولة المملوكية ولدينا أمثلة على تلك الحركات قد لاتكون حدثت في نابلس ولكن حدوثها وفي اماكن متفرقة من الدولة يعطي مؤشراً على اتجاهات استقلالية عند العرب ضد السلطنة المملوكية ومن ذلك على سبيل المثال ثورة القبائل العربية في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) بزعامة الشريف حصن الدين وهي الثورة التي صرح قائدها بنوازعه الاستقلالية اتجاه السلطة المملوكية حين قال :"بأننا نحن اصحاب البلاد" ومنع الجند من تناول الخراج وقال :"بأننا أحق بالملك ممن المماليك" وقد كانت هذه الثورة من الشدة بحيث شارك فيها اثني عشر ألف فارس وعددكبير من المشاه ومع ذلك تمكن المماليك من القضاء عليها وهزيمة هذا الجمع العربي[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٤، ص١٥٤.

(٢) يقصد بالعشير قبائل الفلاحين في سوريا وفلسطين ولبنان وقد اطلق على هؤلاء الفلاحين لقب العشائر او العشير اوا العشران وابان الحروب كانت الدولة المملوكية تستأجرهم مرتزقة مشاه سلاحهم الاقواس والسهام والحجارة. أما العربان فيقصد بهم قبائل البدو ويذهب بولياك الا انهم البدو الذين لم ترد اسمائهم بين القبائل البدوية الخلص. بولياك الاقطاعية، ص٤٤-٤٥.

(٣) عبد المجيد عابدين: دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل، ملحق بكتاب المقريزي: البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، عالم الكتب، القاهرة،ط٢، ١٩٦١، ص١٢٢-١٢٣، وسيشار اليه فيما بعد عابدين: دراسات في تاريخ العروبة.

وكذلك الثورة التي قادها محمد بن واصل العركي (الأحدب) وبلغت حداً من الجرأة بحيث نادى هذا الثائر بنفسه سلطاناً وجلس وخلفه المسند وأجلس حوله العرب وانفذ أمره في الفلاحين مما دفع المماليك لعقد مجلس مشورة في عام (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) لتدارس أمر هذه الثورة في الصعيد وغيرها(١) وقد لمست الدولة المملوكية تزايد دور العربان في السياسة مما دفعها للقيام بمحاولات جدية لكسبهم الى جانبها عن طريق مراعاة مصالحهم بقدر الامكان اضافة الى رشوتهم بالاقطاعات والمبالغ المالية الكبيرة لذلك كان المماليك اول من توصل لحل مشكلتهم باحداث منصب "امرة العرب"(٢) الذي جعلته رتبه عسكرية عالية ضمن الجهاز الاداري واضافة الى الدافع التحرري كانت هناك دوافع اخرى لثورات العربان مما جعل الولاية مسرحاً للقتال ما بين القوات المملوكية والعربان في كثير من الاوقات وقد جهدت الدولة للأستفادة من العربان فكانت تستخدمهم لكي تجند منهم اعداداً كافية لارسالهم في حملات عسكرية لقتال القوات المناوئة للسلطة المملوكية، وفي ذلك تحقق اكثر من هدف فهي بارسالهم في مثل هذه الحملات تستفيد الدولة من مقوماتهم وقوتهم كذلك تساهم في التخلص من شرورهم بشغلهم في أعمال تعود بالنفع عليها أما في حالة حدوث الفتن الداخلية بين القبائل نفسها فكانت الدولة تنصّب نفسها كحكم ومصلح بينهم مثال ذلك ما حدث سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) عندما خرج تنكز نائب الشام الى عربان نابلس من أجل الإصلاح فيما بينهم على اثر حدوث خلاف بينهم(٣).

وفي بعض الأوقات كان للعربان دور مهم في اللعبة السياسية وفي مناصره طرف على حساب الاخر للأستئثار بمنصب السلطان مثلما حدث في عام (٧٤٢هـ/١٣٤١م) حين وقف عربان جبل نابلس الى جانب الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاوون حين ساعدوه وقدموا له العون عندما عزم على قتال نائب الشام(٤) الذي عمل على مساعدة قوصون احد

---

(١) عابدين: دراسات في تاريخ العروبة، ص١٣٠.

(٢) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (قبائل العرب في القرنين السابع والثامن هـ) تح دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٩٨٥ مقدمة المحقق ص١٦.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١ ق١، ص٤٤٧.

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١ ق١ ص٧٤٢.

الامراء المتنفذين في الحكم في مصر والشام، بعد وفاة الملك محمد بن قلاوون حيث قام بعزل السلطان المنصور ابي بكر بن محمد ونفاه هو وأخوته وعين الاخ الاصغر لهم الامير كجك الملقب بالأشرف ولم يتجاوز من العمر خمس سنوات. على ان يتولى قوصون نيابة السلطنة فاستغل هذه الحادثة وراح يتصرف كيفما شاء[1] فقاد لذلك الأمير أحمد حركة من أجل التخلص من قوصون، واستعادة الحكم لذلك استعان بعربان جبل نابلس لمساعدته في بلوغ مراده، والذين قدموا له كل ما باستطاعتهم لتحقيق غايته، وأما في عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) فقد ثار عربان الشام وكثرت الحروب وانتشر الفساد بينهم فقتل بعضهم بعضاً ونهبوا الفرد[2] ونابلس[3].

اما في السنة التي تلتها وهي سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) فقد قام عشير الشام وثار بعضهم على بعض وشنوا الغارات على بعضهم في بلاد القدس والخليل ونابلس ولعل مرد ذلك الى ان عشير الشام فرقتان قيسية ويمنية وبينهما خلافات كثيرة لا تكاد تهدأ حتى تثور لذلك يثورون بعضهم على بعض ويكثر قتلاهم فيأتي اليهم من السلطان من يجبيهم الاموال الكثيرة، فلما وقع الفناء في الناس ثاروا على عادتهم وطالت حروبهم وذلك لاشتغال الدولة عنهم فعظُمَ فسادهم وقطعوا الطرق على المسافرين فجردت اليهم حملة بقيادة الأمير ارغون شاه نائب الشام في عدة من الأمراء فلم يظفر بهم، واقام بالعسكر على اللجون وتمادى العشير في شن الغارات على بلاد القدس والخليل ونابلس[4].

وبانتهاء دولة المماليك الأولى وقيام دولة المماليك الثانية بحدود عام (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ازدادت اهمية منطقة نابلس وقد لعبت دوراً له اهميته وخاصة في اواخر دولة المماليك الثانية اذ

---

(١) المقريزي: ج٢، ص٥٩٣، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٤٩.

(٢) الفرد لم يرد عند ياقوت الحموي في معجم البلدان اي ذكر لبلد بهذا الاسم على انها بالقرب من نابلس.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٧١.

(٤) المقريزي: السلوك ، ج٢، ق٣، ص٧٥٠.

كان للكثافة السكانية العالية للمنطقة الدور الكبير في ذلك. فغدت مصدراً مهماً لجمع الرجال وتجنيدهم لقتال الدولة العثمانية بعد ان تراجعت القوة المملوكية تدريجياً بسبب نقص الموارد الاقتصادية وتحول طرق التجارة العالمية عن ممتلكاتها في مصر الشام(١).

وفي هذه الحقبة من عمر الدولة المملوكية (الجراكسة) تزايد دور العربان في الاحداث السياسية ففي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م قام عربان منطقة نابلس بمساعدة الامير طشتمر(٢) نائب الشام ومجموعة من الامراء كانوا معه في الخروج الى مصر لمحاربة الامير اينبك البدري بعد ان اعلنوا خروجهم عن طاعته(٣) ولعل من الامور اللافتة للنظر التنافس الكبير الذي حدث بين مشايخ العربان في الدولة على منصب مشيخة العربان، وفي هذا الاطار تنافس على مشيخة العربان في منطقة نابلس كل من بني اسماعيل وبني عبدالقادر حيث استمر هذا التنافس على المشيخة ردحاً طويلاً من الزمن في عهد الدولة الجركسية(٤) ولعل من اكثر من اشتهر من مشايخ عربان نابلس في ظلمة وتعسفه ضد الناس الشيخ محمد بن عبد القادر الذي كان يسعى بكل ما يستطيع الى ان تصبح مشيخة العربان في نابلس من نصيبه غير ان المشيخة انتقلت لشخص اخر هو الشيخ ابن عبد الساتر وقد حاول الشيخ محمد بن عبد القادر بشتى الاساليب انتزاع المشيخة منه وخاصة في سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) ولكنه لم ينجح في مسعاه، وذلك بعد ان درات بين الشيخين حروباً طويلة انقطعت بنتيجتها الدروب والمسالك(٥) وبعد هذه المنازعات والحروب

---

(١) يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء ١٩٨٢،، ص٥٩. وسيشار اليه فيما بعد غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس.

(٢) الامير طشتمر: احد امراء المماليك ترقي في الوظائف الى ان تولى منصب نيابة السلطنة بدمشق، تخوف من تحكم أينبك في شؤون السلطنة فتزعم حركة نواب الشام ضده ٧٧٩هـ/١٣٧٧م حيث انتهت بعزل طشتمر من منصبه . طه تلجي طراونه: مملكة صفد في عهد المماليك، دار الافاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، هوامش ص١٩٧ سيشار اليه فيما بعد طراونه: مملكة صفد.

(٣) الامير أينبك البدري: هو اتابك العساكر المصرية سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م وكان صاحب الامر في العزل والتعيين والتصرف بشؤون السلطنة. طراونه: مملكة صفد، هامش ص ١٩٧.

(٤) بولياك، أ.ن: الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم منشورات دار الكشوف، بيروت ط١، ص٤٨-٤٩. وسيشار اليه فيما بعد بولياك: الاقطاعية.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص١٤٠.

استطاع ابن عبدالقادر انتزاع مشيخة عربان نابلس وكان ذلك بعد سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) واصبح شيخ جبل نابلس بعد ان قتل الشيخ ابن عبد الساتر وقد اتسمت فترة توليه للمشيخة بالفساد حيث اعتبرت فترة حكمه من اكثر الفترات فساداً[١] وهذا ما دفع السلطان الملك الظاهر جقمق الى عزله وسجنه بسجن الاسكندرية الا انه وفي سنة (٨٥٨هـ/١٤٥٤م) تحايل بأن لبس زي النساء وخرج من السجن ولا زال يواصل مساعيه حتى وصل الى نابلس وانضم الى جماعة من أعوانه واصحابه الا ان رجلاً من ابناء عمومته قد خرج اليه وتقاتلا فانكسر محمد بن عبد الله بن عبد القادر وقُتل وقتل معه جماعة من أصحابه. وقام ابن عمه بارسال رأسه الى السلطان فسُرَّ السلطان بذلك وارسل الى ابن عمه باستمرارة على مشيخه عربان جبل نابلس[٢].

وفي الفترة الواقعة ما بين (٨٧٠-٨٧٧هـ/١٤٦٥-١٤٧٢م) بدأ الصراع ما بين المماليك والعثمانين وهنا برزت اهمية ولاية نابلس كما المحنا انفاً، وقد كافح المماليك في هذا الصراع كفاحاً مريراً بغية حماية منطقتهم من خطر العصابات التي كان يدعمها العثمانيون ونتج عن هذا الصراع ان تزايد دور العربان في هذه الحروب بان قطعوا الطرق وتعرضوا للقوافل الذاهبة الى القاهرة والحقوا الاضرار بجنوب دمشق ومنطقة حوران واجزاء من فلسطين وكانت الرملة الأكثر تضرراً أما نابلس فقد أصبحت ميداناً للقتال بين القوات المملوكية وبين القبائل المحلية، وازداد تفاقم الامر وتحول الوضع من سيئ الى اسوأ مع نهاية القرن تقريباً[٣].

---

(١) نفس المصدر والجزء والقسم، ص٥١٥-٥١٦.

(٢) لم تذكر المصادر اسم ابن عم محمد بن عبدالقادر الذي قام بهذه الحركة الانقلابية ضد ابن عمه ولكن من المؤكد انه تولى مشيخه العربان في جبل نابلس، ابو المحاسن: حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تح محمد كمال الدين، عالم الكتب،ط١،د.م ١٩٩٠ ج٢، ص٥٠. وسيشار اليه فيما بعد ابو المحاسن: حوادث الدهور.

(٣) برامارفين لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، نقله الى العربية وقدم له سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ط١، ١٩٨٥،ص٨١-٨٢. وسيشار اليه فيما بعد لابيدوس: مدن الشام.

وفي عام (٨٩١هـ/١٤٨٦م) وقعت فتنة عظيمة بين عربان نابلس وذلك على خلفية التجريدة[1] التي ارسل في طلبها السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٥م) من اجل التصدي للسلطان العثماني بايزيد بن عثمان، والتي حضر من اجلها الى نابلس الامير (اقبردي الدوادار)[2] الكبير حيث قام هذا الامير بتجهيز الرجال، وعرضهم ودفع النفقة لهم الا ان مشايخ عربان نابلس اختلفوا فيما بينهم واتهم بعضهم بعضاً بالتكاسل، مما ادى الى وقوع فتنة عظيمة فيما بينهم ذهب ضحيتها الامير اقبردي بن بخشايش الاينالي استادار الاغوار وقتل جماعة كثيرة من العربان معه منهم ابو بكر امير جرم ويوسف بن الجيوسي، أحد مشايخ عربان نابلس وجماعة كثيرة من اولاد اسماعيل واولاد عبد القادر، ووقعت فتنة عظيمة، وعندما بلغ السلطان خبر تلك الفتنة المروعة قام بتعيين الامير اقبردي الدوادار الكبير للتحقيق والنظر في هذا الأمر، وطلب اليه سرعة التوجه الى نابلس للقيام باخماد هذه الفتنة المشتعلة بين العربان[3].

وفعلاً غادر الأمير اقبردي القاهرة، ونزل الى نابلس وهناك قام بالقاء القبض على كل من شارك في اثارة هذه الفتنة من اعيان المشايخ[4] وعمل على معاقبتهم بما يستحقوه. ويستفاد من هذه الأخبار أن ولاية نابلس كانت ولاية مهمة من ولايات السلطنة المملوكية من الناحية الديموغرافية مما دفع الدولة الى الاستعانة بها لتجنيد الحملات السائرة الى قتال العثمانين لذلك فان السلطان قايتباي حينما تأزمت علاقاته السياسية مع السلطان بايزيد بن عثمان مرة اخرة سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) لجأ الى ولاية نابلس لتجنيد رجالها لقتال العثمانيين وهنا قام السلطان

---

(١) التجريدة: جماعة منقطعة من الجند.

(٢) اقبردي الدوادار: من كبار الامراء المماليك في عهد الاشرف قايتباي، كان دودار بمصر الى ان قام سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م مع عدد من الأمراء بالتآمر على السلطان محمد بن قايتباي ثم اخرج الى دمشق نائباً للسلطنة فيها، وهناك قام بحركة عصيان ضد السلطان، طراونة: مملكة صفد، هامش ٢٠٦.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٢٥.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص٢٣١.

المملوكي بارسال الامير اقبردي الدوادار وبصحبته القاضي زين الدين بن مزهر كاتب السر في القاهرة الى نابلس لتجهيز الرجال لهذه الحرب وفعلا تم تجهيز الرجال وارسالهم الى الحرب(١).

وفي السنة التي تلتها وهي سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) حضر الامير اقبردي الدوادار الى نابلس مرة اخرى، ولكن ليس لتجهيز الرجال للقتال هذه المرة وانما لالقاء القبض على مشايخ نابلس لما حصل منهم من التقصير اثناء التجهيز لقتال بايزيد بن عثمان وكذلك بسبب رجوعهم من بلاد الاتراك بدون أذن فأمر السلطان قايتباي عندئذ باسترجاع ما دفع لهم سابقاً من مال التجريده المذكورة، وقد عهد بهذه المهمة الى نائب القدس الامير دقماق الذي قام بالضرب والحبس وافحش في الامور على اهل نابلس(٢). حتى تعدى الى ضرب الناس بالمقارع وفعل بهم فعلاً لم يسمع بمثله في الجاهلية حتى ان بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق وتفاحش الامر وبقي الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد(٣).

ولم يكتف الامير اقبردي الدوادار بذلك بل سافر في سنة (٨٩٥هـ/١٤٨٩م) الى نابلس، وحصل منه في هذه السفرة الضرر الكبير للناس(٤) وقام باهلاك الحرث والنسل(٥) ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى فرض الضرائب الباهضة فكان يجمع الاموال من السكان وبشكل مستمر(٦) واستمرت عملية جمع الاموال من عشير نابلس بعد ذلك.

وفي السنوات الواقعة ما بين (٩٠١-٩٠٣هـ/١٤٩٥-١٤٩٧م) كان السلطان الاشرف قايتباي يأمر بجمع الاموال عندما كان يخرج لملاقاة ابن عثمان من المناطق المتابعة له. وكان

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج١، ص٩٤، ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٥٠.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣،ص٢٥٠-٢٥١.

(٣) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٣٤٥.

(٤) ابن أياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٥. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج١، ص١٣١.

(٥) نفس المصدر والجزء، ص٢٨١.

(٦) نفس المصدر، ج٤، ص٥١.

عربان نابلس من الفئات التي الزمت بدفع الأموال لخدمة المجهود الحربي للدولة المملوكية في حالة عدم مشاركتها في التجاريد العسكرية بالرجال وفي حالة ما كانت ترفض فان السلطان كان يولي جماعة من مماليكة عوضاً عن مشايخ العربان فيجورون على الفلاحين ويأخذون منهم غير العادة اضعافاً(١).

وبعد الامير اقبردي الدوادار عينت الدولة المملوكية اميراً جديداً على نابلس ليتولى جباية الأموال من العشير، وهو الأمير ازدمر الدوادار والذي خرج الى نابلس في الفترة الواقعة بين عام (٩٠٨-٩٠٩هـ/١٥٠٢-١٥٠٣م) لجمع الأموال(٢) وللقضاء على فساد العربان من جديد في تلك المنطقة التي عادت لتشهد قيام اضطرابات فيما بين عربان بني لام مما استدعى خروج الامير ازدمر الدوادار اليهم للقضاء على تحركاتهم وقد استصحب معه في هذه المهمة خمسمائة فارس من المماليك السلطانية(٣) وغداة دخوله الى نابلس قام بمهاجمة قبائل العربان من بني لام وحقق الانتصار عليهم فقتل منهم جماعة كبيرة واسر من كبارهم عشرة انفار وعاد الى القاهرة(٤).

وفي عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) خلع السلطان قانصوه الغوري على خليل بن اسماعيل بن شبان شيخ عربان نابلس، وقرره في امره عربان نابلس بعد ان دفع مبلغ من المال(٥) الى السلطان مما يجعلنا نستنتج مدى ما اصاب الدولة المملوكية في اواخر ايامها من تدهور بحيث يصبح منصب كمنصب مشيخة العربان من المناصب التي ينظر السلطان فيمن يتولاها ولا يقف الامر عند هذا الحد بل يسعى الطامع فيه مضطراً الى البذل والبرطلة بغية الحصول عليه مما يعني ان الدولة تسير حثيثاً في طريقها الى الانهيار وقد جرت العادة في هذا الاطار ان يعين سلاطين

---

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان،ج١، ص١٨٤.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٥١-٥٩.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٥، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥٥، ق٢، ج١، ص٣٤٧، وسيشار اليه فيما بعد محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك.

(٤) نفس المصدر،ج٤، ص١١٦-١١٧.

(٥) نفس المصدر،ج٤، ص٢٨٦.

المماليك لكل قبيلة امير ويكتبون بذلك تقليداً سلطانياً وكان الامير المعين يلبس تشريفاً اطلس اسوه باقرانه في السُّلم الاقطاعي وعلى هذا أقبل الأمراء على البذل والبرطلة للسلاطين في هذه الدولة بهدف قضاء مصالحهم الشخصية(١).

ولعل من اكبر المبالغ التي كان على نابلس ان تدفعها للدولة المملوكية تلك المبالغ التي اقرت عام (٩٢٠هـ/١٥١٤م) لإستخدامها في تجهيز حملة لقتال العثمانيين حيث بلغت قيمتها مائة واربعة وعشرين ألف دينار، وقد قام سكان نابلس بدفع هذه المبالغ المقررة عليهم(٢) وهي اشارة ضمنية نستطيع ان نتبين منها أن أحوال منطقة نابلس ظلت مزدهرة حتى أواخر عصر الدولة المملوكية رغم كل ما تعرضت له على يد المماليك من قتل ونهب وتدمير وخراب اقتصادي، حتى تتمكن من دفع هذا المبلغ الضخم بمقاييس تلك الأيام كذلك يشير الى كثافة سكانية عالية استطاعت جمع هذه المبالغ الطائلة.

على أية حال أصبحت الأحوال في الدولة المملوكية تتسم بالغموض والإضطراب نتيجة لتعاقب السلاطين على الدولة بعد قايتباي وما صاحب هذا التعاقب من نزاعات تنشأ بينهم وهو ما قاد الدولة إلى مصير مظلم وصاحب ذلك انتشار الأوبئة والأمراض، في هذا الوقت كانت نابلس تراقب تفاعل هذه الأحداث وتطورها وبخاصة تطور الاحداث بين المماليك والعثمانيين، وهو التطور الذي قاد الى مرحلة الصدام المباشر بين الطرفين في معركة فاصلة هي معركة مرج دابق ٩٢٢هـ/١٥١٦م. والتي هزم فيها المماليك وتوفي سلطانهم قانصوه الغوري(٣) وبعد ذلك سار السلطان العثماني سليم الأول إلى مصر للاستيلاء عليها فتسلم وهو في طريقة اليها كل من طرابلس، وصفد، وغزة، وبيت المقدس، نابلس والبلاد التي حولها بالأمان ومن غير حرب ولا

(١) أحمد عبد الرزاق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، ص٦٥.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٨.

(٣) نفس المصدر، ج٥، ص٦٨-٦٩.

مانع وهو ما لم يتفق لاحد من الملوك قبله(١) ، وهكذا دخلت نابلس في حوزة الدولة العثمانية لتبدأ مرحلة اخرى من مراحل تاريخها.

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٥٢.

الفصل الثالث

المجتمع النابلسي في عصر الدولة المملوكية

أولاً: فئات السكان العرقية:

تضم البنية البشرية في ولاية نابلس خليطاً متعدد الأعراق، بحيث تتكون هذه البنية من أخلاطٍ من العرب والعجم والسامرة[1] وتعود أصول العرب في نابلس الى القبائل العربية التي هاجرت من جنوب الجزيرة الى شمالها، عبر فترات مختلفة من التاريخ قبل الاسلام، واثناء حركة الفتح الاسلامي وما بعدها. ومن بين القبائل العربية التي هاجرت الى نابلس في بداية حركة الفتح الاسلامي: بنو غانم وهم من العشائر الخزرجية التي استقرت في فلسطين، وترجع في نسبها الى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الخزرجي (ت١٤هـ/٦٣٥م) وقد اقام هؤلاء في قرية بورين من قرى نابلس[2] كما هاجر الى نابلس واقام فيها الكثير من قحطان، وطائفة من مضر بن نزار[3] اما القبائل اللخمية فقد نزلت فيما حول الرملة الى نابلس ثم البحيرة الميتة والجولان وما يليها من ارض حوران، وكان يخالطهم قبائل جهينة وذبيان والقين[4] وهاجر قسم من قضاعة إلى نابلس واليهم انتسب بنو قدامه الذين سكنوا جماعيل وجوارها من قرى نابلس، وهاجر قسم منهم الى دمشق في فترة الحروب مع الفرنجة[5] وقد استقرت هذه القبائل في منطقة نابلس، وتحضرت بمرور الوقت الى الدرجة التي نسيت فيها هذه القبائل ممارساتها البدوية من ترحال وتنقل واتجهت الى حياة الاستقرار والزراعة مما حدا بهيتروث الى القول: بأننا لا نجد ذكراً لأسماء

---

(١) ابن رستة، ابي علي احمد بن عمر: الاعلاق النفيسة، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩١م ص٣٢٩ وسيشار اليه فيما بعد ابن رسته: الاعلاق النفيسة.

(٢) كامل العسلي: بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، د.ن، عمان ١٩٩٢ ص١١٥.

(٣) العمري: مسالك الابصار، ص١٥٤؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج١،ص٣٣٩.

(٤) احمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، طبعة ١٩٧٧،ص١٨١. وسيشار اليه فيما بعد، رمضان: المجتمع الإسلامي.

(٥) ابن طولون، محمد، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. تحقيق أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ن، ق١، ص ٦٨-٦٩ وسيشار اليه فيما بعد. ابن طولون، القلائد الجوهرية؛ مصطفى الدباغ: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،ط١، ١٩٧٩،ص٤٣. وسيشار اليه فيما بعد، الدباغ: القبائل العربية.

قبائل بدوية في منطقة نابلس في سجلات القرن السادس عشر(١) وقد سجل لنا الرحالة الاوروبيون جانباً من انطباعاتهم عن هذا العنصر؛ فهم مضيافون جداً وكرماء ولطفاء ممتازون(٢). اما من الناحية السياسية فهم غير مخلصين دائماً في ولائهم للسلطان(٣) وخلال فترة الصراع الاسلامي الفرنجي استقر في نابلس وجوارها جماعات من الفرنجة، قدروا بنحو خمسمائة فرد(٤) وقد قدم هؤلاء الى فلسطين بصفة عامة منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكان معظمهم من فرنسا وايطاليا واسبانيا، وننقل اشارة دونها فوشية الشارتري عن استقرار الاوروبين في الاراضي المقدسة قال فيها "نحن الذين كنا غربيين اصبحنا الان شرقيين فالذي كان رومانيا او فرنسيا اصبح الان جليلياً او فلسطينياً.... ونسينا الان اماكن ولادتنا"(٥) وتدلل هذه الاشارة على استحسان هؤلاء الاوروبيون للاقامة والاستقرار في فلسطين وإلا لما نسوا اماكن ولادتهم.

وقد تحدثت مصادرنا الاسلامية ايضاً عن وجود الفرنجة في نابلس فأبو شامة يذكر بأن معظم سكان نابلس وضياعها مسلمون، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمون(٦) ولما حرر المسلمون مدينة نابلس (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) على يد حسام الدين لاجين ابن اخت السلطان صلاح الدين عامل الفرنج المقيمين في نابلس معاملةً حسنة وامنهم على انفسهم واموالهم وممتلكاتهم، وسمح لهم بمغادرة المنطقة الى اية جهة يختارونها(٧) فغادر منهم من غادر وبقي من بقي، فتعرب هؤلاء مع مرور الزمن وذابوا في المجتمع العربي النابلسي. اما الاكراد فيعود تاريخ

---

(١) هيتروث: التقلبات في كثافة الاستيطان وحدوده في فلسطين وشرقي الاردن منذ القرن السادس عشر ضمن كتاب (دراسات جغرافية المانية حول الشرق الاوسط) تح ابوجين فرت، ت فؤاد ابراهيم المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.م، د.ت ص١٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هيتروث: التقلبات في كثافة الاستيطان.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٣.

(٣) برتراندون: رحلة برتراندون، ص٣٠٧-٣٢٤.

(٤) Benvenisti, M: ..The Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1976 P.409.

(٥) الشارتري: تاريخ الحملة الى القدس، ص٢١٨.

(٦) ابو شامة: الروضتين، ص٨٨.

(٧) نفس المصدر والجزء ، ص٨٩.

وجودهم في بلاد الشام الى بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ اذ اسكنهم شبل الدولة نصر بن مرداس في حصن الاكراد عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) واستمروا فيه حتى مجيء الاحتلال الفرنجي للشام واحتلالهم للحصن سنة ٥٠٣(هـ/ ١١٠٩م)[١] وقد بلغ الاكراد شأناً عظيماً، خاصة حينما تمكن صلاح الدين الايوبي من اقامة الدولة الايوبية، وتبعاً لذلك اصبح الاكراد طبقة عسكرية واقطاعية متميزة ومسيطرة في مصر وبلاد الشام؛ لكونهم اصبحوا حكّام البلاد وقد نهضوا بدور كبير في محاربة الفرنج وتواجدت اعداد كبيرة منهم في نابلس بعد معركة حطين، حيث منحها السلطان صلاح الدين لابن اخته حسام الدين بعد ان فتحها واخرج الفرنج منها لتكون اقطاعاً له، بما في ذلك اعمالها وضياعها ومعاقلها، فارسل حسام الدين فرقة من فرسانه لاقرار الاوضاع في نابلس، فاستوعبوا اثمارها وغلالها ورتبوا امر الدفاع عنها[٢] وبعد وفاته انتقلت الى الامراء الاكراد امثال سيف الدين علي بن احمد الهكاري من الاكراد الهكارية[٣] ولما كان الامير الاقطاعي في نابلس يطلب منه تجهيز ما يقارب من سبعمائة فارس لقتال الفرنج[٤] وبما ان امير نابلس في الغالب من الامراء الاكراد فأن نسبة لا بأس بها من هذه الحامية التي يجهزها الامير ستكون من الاكراد؛ لكونهم العنصر البارز في الدولة الايوبية ناهيك عن كبار الموظفين الذين يتولون شؤون الادارة في المدينة وغالبيتهم من الاكراد، وحتى بعد انتهاء الدولة الايوبية وقيام الدولة المملوكية استمر تواجد الاكراد في المنطقة، وخدم عدد كبير منهم في الجيش المملوكي، ولا بد ان وجودهم استمر في نابلس وسط الخليط السكاني الذي حوته نابلس بين جنباتها.

---

(١) مجهول: اعمال الفرنجة،ص١٠٩.

(٢) ابو شامة: الروضتين،ج٢، ص٤٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص١٨٠-١٨١.

(٤) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٣٧.

أما الأتراك والجركس فقد وجد هذان العنصران في كافة ارجاء السلطنة المملوكية كفئة مسيطرة تولت مهام الحكم والادارة، وشكل هذان العنصران طبقة اقطاعية عسكرية، حظيت بامتيازات هائلة جعلتهم يتميزون عن باقي العناصر السكانية في الولاية، بما حازوه من املاك واقطاعات درت عليهم عوائد مرتفعة جداً فقد منحوا اقطاعات كثيرة وواسعة، كتلك التي منحهم اياها السلطان الظاهر بيبرس عقب معركة ارسوف(٦٦٣هـ/١٢٦٥م) وجعلها اقطاعات تمليك تبقى للولد منهم وولد الولد ما يدوم الى اخر الدهر، وفي هذا الاطار وزعت عليهم اراض كبيرة من اراضي ولاية نابلس(١) وكان سلاطين المماليك يغدقون هذه المنح والاقطاعات على اتباعهم ومماليكهم كلما اتسعت اراضي الدولة عن طريق الفتح واستعادة البلاد من الغزاة الفرنج وهذا عائد على اعتبار ان الدولة المملوكية قامت على اساس نظام الاقطاع العسكري أو الحربي وقد أخذ هذا النظام عن الأيوبيين الذين اخذوه بدورهم عن االسلاجقة.

وقد عاش في نابلس اعداد كبيرة من هذين العنصرين، فمنهم تكونت الحامية العسكرية التي تدافع عن الولاية ورغم عدم اشارة المصادر التي اطلعت عليها الباحثة الى حجم هذه الحامية، ناهيك عن كبار الموظفين الذين تولوا ادارة الولاية وغيرهم، ممن كان يفضل الاقامة في الولاية ولا يزال الى يومنا هذا بقايا سكان في نابلس يعودون في اصولهم الى الاتراك(٢).

واضافة الى ما سبق ذكره من عناصر فقد عاش في نابلس أقليات عرقية اخرى لعل من اهمها السريان الذين عاشوا باعداد كبيرة في فلسطين، وعمل معظمهم كخدم في بيوت المسلمين وتشابه السريان مع المسلمين في زيهم ولكنهم امتازوا بوضع الحزام على أوساطهم(٣) وكانت أحزمة المسيحين أداه هامة لتمييزهم من بين السكان.

---

(١) الدواداري: زبدة الفكرة ، ج١٠، مخطوط لوحة رقم ١٠٣، مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك ص١٣٩-١٤٠.

(٢) صبحي طوقان: نابلس صفحات مجيدة من الثقافة والحضارة والكفاح، د.م، د.ن، ١٩٦٩،ص٢٤. وسيشار اليه فيما بعد، طوقان: نابلس صفحات مجيدة.

(٣) بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧٣.

ثانياً: فئات السكان الدينية

كان معظم سكان نابلس وقراها مسلمين(1) بالاضافة الى وجود طوائف دينية اخرى كالنصارى والسامريين وقد وصف المسلمون من قبل الرحالة الاجانب بأنهم يبشرون بمحمد ويحفظون دساتيره وقوانينه وشرائعه، ويبيح لهم الدين الاسلامي تعدد الزوجات ولديهم ايفيبابه ephebiae (مركز تدريب عسكري للشباب في كل مدينة) وهم مضيافون جداً وكرماء ولطفاء ممتازون(2) وقد اعتنق بعض السكان المسلمين في نابلس المذهب الشيعي وتزايد اتباع هذا المذهب اثناء الحكم الفاطمي.

وقد اخذ المذهب الشيعي في الانحسار مع انتهاء الدولة الفاطمية حتى بلغ مداه في العصرين الايوبي والمملوكي حيث عملت الدولة الايوبية ومن بعدها الدولة المملوكية في هذا الاتجاه ضمن سياسية بناء المدارس والزوايا والربط وغيرها من المؤسسات الدينية والاجتماعية في المدن الاسلامية الشامية والمصرية بهدف تدعيم المذهب السني ونشره والقضاء على المذهب الشيعي واتباعه في المنطقة(3) وبين اتباع المذهب السني ظهرت اتجاهات فكرية متعددة مثل المعتزلة وقد عاش هؤلاء في نابلس خفية(4) اما التصوف فقد انتشر في نابلس بشكل كبير وخاصة

---

(1) ابوشامة: الروضتين، ج2،ص88. وقد أورد لويس أنه ومن خلال السجل رقم 1028 لسنة 945هـ/1538-1539م استطاع التعرف الى حوالي 638 اسرة مسلمة في مدينة نابلس فاذا اعتبرنا ان متوسط الاسرة خمسة افراد فهذا يعني ان عدد السكان المسلمين في المدينة لوحدها 3190 نسمة ناهيك عن السكان المسلمين المقيمين في الريف

Cohen-Lewis, Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton 1968,P. 149.

وسيشار اليه فيما بعد Cohen-Lewis, Population and Revenue.

اما هيتروث فيقدر عدد العائلات المسلمة ب796 اي ما يساوي 3980 نسمة Hutteroth, Historical Geography P.53.

(2) بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص172-173 هذه الاشارة التي يوردها بورشارد عن تمسك المسلمين بالشريعة الاسلامية تجعلنا نستخلص من خلالها مدى حرص المسلمين في العصر المملوكي على تطبيق حدود الشريعة فاذا اضفنا اليها اوصافه للمسلمين بانهم يسمون المسيح اعظم الانبياء وانه نفخة من عند الله وولد من مريم العذراء ولا يعتقدون بعذابه بل برفعه الى الله ان مثل هذه الاشارات تعطينا تصوراً عن مدى التحول الذي حصل في فهم الفرنج للديانة الاسلامية في القرن الثالث عشر بشكل افضل مقارنة مع فهمهم لها في بداية حضورهم الى فلسطين.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص384،393-394،411-414. المقريزي: السلوك ج1 ق2،تح، ص608.

(4) المقدسي: احسن التقاسيم،ص179.

في عصر المماليك، وأحسب أن المماليك قد دعموا هذا التوجه في المجتمع بغرض صرف الناس عن مساوئ النظام ومنعهم من الالتفات الى الطبقة الحاكمة ومساوئها. وقد نتج عن هذا الدعم والتشجيع قيام نوع من التحالف بين الصوفية والنظام المملوكي يضمن كل طرف من خلاله بقاءه، وما يتمتع به من امتيازات. خاصة في ظل المعارضة التي ابداها الفقهاء والعلماء للسياسة المملوكية في شتى الميادين الدينية والاجتماعية والاقتصادية(١).

أما النصارى فقد عاشوا في نابلس الى جانب المسلمين والسامريين واشار بورشارد من القرن الثالث عشر الى وجودهم حيث ذكر بأنه يقيم في الارض المقدسة رجال من جميع الامم وكل واحد منهم يتبع مذهباً خاصاً ومن بينهم المسيحيون اليونان (الارثوذكس)(٢) ولما حررت مدينة نابلس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م كان بها خلق كثير فسألو السلطان الاقامة في مملكته فأقرهم على املاكهم واماكنهم(٣) وقد عاش هؤلاء في السلطنة عيشة كريمة وتمتعوا بتسامح كبير، ولم يمنع هذا من خضوعهم بين فترة واخرى لسلسله من الاجراءات التي اتخذها السلاطين المماليك بحق اهل الذمة خاصة في مصر وبلاد الشام؛ وذلك للحد من تزايد نفوذهم في السلطنة وتشبههم بالمسلمين، ومن امثلة تلك الاجراءات اقدام الناصر محمد بن قلاوون على اصدار مرسوم سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) يتضمن الزام النصارى بلبس العمائم الزرقاء وشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من العمل في دواوين الدولة ومنعهم من ان يعلو بنيانهم بنيان المسلمين وان يركبوا الحمير(٤) ويرجع السبب في ذلك الى تذمر وزير ملك المغرب الذي قدم مصر يريد الحج فرأى مما عليه حال اهل الذمة من تزايد ترفهم وتعاليهم على المسلمين فشق عليه الامر واجتمع بالاميرين

---

(١) علي حيدر: سلاطين العصر المملوكي الأول، واجبهم الاجتماعي والديني ورأي الفقهاء والمؤرخين فيهم، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، م٤، ع١ ١٩٩٢، ص٧٠-٧٩. وسيشار اليه فيما بعد علي حيدر: سلاطين العصر المملوكي.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٣.

(٣) ابن ايبك: كنز الدرر، ج٧، ١٩٧٢ ص٩٥، وسيشار اليه فيما بعد الدواداري: كنز الدرر. اشار السجل رقم ١٠٣٨ لسنة ٩٤٥هـ العثماني الى وجود ٢٤ اسرة مسيحية في نابلس بمعدل ١٢٠ فرد Cohen- Lewis: Population and Revenue, p.149 اما هيتروث فقد قدرهم استناداً الى الدفاتر التي عاد اليها عن اعدادهم في نابلس الى انهم ١٨ اسرة بمعدل ٩٠ فرد. Huttroth, Historical Geography, p53.

(٤) النويري: نهاية الارب، ج٣١، ص٤١٨، القلقشندي: صبح الاعشى ج١٣، ص٣٧٨، المقريزي: السلوك، ج٢ق٣، ص٩٢٢-٩٢٤، ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٨.

بيبرس وسلار وحدثهما بما رآه وانكر ذلك وبكا بكاءاً كثيراً وشنع في امر النصارى وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض وتذل المسلمين وتمشيهم في خدمتهم فأثر كلامه في نفوس الامراء وعقد مجلس بحضوز الحكام واستدعيت القضاه والفقهاء وبرز مرسوم السلطان بحمل اهل الذمة على ما يقتضيه الشرع المحمدي[1] وقد طبقت على النساء المسيحيات واليهوديات والسامريات نظم مماثلة اذ كان لزاماً عليهن ان يرتدين اثناء وجودهن في الشوارع اقمشة زرقاء او صفراء على رؤوسهن او فوق صدورهن حتى يمكن ان يميزن بها عن النساء المسلمات وكان من الضروري ان يرتدين الزنار على الرداء الفوقاني (الازار) كما يجب عليهن ان يرتدين علامة مميزة اثناء وجودهن في الحمامات العامة ولا بد ان يكون الحزام من الوان متنوعة كعمامة الرجال ووفق اللون المخصص للطائفة فاللون الاصفر لليهوديات والازرق للمسيحيات والأحمر للسامريات[2] كما استخرجت منهم ضريبة الجوالي[3] وهي ما يؤخذ ةعلى اهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة[4] وقد مرت اوقات على أهل الذمة استخرجت فيه هذه الضرائب باستخدام القوه والعنف[5] ولكن مثل هذه الممارسات كانت ممارسات فردية، ولم تكن اتجاهاً عاماً تنهجه الدولة في جمع مثل هذه الضرائب منهم، ومثل هذه التجاوزات تحدث في اي منطقة في العالم، وينبغي ان نقدر ونحن نتحدث عنها روح العصر الذي حدثت فيه وهو عصر الحروب مع الفرنجة وطبيعة المماليك انفسهم وحداثة عهدهم بالاسلام وعدم تشربهم لروحه بالقدر الكافي كذلك يجب علينا ان

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ق٣ ،ص٩٠٩-٩١٠.

(٢) ك . أ. ماير: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٢٠، وسيشار اليه فيما بعد. ماير: الملابس المملوكية.

(٣) الجوالي: جمع جالية وتطلق على اهل الذمة وقد قيل لهم ذلك لان عمر بن الخطاب اجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من اهل الذمة وان لم يجلوا من اوطانهم، ويشير المقريزي الى تناقص الجوالي في عصره لكثرة اظهار النصارى للاسلام من الحوادث التي مرت بهم: محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ ص ٩٤ وسيشار اليه فيما بعد محمد قنديل : التعريف.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣،ص٤٦٣: الاسعد بن مماتي: قوانين الدواوين، تح عزيز عطية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص٣١٧-٣١٩.

(٥) ابن لقلق: تاريخ بطاركة مجلد ٤، ج٢، ص١٢٠.

نلاحظ ان جزءاً من ممارسات الدولة المملوكية ضد اهل الذمة قد جاءت كرد فعل لتصرفات اهل الذمة التي تسيء للدولة.

أما السامريون فهم طائفة دينية عاشت وما زالت حتى الان في نابلس وبلغوا حداً من الشهرة بحيث نسبت المدينة اليهم، فيقال لنابلس مدينة السامرة نسبة اليهم(١) وقد اختلفت الاراء حول السمرة واصولهم ومعتقداتهم فالبعض يرى انهم من اليهود بل هم اليهود الاصليون وينتسبون في أصل أرومتهم الى يوسف الصديق الا كاهنهم فانه ينتسب الى لاوي ويرى اصحاب هذا الرأي ان اليهود قد انشقوا عنهم وخالطوا الأمم الأخرى، ويعزون هذا الانشقاق الى خلاف ديني نشأ بينهم وبين اليهود(٢) فيما يرى الفريق الاخر ان السامريين ليسوا من اليهود ولامن اصل يهودي(٣) وانهم سموا بهذا الاسم نسبة الى ارض السامرة في فلسطين وتفسير ذلك انه حدث اثناء حصار شلمنصر الخامس الاشوري للسامرة ذلك الحصار الذي دام ثلاث سنوات تبدل خلالها الملك الاشوري حيث اخذ الملك سنة ٧٢٢ ق.م مغتصب اطلق على نفسه اسم سرجون الثاني وقد سقطت السامرة بيده وحمل الكثير من الاسرى الذين اسكنهم في مناطق شتى من الامبراطوية الاشورية وحمل اناساً اسكهنم بدلهم في المواقع الفلسطينة اتى بهم من بابل وكوثا وحما وسفارئيم (ابوحبة حالياً جنوب بغداد في العراق) واسكنهم السامرة وصار القادمون الجدد يمتزجون بحرية مع العبريين المحتلين في المنطقة وتأثروا بالعبادات العبرية تم انفصلوا عنهم نهائياً سنة ٤٣٢ ق.م واطلق عليهم منذ الانفصال الاخير اسم السامريين نسبة الى السامرة(٣) يؤيد ذلك ما جاء في سفر الملوك الثاني(٤).

(١) البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٤٧ وقد ذكر عن نابلس انها مدينة السمرة التي لا يسكنون غيرها الا لحاجة من عمل وغيره، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥،ص٢٤٨، الحنبلي: الانس الجليل،ج٢ ص٧٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤،ص٢٥٩. البغدادي: مراصد الاطلاع،ج٣،ص١٣٤١.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى،ج١٣،ص٢٧١. الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٧٥.النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٤ المقدسي، ابو محمود احمد بن هلال: مثير الغرام بفضائل القدس والشام، مكتبة الطاهر اخوان، يافا د.ت،ص٦٥.

(٤) سامي سعيد الاحمد: تاريخ فلسطين القديم، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد ١٩٧٩،ص٢٢٤ وسيشار اليه فيما بعد سامي الاحمد: تاريخ فلسطين القديم. جورجي زيدان: فلسطين تاريخها وآثارها. مجلة الهلال، السنة ٢٢، ج٤، اكتوبر ١٩١٣-١٩١٤ ص٣٤٩. وسيشار اليه فيما بعد جورجي زيدان: فلسطين تاريخها.

وتاريخ هذه الطائفة تابع لتاريخ البلاد التي استقروا فيها ويستفاد من رحلة بنيامين التطيلي في القرن الثاني عشر الميلادي ان عدد السامريين في فلسطين كان نحو الف شخص(١).

وما زالوا يتناقصون الى الان(٢) ولم يبق منهم الا المقيمون في نابلس عند سفح جبل جرزيم، وهم طائفة شديدة التمسك بمعتقداتهم ولا يتنازلون عن حرف منها(٣) وقد اقتبس هؤلاء من المسلمين في نابلس الكثير من العادات واللهجات ودخل عدد منهم في الاسلام، امثال وزير الصالح اسماعيل امين الدولة السامري وكان غالباً على الصالح بحيث لا يخرج عن رأيه(٤) ولهذه الطائفة رئيس يقيم في مدينة نابلس وله نائب يقيم في مدينة دمشق(٥). وقد طبقت عليهم الاجراءات التي اتخذها سلاطين المماليك في مصر والشام بحق اهل الذمة فالزموا بارتداء العمائم الحمراء ودفع ضريبة الجوالى(٦).

وقد سادت اللغة العربية بين سكان الولاية وغيرها من المدن الفلسطينية فتكلم المسلمون والنصارى والسمرة اللغة العربية باللهجة المحلية- اللهجة النابلسية- واعتبرت هذه اللغة هي اللغة الرسمية للولاية علماً انه قد استخدم الى جانبها لغات اخرى فالسامرة يستخدمون لغتهم العبرية

---

(١) سفر الملوك الثاني: ١٧:٢٤ "واتى ملك اشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحما وسفارنيم واسكنهم في مدن السامرة عوضاً عن بني اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها.

(٢) بنيامين : رحلة بنيامين،ص٩٦ .

(٣) قدّر هيتروث عددهم في القرن السادس عشر ب٢٠ اسرة بمعدل ١٠٠ شخص Hutteroth:Historical Geography p.53 اما كوهن ولويس فقدرا عددهم ب٣٦ اسرة بمعدل ١٨٠ شخص

Cohen- Lewis, Population and revenue p.149; Enlart , C, les Monument des Croises P. 283.

(٤) لمزيد من المعلومات عن معتقدات الطائفة السامرية انظر: التطيلي: رحلة بنيامين ص٩٦ فما بعدها. القلقشندي: صبح الاعشى،ج١٣،ص٢٧٠-٢٧٣.

(٥) ابو الفدا: المختصر ، ج٣، ص١٧٤.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى،ج٤،ص٢٠١.

(٧) المصدر نفسه، ج١٣، ص٣٧٨، النويري: نهاية الارب، ج٣١،ص٤١٨.

القديمة فيما بينهم ويؤدون بها طقوسهم الدينية[1] كما وجدت اللغة السريانية التي تحدث بها السريان وهم المسيحيون الذين اشار الى وجودهم بورشارد[2] وأدُّوا بها طقوسهم الدينية اما اللغة التركية التي استخدمها المماليك فيما بينهم وكانت تميزهم عن سائر ابناء البلاد الاصليين فلم تكن باللغة المعروفة للسكان رغم طول الفترة التي قضوها في مصر والشام حكاماً لها. ويعود ذلك الى ان تعلم المواطنين اللغة التركية كان محظوراً من الحكام[3].

ثالثاً: اقسام السكان من حيث نمط المعيشة

تبعاً لنمط المعيشة ينقسم السكان في ولاية نابلس الى قسمين: الحضر وهم سكان المجتمعات المستقرة من مدن وقرى وهؤلاء يمتازون بالاستقرار والارتباط بالارض ارتباطاً وثيقاً، ونحن نستدل على وجود هذا النمط من السكان من خلال ما زخر به المجتمع النابلسي من مؤسسات اجتماعية وثقافية واقتصادية كالمدارس والمستشفيات والحمامات والاسواق والمساجد وما الى ذلك وهذه المؤسسات لا يمكنها ان تقدم خدماتها الا في ظل مجتمع مستقر.

وتتباين حياة السكان في النمط الحضري ففي حين نجد العلماء والتجار والاشراف وكبار الموظفين والاقطاعيين من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة نجد في المقابل ارباب الحرف والصناعات البسيطة كالخياطين والحدادين والجزارين... داخل المجتمع النابلسي.

ونستدل على طبيعية الحياة التي عاشها سكان الحضر في نابلس وتفاوتها من خلال ما حفلت به المصادر الاسلامية من اوصاف للمدينة، حيث البيوت الفارهة والفخمة المكونة من طبقات عدة والمغطاه بالرخام والتي تحوي في داخلها غرفاً كثيرة وقاعات وحدائق غناء ومن

---

(1) عبد الله عارف: مدينة نابلس، ص١٠٥ واللغة السامرية هي اللغة العبرية نفسها وتكتب باحرف خاصة هي الاحرف السامرية المتفرعة من القلم الفنيقي. جورجي زيدان: فلسطين تاريخها، ص٣٥٠. ولهم كتابة خاصة ينقصها ثلاثة احرف هي الحاء والهاء والعين ويعوضون عنها بحرف الألف: التطليلي: رحلة بنيامين ص٩٧.

(2) بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧٣.

(3) بولياك: الاقطاعية، ص١٥.

ذلك ما نصه:-" فدخلنا الى جنينة في ذلك المنزل رحيبة الأكناف لطيفة الجوانب والأطراف، فيها حوض ماء تجري بالعذب الزلال، وايوان عالٍ جديد البنيان وريف الظلال(١) وايضاً "وذهبنا الى روض اريض يصعد اليه بدرج طويل غير عريض وهو من العجايب التي عن الغرايب مفصحة ان يكون بستان ذو اشجار ومياه جارية وثمار يانعة وأزهار فائحة واطيار صادحة، وذلك كله فوق الأسطحة وهو من خصوصيات البلاد النابلسية(٢) نتبين من خلال هذا النص الذي اورده النابلسي عن الكيفية التي تعامل بها الانسان في نابلس مع المساحة الارضية المتاحة وطريقة استغلالها استغلالاً ممتازاً ذلك ان المدينة واقعة بين جبلين وهي ذات شكل مستطيل لا عرض لها مما يعني ان المساحات السهلية والمنبسطة التي يمكن ان يتوسع فيها الانسان في مدن اخرى قليلة هنا وكتعويض عن هذا النقص في المساحات لجأ الانسان الى التوسع في استخدام الارض توسعاً رأسياً او عمودياً مستفيداً من كل مساحة ممكنة مهما كانت هذه المساحة ضيقة فاستغل اسطح المنازل في عمل الحدائق الغناء التي تجلب له الراحة والسعادة بدلاً من اللجوء الى التوسع الافقي الذي يحتاج لمساحات اكبر وهو ما نفتقده هنا.

علاوة على ذلك تعكس لنا هذه الاوصاف المستوى الرفيع الذي عاشته فئة قليلة من سكان الحضر في ولاية نابلس كما تعطينا مؤشراً يعكس مدى الثراء الذي نعم به السكان في الولاية هذا عدا عما امتازت به المدينة من عمران رائق بديع فهي مؤلفة من ثمانية عشر حياً، ذات سوق متسع يسمى سوق السلطان ويتألف من عدد كبير من الدكاكين ويمكن الحصول على كل شيء فيه لانه مملوء بالسلع(٣).

أما النمط المعيشي الثاني فهم البدو وهؤلاء انتقلوا الى نابلس مع بداية الفتح الإسلامي، وامتازت حياتهم بالترحال والتنقل سعياً وراء العيش وهم كما يقول جوانفيل: لا يعيشون في

---

(١) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٨.

(٢) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٨٥.

(٣) Evliya Tshelbis: Travels in Palestine, No1, P 139.

المدن أو القرى أو القصور بل يسكنون العراء على الدوام، ويحافظون على أهل بيتهم ونسائهم وأطفالهم في الليل، ويرتدي البدو جلاليب طويلة تغطي جميع اجسامهم وارجلهم واقدامهم، فاذا امطرت السماء تدثروا بعباءاتهم واخرجوا اللجم من افواه جيادهم وتركوها على مقربة منهم فاذا اقبل الصباح نشروا عباءاتهم للشمس وفركوها ورتبوها فتبدو كأنها لم تبل، وهم يؤمنون ان ليس من احد يموت الا في اليوم المقدر له، ولذلك لا يحملون السلاح واذا ارادوا شتم ابنائهم صاحوا بهم " لتكن ملعونا كالافرنجي الذي يتدرع حذر الموت" اما في القتال فلا يحملون من السلاح سوى السيف والرمح(١) كذلك نجد وصفاً آخر للبدو: بانهم خصصوا انفسهم للعناية بالماشية والجمال واطعامها فحسب، وهم يمتلكون اعداداً كبيرة جداً منها ولا يوجد لهؤلاء مساكن معينة، وهم ينصبون خيامهم حيث توجد المراعي وهو مولعون جداً بالحرب- وهنا نلحظ الدقة في وصفهم بحب الحرب وهو ما لم يلاحظه جوانفيل الذي نفى هذه الصفة عنهم- ومع ذلك فهم يستخدمون السيوف والرماح فقط في المعركة، ولا يستخدمون السهام مدعين انها رديئة الى حد كبير في ازهاق حياة رجل بسهم وهم شجعان في الحرب ويرتدون قميصاً احمر فقط وفوقه عباءة واسعة جداً ويغطون رؤوسهم بقطعة قماش وجميع سوريا مليئة بهم ولكن جزءاً كبيراً منهم يقيم حول نهر الاردن(٢).

وليست لدينا احصاءات دقيقة عن اعدادهم في ولاية نابلس في العصر المملوكي ولكن استناداً الى الدراسات الحديثة التي اعتمدت على السجلات العثمانية نستنتج ان إعدادهم كانت ضئيلة جداً. وقد تواجدوا في نابلس او بالقرب منها(٣) وقد اصابت حياتهم تغيرات ملحوظة في القرن الثالث عشر الميلادي؛ اذ قدم هؤلاء البدو للحجاج المسيحين في هذه الفترة والذين يزورون فلسطين خدمات مختلفة كالحماية والارشاد والمساعدات المختلفة نظير مبالغ نقدية يدفعها هؤلاء الحجاج والرحالة للبدو(٤) كذلك من المؤكد ان كثيراً من القبائل العربية المقيمة في

---

(١) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٤.

(٣) Hutteroth, Historical Geography P.27.

(٤) برتراندون: رحلة برتراندون، ص٣٠٧.

منطقة نابلس قد اخذت في التحول التدريجي الى النمط الحضري حيث الاستقرار والزراعة وقد ذكر هيتروث بأنه لم يجد اي ذكر للقبائل البدوية في نابلس في السجلات العثمانية العائدة للقرن السادس عشر(١)

رابعاً: فئات المجتمع النابلسي

ويأتي في طليعة السلم للمجتمع النابلسي فئة الامراء المماليك وكبار الموظفين من رجال الدولة وارباب البيوتات ويليها طبقة الاعيان وهي الفئة الواقعة بين فئة الخاصة وفئة العامة، وهي تشمل الزعماء الاكثر بروزاً واجلالاً من الذين يتزعمون جماعات وفئات من الشعب وطبقة الخاصة وهم اصحاب المناصب العليا في الادارة، وهؤلاء عكست منزلتهم في المجتمع قوة وثروة الدولة نفسها(٢).

ويأتي في المرتبة الثانية فئة الاشراف وهم السادة المنتسبون الى نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسل الحسين بن علي رضي الله عنه، وقد جمعت هؤلاء السادة نقابة عرفت بإسم نقابة الاشراف يتولاها احد شيوخ هذه الطائفة ويكون جليل القدر وله النظر في امورهم، ومنع من يدخل فيهم من الادعياء واذا شك في احد منهم طلب منه شجرة نسبة، وعليه ان يعود مرضاهم ويمشي في جنائزهم ويسعى في حوائجهم ويأخذ على يد المعتدي منهم ويمنعه من الاعتداء، ولا يقطع امراً من الامور المتعلقة بهم الا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك(٣) وكانت لهم زاوية يقميون بها ويزورهم الناس للتبرك بهم واشار النابلسي الى وجود نقيب الاشراف ودوار النقيب في نابلس(٤) وبقي هؤلاء الاشراف لا يميزون عن غيرهم وخاصة في الملبس حتى عهد السلطان الاشرف شعبان بن حسين بن قلاوون الذي اصدر في سنة (٧٨٣هـ/١٣٧١م)

---

(١) هيتروث: التقلبات في كثافة الاستيطان، ص١٣٨.

(٢) لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، ص١٢٥.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١١، ص١٦١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٤، ج١، ص١٤٦.

(٤) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٧-٣٠٩.

مرسوماً يقول فيه: ان الاشراف في الديار المصرية والشامية يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة للخاصة والعامة اجلالاً لحقهم وتعظيماً لقدرهم؛ ليقابلوا بالقبول والاقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين. فوقع ذلك ولبس الاشراف العلائم الخضر التي هي الان مستمرة على رؤوسهم[1] و لم يكن ذلك معمولاً به من قبل بدليل قول ابي المحاسن "ولقد احدث شيئاً كان الدهر محتاجاً اليه، ولا الهم الله تعالى الملوك ذلك من قبل[2] وقد تمتع هؤلاء بمكانه مرموقة في المجتمع الاسلامي ومن ضمنه المجتمع النابلسي. وكانوا مقصداً يقصدهم الناس للزيارة وتقربت الدولة المملوكية منهم واغدقت عليهم الوظائف والالقاب لتنال رضاهم.

ويأتي بعد الاشراف في المرتبة فئة العلماء، وكان هؤلاء مثل المماليك وجهاء قياديين في المجتمع ولكنهم لم يشكلوا فئة منفصلة، بل هم مجموعة من الناس تنتمي لجميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية[3] وقد اشار الحنبلي الى اهمية هذه الفئة وكثرة منتسبيها[4] وقد اولى المماليك هذه الفئة من الناس اهمية خاصة وتعاونوا معهم؛ ولعل السبب في ذلك يعود الى حساسية موقف المماليك بسبب اصلهم حيث مسهم الرق الى جانب نظرة المعاصرين لهم حيث استأثروا بالحكم دون سادتهم الايوبين[5] وقد لعب العلماء دوراً بارزاً في توجيه المجتمع توجيهاً جهادياً، نرى ذلك عندما قام هؤلاء بتحريض المسلمين على مهاجمة الفرنج وترك العمل في الاراضي الزراعية الخاضعة لسلطانهم يوم كانت نابلس تحت الاحتلال الفرنجي وقد استخدموا منابر رسول الله عليه السلام في الجمع والاعياد لتشجيع السكان على العصيان ضد الفرنجة ولقي ذلك استجابة من الفلاحين الذين طالما عانوا من الظلم والقهر الفرنجي[6] و لم يقف الامر

(١) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١،ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٥٧.

(٣) لابيدوس: مدن الشام، ص٢٠٥.

(٤) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٧٥.

(٥) علي السيد: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٢١ وسيشار اليه فيما بعد: علي السيد: القدس.

(٦) ابن طولون، شمس الدين محمد: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ت، ج٦، ص٢٧ وسيشار اليه فيما بعد: ابن طولون: القلائد الجوهرية.

بالعلماء عند حد تحريض الفلاحين على العصيان بل كانوا اكثر ايجابية حين ساهموا مساهمة فعالة في جهاد الفرنج فقد حدث في عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) وبعد بضعة اسابيع من رحيل الامبراطور فردريك عن بيت المقدس ان دبر ائمة المسلمين والزهاد في نابلس والخليل شن غارة على بيت المقدس فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم الى برج داود للاحتماء به بينما ارسل رينالد سيد حيفا الى عكا يلتمس النجدة ولم يجبر المغيرين على الارتداد سوى قدوم نائبي الامبراطور باليان سيد صيدا وجارنية على رأس جيش وانكر الامراء المسلمون ان لهم صلة بهذه الغارة(١).

ولدينا من نابلس نماذج ايجابية عن علماء وقفوا ضد الدولة المملوكية وسياستها وكان جزاؤهم القتل مثل محمد بن ابراهيم بن ابي بكر محمد بن ابي الكرم النابلسي الاصل ثم الدمشقي الذي قتل ظلماً في شعبان سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وذلك انه لما خرج منطاش ويلبغا الناصري وملكا الامر، ونفي برقوق الى الكرك ثم خلص وحاصر دمشق قام ابن الشهيد وجمع لمحاربته فلما ال الامر الى برقوق حقد عليه فأمر بالقبض عليه فحمل الى القاهرة مقيداً فاودع السجن مع اهل الجرائم ثم امر به فأخرج الى ظاهر القاهرة فضربت عنقه بالقرب من القلعة، وذلك قبل رمضان بيوم وكان بينه وبين بيدمر شركبير فاذا ولي بيدمر النيابة سعى في اذاه بكل طريق صودرت أمواله غير مره واختفى وعزل مراراً، ثم يعود وكان اعظم ذنوبه عند الظاهر ان منطاش لما سجن الشهاب القرشي اعطاه الخطابة فكان يحرض في خطبته على الظاهر(٢).

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) العسقلاني: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي: أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، طبع بإعانة وزارة المعارف العالية الهندية تحت مراقبة د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢ ١٩٨٦. ج٣، ص ٩٣-٩٤.

كذلك وقف العلماء ضد سياسة الدولة المملوكية، فلم يقتنعوا بسياستهم نحو الخلافة التي افرغوها من محتواها واستنكروا تعديل النظام القضائي الذي اوجد قاضياً لكل مذهب(١) ورغم هذه المعارضة الا ان الدولة المملوكية استمرت في استرضائهم بغية الاستفادة من وضعهم في المجتمع لصالحها فاستمروا يتمتعون باحترام كبير في الدولة(٢) ومع تراجع الدولة المملوكية وتزايد مساوئ نظام الحكم وانتشار الامراض الاجتماعية في الدولة من مفاسد ورشاوى وبراطيل انتقلت هذه الامراض الى أوساط ادعياء العلم الذين وصل بهم الامر الى الحد الذي اشتروا فيه الوظائف الدينية والعلمية "بالبذل والبرطلة"؛ امثال ابن النحاس الذي تولى قضاء نابلس ببذل بذلة على يد ابراهيم النابلسي حتى ولية في صفر سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م(٣) وفي هذا دليل على مدى تراجع الحياة الاجتماعية في ظل المماليك.

اما وجهاء التجار فقد مثلوا طبقة غنية وقوية وذات مكانة اجتماعية متميزة، وكان التجار من بين اغنى رجال زمانهم، ووقفوا على قدم المساواة مع الامراء المماليك ان لم يتفوقوا عليهم في بعض الاحيان، وقد سبق ان اشرنا في معرض الحديث عن النمط الحضري الى مستوى معيشي عالٍ لطبقة من اهل نابلس(٤) ولا شك ان التجار كانوا في طليعتها خاصة وقد اشتهرت مدينة نابلس بانها ذات مكانة تجارية مرموقة واسواق مزدهرة، وحركة تجارية نشطة(٥) ولكن فترة الرخاء والاستقرار تراجعت بعد استيلاء المماليك الجراكسة على السلطة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) وهم جماعة مغامرة زجت الدولة في حروب اهلية متصلة لربع قرن، وادى ضعف النظام السياسي في الدولة الى قيام البدو والتركمان بالثورات المستمرة فعاثوا في المناطق الزراعية في بلاد الشام ومصر اضافة الى الاخطار الخارجية المتمثلة بغزو تيمورلنك (٨٠٤-

(١) علي حيدر: سلاطين العصر المملوكي، ص ٧٣.
(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١،ص٧٢.
(٣) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن:الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، لبنان، د.ت، ج٩، ص ٤٥، وسيشار اليه فيما بعد، السخاوي: الضوء اللامع..
(٤) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٨-٨٥.
(٥) لمزيد من المعلومات عن نابلس واسواقها وتجارتها انظر .Evliya Tshelebis: Travels in Palestin P.P 139-140

٨٠٥هـ/١٤٠٠-١٤٠١م) وما احدثه من خراب، وقد تسببت هذه الاحداث باضرار كبيرة للاقتصاد العام ورافق ذلك انهيار النظام النقدي وتكرر الغلاء والمجاعات[1].

اما فئة العامة والفلاحين فقد عاش هؤلاء وسط مجتمع طبقي مغلق جامد وينظر الى حقوق الفرد فيه من خلال انتمائه الطبقي، لذلك عانى هؤلاء اشد المعاناه[2] وخاصة من جراء النظام الاقطاعي حيث تعرض الفلاح لحياة جديدة لم يكن يستطيع معها تغيير وضعه او ظروفه وقد اشار بعض المؤرخين المعاصرين الى حالة الفلاح في هذا العصر فالسُّبكي (٧٢٧-٧٧١هـ/١٣٢٦-١٣٦٩م) يقول "ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو أمير نفسه، وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة. والحال في غير الشام اشد منه فيها. وكل ذلك لا يحل اعتماده، والبلاد تعمر بدون ذلك. بل انما تخرب بذلك لانهم يضيقون على الناس فيضيق الله عليهم[3] فاذا اضفنا الى ذلك ما كان يدفعه الفلاح من ضرائب ورسوماً اضافية غير ثابتة مثل الهدايا وغيرها لادركنا لماذا انتهت حالة الريف في بلادنا الى الخراب ولماذا هجر الناس قراهم تاركين العمل بالزراعة.

وما دمنا بصدد الحديث عن المجتمع النابلسي في العصر المملوكي فلنحاول ان نلقي نظرة على حجم الكثافة السكانية في الولاية خلال هذه الحقبة وفي هذا الصدد تعتبر الدراسات الديموغرافية المتخصصة ان منطقة نابلس كانت في طليعة المناطق الفلسطينية كثافة بالسكان؛ ويستدل على ذلك من خلال عدد قراها المرتفع ، ومن كثرة ما جند منها من تجاريد لقتال العثمانيين وخاصة في اواخر العهد المملوكي، وقد اصيبت الكثافة السكانية في نابلس بالتخلخل

---

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي: دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط ٥، ١٩٨٧، ص ١٠٨، ١٠٩ وسيشار اليه فيما بعد، الدوري: مقدمة في التاريخ الإقتصادي.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مجلة العربي، تع، ٣٧٩، الكويت، ١٩٩٠، ص٥٨.

(٣) السُّبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، تح محمد النجار وآخرون، دار الكتاب العربي القاهرة، ط١، ١٩٤٨، ص٣٤ وسيشار اليه فيما بعد: السبكي: معيد النعم.

في اكثر من فترة من فترات تاريخها فقد تخلخلت هذه الكثافة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حينما داهم الفرنج البلاد وغدت مسرحاً لعدوانهم وظلمهم، مما دفع بالكثير من السكان الى هجرة البلاد وخراب قراها، وقد اثر هذا في الكثافة السكانية لمنطقة نابلس.

وقد تحدثت المصادر الاسلامية عن اخبار هذه الهجرات ودوافعها: فقد هاجر مثلاً ال قدامه من نابلس الى دمشق بسبب العدوان الفرنجي وحاول اهالي قريتهم ثنيهم عن مقصدهم، فلم يفلحوا فاستعانوا بالفرنجة الذين قعدوا لهم على الشريعة لمنعهم ولكنهم تمكنوا من العبور(١) وقد يتساءل المرء عن الدافع وراء قيام الفرنج بمحاولة منع بني قدامه من الهجرة الى دمشق وترى الباحثة ان ذلك يأتي في اطار الاستراتجية الفرنجية التي كانت تقوم في بداية الاحتلال الفرنجي لفلسطين على قاعدة ارض بلا سكان لذلك ارتكب الفرنج المجازر البشعة ضد السكان في فلسطين لتفريغها من سكانها، ثم اخذت هذه الاستراتيجية في التبدل فيما بعد لكون المجتمع الفرنجي مجتمع عسكري يحيا وسط محيط من الاعداء ولا بد له من المحافظة على تفوقه العسكري فبحث عمن يقوم بخدمته في الاعمال المختلفة من زراعة وغيرها فلم يجدوا سوى سكان البلاد الأصليين للقيام بذلك في الوقت الذي يبقون عناصرهم كقوى عسكرية جاهزة للدفاع عن نفسها في حالة تعرضها لاعتداءات خارجية او في حالة قيامها بمشاريع عدوانية ضد جيرانها المسلمين، ودليلنا على ذلك اقدام الملك بلدوين الاول ملك بيت المقدس الذي لاحظ بقلق كبير خلو عاصمته من السكان تقريباً بحيث لم يكن لديه العدد الكافي من الناس لمواصلة المشاريع اللازمة للمملكة ولا العدد الكافي من الناس لحماية المدينة والدفاع عن الاسوار والابراج.

---

(١) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق١، ص٦٨-٦٩.

وبعد التشارو مع مستشاريه بخصوص الخطط اللازمة لاعمار المدينة المقدسة بالناس بعد ان قضي على السكان الاصليين حين تم احتلالها قرر الملك بلدوين الاول جلب اعداداً من المسيحين من قرى واقعة فيما وراء الاردن من (البلقاء وعمان) ومنحهم قطاعات المدينة التي كانت بحاجة ماسة لهذه المعونة وامتلأت المنازل بهم(١) لذلك من الطبيعي الا يسمح الفرنجة لمن بقي من السكان بمغادرة البلاد حتى يتمكنوا من الاستفادة منهم في مشاريع الاعمار المختلفة في المملكة ورغم محاولات الفرنج المتكررة لمنع الهجرة فقد توالى عبور المهاجرين الى دمشق من قرى نابلس المختلفة مثل جيت(٢) ومردا وجماعين(٣) ولعل من الدوافع وراء استمرار هذه التحركات سوء المعاملة التي لقيها المسلمون من الفرنج إذ اجبروهم على العمل في الارض وتعرضوا للاذى والحبس ودفعوا الكثير من الاموال على شكل ضرائب(٤) هذا عدا عن الوحشية التي تعرض لها سكان المناطق التي وقعت تحت الاحتلال الفرنجي. ان هذه الممارسات نتج عنها خراب الريف النابلسي بحيث تقلص عدد القرى في نابلس الى تسعين قرية في مساحة بلغت ١٥٠٠كم٢(٥) فلما حررت مدينة نابلس اثر معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) عادت الكثافة السكانية الى الارتفاع بشكل ملفت للنظر مما حدا بالبنداري الى القول :"فعادت نابلس بلدة محشوه بساكنيها كالرمان وبقيت الى اخر عهده- حسام الدين لاجين- وعمرت بعدله واحسانه ورفقه ورفده(٦) واستمرت هذه الكثافة على هذا النحو طيلة العصر الايوبي وازدهرت في العصر المملوكي، ولعل في اشارة ابن شاهين ما يدعم هذه الاستمرارية والازدهار اذ يقول بانها مدينة حسنة لها اقليم يشتمل على ثلاثمائة قرية(٧) مما يعني زيادة بمقدار الضعفين عما كانت عليه في عصر الاحتلال الفرنجي.

---

(١) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٥٦٠-٥٦١.

(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق١، ص٧٤.

(٣) المصدر نفسه والجزء، ص٧٥-٧٦، النابلسي: الحضرة الانسية، ٩٠-٩٧.

(٤) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق١، ص٧٤.

(٥) Benvenisti, the Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1976,P.214.

(٦) البنداري، الفتح بن علي: سنا البرق الشامي، ص٣٠٣.

(٧) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٦.

وقد تبدت قيمة الولاية من الناحية السكانية في العصر المملوكي وخاصة عهد دولة المماليك الجراكسة من خلال ما ساهمت به في تجهيز الحملات المتجهة لحرب ابن عثمان، وفي حجم الاموال التي جمعت من السكان لتجهيز تلك الحملات فقد جمع ماماي الغوري الخاصكي من اهالي جبل نابلس اكثر من مائة واربعة وعشرين الف دينار لتجهيز المشاه(١) وهو مبلغ ضخم قياساً لتلك الفترة التي نتحدث عنها ويجب ان لا يفهم من ذلك ان الكثافة السكانية استمرت عالية ومزدهرة، بل حدث تراجع مهم في حجم الكثافة في العالم باسره وخاصة منذ منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حين ضرب العالم بأسره وباء الطاعون الذي افنى اعداد كبيرة من سكان بلاد الشام، ودمرت مدن باكملها مثل اللد والرملة وجنين(٢) وكاد النمو السكاني يقترب من الصفر وقد حفلت المصادر بأوصاف مطولة لهذا الوباء واثاره فيذكر ابن حبيب :"ان الفناء العظيم الذي جاب البلاد والامصار لم يسمع بمثله في سالف الاعصار... اخلى الديار والبيوت واوقع الناس في علة السكوت، وصال وجال وايتم الاطفال(٣) يضاف الى هذا الوباء عوامل اخرى كالقحط والجفاف والفتن الداخلية والحروب الخارجية وتعديات البدو وهي بلا شك عوامل ساهمت في تدني الكثافة السكانية في منطقة نابلس وغيرها من البلاد الى الدرجة التي قدر فيها عدد سكان نابلس حين فتحها العثمانيون في القرن السادس عشر ما بين خمسة الى ستة الاف نسمة(٤) فيما قدرها هيتروث بخمسة الاف نسمة معتبراً انها احتلت المرتبة الرابعة في عدد سكان المدينة نفسها البالغين ٤,٣٠٠ فرد(٥) اما دراسة الدكتور خليل اوغلو عن السكان في نابلس في بداية القرن السادس عشر والتي استندت الى دفتر الطابور رقم ١٠٠، انقرة لسنة ١٠٠٥ هـ ١٥٩٦م فقدرت سكان المدينة بانهم ٨٥٤ نفراً اي ما يساوي ٤٢٧٠ نسمة

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٨ وسيشار اليه فيما بعد: ابن اياس: بدائع الزهور.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٧.

(٣) ابن حبيب: درة الاسلاك في دولة الاتراك، ج٨، لوحة رقم ٢٢٧ مخطوط مصور على ميكروفلم عن الخزانة العامة بالرباط محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الاردنية شريط رقم ٥٣٩ وسيشار اليه فيما بعد ابن حبيب: درة الأسلاك .

(٤) Cohen-Lewis: Population and revenue P.P 12-19.

(٥) Hutteroth, Histoical Geography P.53.

ونسبتهم من سكان اللواء ٠,٥ ١٠٪ اما اللواء ككل فقدر بحوالي ٤٠ ألف نسمة[١] ويستفاد من الدارسة التي اجراها د. محمود زايد عن المدن الفلسطينية من خلال رحلة برتراندون ١٤٣٢م ان مدن نابلس والقدس والخليل وغزة كانت اعظم المدن الفلسطينية خلال القرن الخامس عشر[٢] مما يعني ان المدينة قد استعادت بعض عافيتها من الناحية الديمغرافية بعد الطاعون الجارف في القرن الرابع عشر، الا ان العوامل سالفة الذكر قد لعبت دورها في القرن السادس عشر وادت الى تراجع ملحوظ للمدينة عبرت عنه الاحصاءات التي اشرنا اليها.

خامساً: مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع النابلسي

أ- العادات والتقاليد

كباقي المجتمعات الاسلامية مارس السكان في نابلس الكثير من العادات والتقاليد التي توارثوها خلفاً عن سلف، ورغم كثرة تلك العادات وتنوعها الا اننا سنقتصر على ايراد بعضها خوفاً من الاطالة، وبما يعطي صورة كاملة عن ابناء المجتمع النابلسي وعاداتهم في ذلك العصر. فمن تلك العادات التي انتشرت بين مختلف الطوائف في المجتمع النابلسي الاعتقاد بالحسد وما يسببه من امراض واحزان وموت... وغير ذلك من العلل وللوقاية من الحسد استخدام الناس الخرزة الزرقاء والتعاويذ لفك وابطال مفعول الحسد. كذلك جرت العادة بأنه يقبل الانسان قريبة او صديقة الذي عاد بعد غياب طويل، كذلك عرف من العادات ان الشخص لا يقف اذا كان بامكانه ان يؤدي العمل وهو جالس لذلك نشاهد النساء في مجتمعنا يجلسن اثناء غسل

---

(١) خليل ساحلي ارغلو: نسبة عدد سكان المدن الى مجموع عدد السكان في بعض الولايات العربية في الحكم العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع١و ٢، يناير تونس ١٩٩٠، ص١٦٠ حيث يذكر الدكتور ساحلي استناداً الى دفتر الطابورو رقم ١٠٠ لسنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م انه كان يعيش في لواء نابلس ٧,٢٩٤ اسرة و٦٩٤ مجرداً من المسلمين و١٧٥ اسرة مجرد واحد من النصارى و١٥ اسرة يهودية يبلغ مجموعهم ٨,١٣٥ نفراً فاذا ضرب هذا المجموع بالعدد خمسة حجم الاسرة التقريبي فان الناتج هو ٤٠,٦٧ وكان تسكن نابلس ٧٩١ اسرة و١٠ مجرد بين مسلمين و١٦ اسرة و٢ مجرد نصارى و١٣٥ اسرة يهودية منهم ١٥ سامريين فيبلغ عددهم ٨٥٤ نفر اي ما يساوي ٤٢٧٠ نسمة.

(٢) محمود زايد: دراسة للتقسيمات الادارية في فلسطين. المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة براتراندون دي لابروكيية، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام جغرافية فلسطين وحضارتها ط١، عمان، ١٩٨٣، ج٢، ص٥٩٠.

الصوف او خبز الخبز وما شابه ذلك(1) كذلك اعتاد الناس على ترك الاشجار تنمو بين القبور بحيث بلغت هذه الاشجار السمت في نموها ومنها الاشجار حول قبر يوسف الصديق في قرية بلاطّه قرب نابلس(2) وقد تنبه ياقوت الى هذه الظاهرة الهامة وسجلها باعتبارها نوعاً من المعتقدات الاجتماعية التي سادت بين الناس حيث أعتاد الناس على التبرك بمثل هذه الاشجار لاعتقادهم بنفعها لكونها موجودة في هذه الاماكن المقدسة بالنسبة اليهم وهو نوع من المعتقدات الوثنية التي آمنت باهمية المظاهر الطبيعية والتي سادت بفعل تفشي الجهل بين الناس.

كذلك انتشرت بين الناس عادة الاعتقاد بصدق المنجمين ومفسري الاحلام رغم نهي الدين الاسلامي عن الاعتقاد بهذه الأشياء- ومع ذلك شاعت هذه المعتقدات وانتشرت ليس فقط في نابلس ولكن في مجتمعاتنا العربية والاسلامية عامة وقد تنبه مؤرخونا لهذه الظواهر والمعتقدات وسجلوها(3) وقد ساعدت هذه البيئة على ظهور الادعياء والمشعوذين والذين وجدوا لهم مكاناً في المجتمع مكنهم من بث دعاويهم فوجدوا من يصدقهم ويتبعهم ولدينا اشارات عن نماذج من هؤلاء الادعياء والمشعوذين في المجتمع النابلسي منهم محمد بن احمد الغرياني والذي ادعى انه المهدي المنتظر فاحتوى على عقول الناس واستفز الكثير منهم، وافسد نابلس وكان صاحب حيل وخداع(4) ومن العادات التي سادت لدى أهل نابلس صناعة الحلويات وتقديمها، وقد تحدث ابن بطوطة عن حلواء الخروب التي تشتهر بها نابلس وأوضح كيفية صنعها وذلك بان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب(5) كما صنع النابلسيون

---

(1) علي السيد: القدس، ص ٢٦٢.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٤٧٨. وقد أجرى أحد علماء الآثار ويدعى ارنست سيرين تنقيباته في المنطقة سنة ١٩٠٤ ولم يجد أثر قبر ورفات سيدنا يوسف.

(3) الكتبي: فوات الوفيات ج١، ص٨٦، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، تح احسان عباس، فرانز شتايز فيسباذن، ط٢ ١٩٦٢ ج٧، ص٤٨-٤٩ وسيشار اليه فيما بعد الصفدي: الوافي بالوفيات.

(4) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٤٦؛ السخاوي، الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد: التبر المسبوك في ذيل الملوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص١٠٢.

(5) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٥٦.

الكنافة(١) وذاعت شهرتها حتى غدت عنواناً لأهل نابلس والى يومنا هذا، كذلك انتشر في المجتمع النابلسي عادة الاستحمام في الحمامات العامة والتي قصدها الناس من مختلف الطبقات رجالاً ونساءاً، لكون الناس لم يألفوا عادة الاستحمام في المنازل كما هو شائع في ايامنا، وقد اشار المقدسي الى هذه الحمامات بقوله "ولهم دواميس عجيبة"(٢) وقد بالغ النابلسيون في العناية بحماماتهم على اكمل وجه بحيث غدت مشهورة بحسنها وجودتها، وقد وصفها الدمشقي بأنها حمامات طيبة(٣) وقد وجد في الحمام المزين والحلاق والمزين يقوم باعمال الجراحة الخفيفة من ثقب الاذنين لوضع الحلق كما كان يقوم بختان الاطفال، اما الحلاق فيقوم بقص الشعر وتهذيب الشوارب والذقون، وارتبط بالحمامات بعض الطقوس والتقاليد فقد كانت مراكز لتداول الاخبار في المدينة واعتبر دخول المريض للحمام ايذاناً بشفائه، ويتوجه العريس ليلة زفافه الى الحمام في حين تذهب العروس الى حمام النساء(٤).

أما فيما يتعلق بالألبسة التي ارتداها السكان في منطقة نابلس فأننا نذكر ان الناس قد تجملوا في ملابسهم ولبسوا الاردية الكثيرة علماء وجهالاً، ولم يكونوا يتخففون في الصيف ولا يقورون الطيالسه ولا يتدرع الا اهل القرى والكتبة(٥) ولقد كانت هنالك ملابس للرجال وملابس للنساء ويتألف لباس الرجل من الأزار والمئزر والجبة والجوخة، والعباءة، والفوطة، والقميص والفردة، والقباء، والكساء، والكبر، واللبد، والمنديل، والنعل والمشاية والزربون(٦).

---

(١) السيوطي: منهل اللطائف في أكل الكنافة والقطايف، مخطوط لوحة رقم ١ نسخة مصورة لدى الباحثة، وقد ذكر السيوطي بأن لفظ الكنافة لم ترد عند احد من أئمة اللغة ولا في الألفاظ اللغوية ما يصلح ان يكون مادة لها ويظهر انها لفظ اعجمي او يوناني.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤، والديماس هو الحمام والنسبة اليه ديماسي وفي الحديث كأنما خرج من ديماس. يعني الحمام. والديماسي، الحمامي السمعاني، ابي سعيد عبد الكريم محمد بن منصور التميمي: الأنساب، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه عبد الرحمن اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط٢، ١٩٦٢، ج٥ ص٤٥٠ وسيشار اليه فيما بعد السمعاني، الأنساب.

(٣) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠.

(٤) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ص٦٢.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٦) محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكي، حولية كلية الاداب، جامعة الكويت، ١٩٨٥، ص٢٧، وسيشار اليه فيما بعد صالحية: من وثائق الحرم القدسي.

أما لباس النساء فانه يتكون من الإزار (وهو قماش غير مطرز تلفه المرأة حول جسدها ويعطى الرداف والعوره، والبشت (العباءة الواسعة) والقباء وهو نوع من الرداء المحكم يصل في طوله الى منتصف عضله الساق مشقوق في مقدمته ومغلق عند الصدر، ولبست النساء ايضاً القميص، والملوطة (تشبة العباءة) والمناديل، والجبة، والجوخة (وترتدي في الشتاء) والشملة والطيلسان وهو ضرب من الثياب يوضع فوق الكتف[1] أو الرأس ويتدلى على الجبين والعصابة، والشعرية، والقناع، والنقاب، والطواخي.

أما ملابسهم الداخلية فأهمها القمصان الطويلة والتبان وقد ذكر السمعاني بأن التبان اسم السراويل لاساق لها[2] كما ارتدت الجلباب وهو ثوب تغطي به المرأة صدرها وظهرها وتلتحف به المرأة من الرأس الى القدمين حين تريد الخروج[3] وقد اعجب ابن العربي بالنساء في نابلس فقال "ولقد دخلت نيفاً على الف قرية فما رأيت نساءً أصون عيالاً ولا اعف نساءً من نساء نابلس... فأني اقمت فيها اشهراً فما رأيت امرأة في طريق نهاراً الا يوم الجمعة فأنهن يخرجن حتى يمتلئ المسجد منهن فاذا قضيت الصلاة وانقلبن الى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهم الى الجمعة الاخرى، وسائر القرى ترى نساءها متبرجات بزينة وعطلة متفرقات من كل فتن وعضلة[4] اما اللباس المشترك بين النساء والرجال فهو لبس المناطق وهو نوع من الاحزمة يوضع على وسط الانسان بالنسبة للمسلمين أما أهل الذمة فقد منعوا من لبس المناطق واستعيض عنها بلبس الزنانير[5] على اوساطهم وذلك ليسهل التميز بينهم وبين المسلمين، وغدا لبس الزنانير من ازياء اهل الذمة[6] التي تابع المماليك فرضها عليهم كذلك كانوا ملزمين بلبس الوان

---

(1) صالحية: من وثائق الحرم المقدسي، ص٢٠-٢٥.

(2) السمعاني: الانساب، ج٣، ص١٣.

(3) احمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ص٢١٥-٢١٦.

(4) احسان عباس: رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل، مجلة ابحاث الجامعة الامريكية ج٢،٣،٤، بيروت، ١٩٦٨، ص٦٦.

(5) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ج١١، ص٣٦.

(6) النويري: نهاية الارب، ج٣١،ص٤١٨؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣،ص٣٧٨. برتراندون رحلة براتراندون ص٣٢٣.

محددة لسهولة التفريق بينهم وبين المسلمين فالزم النصارى بلبس الالبسة باللون الازرق واليهود الاصفر والسامرة الاحمر(١).

أما البدو فارتدوا القمصان الطويلة ولبسوا فوق هذه القمصان العباءات الواسعة جداً وغطوا رؤوسهم بقطعة قماش(٢) وهي اشبة ما تكون بالعمائم، وقد اختلفت طبيعة الملابس وانواعها باختلاف الوضع الطبقي للناس: فكان لكل طبقة ملابس تميز وضعها، بحيث لم يكن من حق اي فرد من خارج الطبقة ان يتزيا بها، وقد امتازت ملابس الطبقة العليا بالزخارف وارتفاع اثمانها فيما خلت ملابس العامة من الزخارف وكانت رخيصة الاثمان(٣).

وسائل التسلية في المجتمع النابلسي

الغناء:– اعتاد القوم في الولاية على الاهتمام بالغناء والموسيقي، فكانوا يعقدون لذلك مجالس الانس والطرب في بيوت الاعيان وكبار الموظفين والمترفين من التجار وقد تحدث النابلسي اثناء زيارته لنابلس عن مجلس من مجالس الأنس التي حضرها واستقدم في هذا المجلس مغنٍ حسن الصوت وقدّم الأغاني للحاضرين(٤) وقد أشارت المصادر إلى وجود ما يعرف بالمغاني في ولاية نابلس(٥) إذ اعتاد الناس ان يستقدموا في حفلاتهم من زواج وختان المغنيات مقابل مبلغ من المال، وقد تطور الأمر في الدولة المملوكية إلى أن أصبح هناك ضريبة تُفرَض عليهم وتعرضوا إلى المصادرات من العساكر في بعض الأوقات(٦) وقد استمر العمل بهذه الضريبة

---

(١) ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨-٣٩.

(٢) بوشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٤؛ جوانفيل: مذكرات، ص١٢٥.

(٣) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٦٠.

(٤) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١١.

(٥) البنداري: سنا البرق الشامي، ٢٤١-٢٤٢.

(٦) نفس المرجع والصفحة.

الى ان أُلغيت من قبل الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م) لكونها أدت الى ارتكاب الفواحش[١].

كذلك عُرِف في المجتمع من بين وسائل التسلية الخروج لاصطياد الحيوانات البرية من غزلان وطيور وغيرها، وقد أولع العرب رياضة الصيد وعدّوها من تراثهم الأصيل الذي تمسكوا به؛ لكونهم يقضون فيه أوقات فراغهم بعد طول الإنهاك والعمل، كما وجدت المباريات الرياضية من سباق الخيل ولعبة الكرة (البولو) وخاصة من جانب أُمراء المماليك[٢]. كما مارسو لعبة النرد، وقد وجدت ايضاً العاب للأطفال ومنها القرق، الأرجوحه، الرجّاحه، الزحلوقه، الضبطه والمشية، والأنبوثه، والأربعة عشر، وجبا جعل (القلب على الظهر).

الأعياد والإحتفالات في المجتمع النابلسي:

الأعياد الإسلامية: احتفل المسلمون في هذا المجتمع وهم الأغلبية بعيد الفطر وعيد الأضحى اللذان جاءت بهما الشريعة الإسلامية وذلك بدءاً من السنة الثانية للهجرة[٣] وقد ابتدعت فيما بعد اعياد ومواسم دينية كثيرة منها عيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوي وعاشوراء والعاشر من المحرم والإحتفالات بغرة رجب وشعبان ورمضان ومواسم مثل موسم النبي موسى وغير ذلك من المناسبات الدينية.

أما بالنسبة إلى النصارى فقد مارسوا شعائرهم الدينية وكان لهم أربعة عشر عيداً، كان منها: عيد البشارة والزيتون والفصح وخمسين الاربعين وعيد الميلاد عيد الغطاس[٤] اما طائفة

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣، ص٢٢-٣٤.

(٢) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٤٦، ص١٤٩.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٢، ص٤٤٤.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع الاسلامي في عصر الحروب الصليبية، المؤتمر الدولي الاول لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٤، عمان، ١٩٨٠، ص٢٠١-٢٠٥.

السامرة فيحتفلون باعيادهم الدينية في مدينة نابلس، ففي عيد الفصح يصعدون الى جبل جرزيم ويقيمون الشعائر الدينية الخاصة بالعيد على قمة الجبل، وينحرون الأضاحي في وقفة عيد الفصح على مذبح خاص بجرزيم(١).

أما الإحتفالات الرسمية فقد تمثل في المواكب الرسمية التي تقام بمناسبة زيارة أمير كبير، أو الإحتفال بتنصيب أمير او كاشف الولاية الجديد او تولى قاضي القضاة وغير ذلك من المناسبات الرسمية، حيث تخرج هذه المواكب بزينات كبيرة، ويخرج الناس للتمتع بمشاهدتها وما جرى في سائر ولايات الدولة المملوكية جرى في ولاية نابلس من مظاهر احتفالية بمثل هذه المناسبات.

أثر الكوارث الطبيعية والاحداث السياسية على سكان نابلس.

تعرضت ولاية نابلس كغيرها من مدن الشام للكثير من الكوارث الطبيعية والاحداث السياسية التي اثرت تأثيراً بالغاً على السكان، فقد شهدت مدينة نابلس وفي عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م زلزالاً مدمراً اسقط نصف بنيان نابلس وخسف قرية الباذان بأهلها وبقرها وغنمها، وساخت في الارض، وكذلك قرى كثيرة هنالك(٢) وفي عام ٥٧٩هـ/١٠٨٣م زلزلت نابلس زلزلة عظيمة، واخربت محال كثيرة وهدمتها بحيث لم يبق فيها سوى حارة السامرة ومات بها وبقراها ثلاثون الفاً تحت الردم(٣) وفي عام ٥٨٩هـ/١٠٩٣م وقع في نابلس برد زنة كل حبة منها مائة وخمسين درهم(٤) وفي عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م عادت زلزلة عظيمة وهدمت ما كان قد تبقى من نابلس(٥) وفي عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م شهدت البلاد الشامية غلاء عظيماً في

---

(١) التطيلي: رحلة بنيامين، ص٩٦.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تح عبد الرحمن الفريواني، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ١٤٠٤هـ ص٨٧، وسيشار اليه فيما بعد السيوطي كشف الصلصلة.

(٣) ابن كثير: البداية، ج١٣، ص٣١، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٤ وابو شامة: تراجم رجال القرنين، ص٢٠، ابن ايبك: كنز الدرر ج٧ ص١٤٩-١٥٠.

(٤) المصدر نفسه ج٧، ص١٢٢.

(٥) المصدر نفسه ج٧، ص١٥٣، السيوطي: كشف الصلصلة، ص١١٤.

جميع الأشياء بحيث بلغ رطل الخبز درهمين(١) و لم تكن نابلس بمعزل عن هذا الغلاء اما في عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م فقد تأخر المطر عن دمشق وبلاد حوران ونابلس والقدس وغالب بلاد الشام، بحيث ان فصل الشتاء دخل في ليلة الخميس ١٦ صفر ٦٩٥هـ الموافقة ١٦ كانون اول ١٢٩٥م والناس في ضيق عظيم وألم كثير وتزايدت الأسعار الى الغاية، ولا سيما في حوران والقدس ونابلس وصار بتلك البلاد شدة عظيمة بسبب ذلك، وجف الماء ببلاد الشام(٢) اما في عام ٧١٨هـ/١٣١٨م فقد اصيبت البلاد بقحط مفرط اكلت معه الميتة وبيعت الاولاد، ومات بعض الناس من الجوع وجرى ما لا يعبر عنه، وفي عام الطاعون ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ابتدء الوباء بمدينة حلب ثم امتد الى البلاد الشامية وافنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي(٣) واستمر هذا الوباء الى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وهو ما عرف باسم الطاعون الذي اباد اهل الغور وعكا وصفد والقدس ونابلس(٤). وفي عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وفي أعقاب غزو تيمورلنك وعودته الى بلاده وقع الغلاء في نابلس والشام وحلب والرملة والقدس وبيعت غرارة القمح بثلاثمائة درهم ونقل من مصر الى بلاد الشام قمح كثير(٥) لمواجهة هذه الضائقة.

وفي عام ٨١٣هـ/١٤١٠م عاد الطاعون وانتشر بدمشق وكان في أول هذا العام وباء ببلاد فلسطين وحوران وعجلون ونابلس وطرابلس فمات خلق كثير جداً(٦) وفي عام ٨١٩هـ/١٤١٦م اشتد الغلاء بنابلس(٧) وفي عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م غلت الاسعار في بلاد غزة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٨، ص٦٥، ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك ص٧٢و ص٤١٤.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨ ص٢١١. الجزري: شمس الدين محمد بن ابراهيم: حوادث الزمان (حوادث الفترة ما بين سنتي (٦٩٤-٦٩٦ هـ)، تح نعمان جبران، فرايبورغ ١٩٨٧، ص ٢٩-٣٠، وسيشار اليه فيما بعد الجزري: حوادث الزمان.

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢ ق٢ ص٧٧٤. ابن حبيب: درة الاسلاك ج٨ مخطوط لوحة رقم ٢٢٧.

(٥) ابن قاضي، شهبة تقي الدين ابي بكر بن احمد: تاريخ ابن قاضي شهبة، تح عدنان درويش دمشق ١٩٧٧ ج٣ ص٢٣٨ وسيشار اليه فيما بعد ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبه.

(٦) المقريزي: السلوك ج٤: ق٢ ص١٦٥.

(٧) نفس المصدر والجزء والقسم، ص٣٥٠.

والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماه حتى تجاوز سعر الاردب المصري عندهم الف درهم فلوساً(١).

نخلص من خلال الشواهد السابقة ان المنطقة قد اصيبت بسلسلة كبيرة وشبه متواصلة من الكوارث كالاوبئة والزلازل التي دمرتها تدميراً كاملاً، مما اثر تأثيراً بالغ السوء في النمو الديمغرافي للمنطقة ولا يقف الامر عند حد تدني الكثافة السكانية فقط بل يتعداه الى نتائج اخرى اكثر خطورة فقد تأثرت انظمة الملكية بفعل موت اصحاب الاقطاعات، وبالتالي تملكها من قبل فئات جديدة ربما لم يكن يسمح لها بالتملك لولا هذه الكوارث. كما عانى الريف من نقص خطير في اعداد الفلاحين، ولعل ذلك يفسر لنا وجود الاعداد الكبيرة من الخرائب في البلاد لدرجة منع معه الفلاحون من حرية التنقل الا بعد مرور ثلاث سنوات، وان ترك الفلاح ارضاً اعيد اليها بالقوة، كذلك تأثرت الثروة النباتية بحيث فقدت البساتين والكروم اصحابها، مما ادى الى جفافها كما اثرت تلك الكوارث على الحيوانات.

فاذا اضفنا الى ذلك اسراب الجراد التي كانت تهاجم المنطقة وبأعدادها الهائلة بين فترة واخرى ادركنا لماذا كان يقع الغلاء ويهجر الفلاحون قراهم مما يعني الاستمرار في خراب المنطقة وتراكم هذا الخراب(٢) هذا عدا عن سياسة المماليك التعسفية التي كانت تضاف الى تلك المآسي كل ذلك يجعلنا نشعر بمدى ثقل الحياة التي عاشها الناس في هذه الحقبة.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٧١١.

(٢) يوسف غوانمة: الطاعون والجفاف واثرها على البيئة في بلاد الشام في العصر المملوكي مجلة دراسات تاريخية ع ١٣-١٤ دمشق، ١٩٨٣ ص٥٣-٥٤.

الفصل الرابع

الحياة الإقتصادية في نابلس

أنظمة ملكية الأرض

تشير المعلومات الـواردة في المصـادر عـن أنمـاط ملكيـة الأرض في الدولـة المملوكيـة انهـا كانت على ثلاث أنواع: الإقطاع، والأملاك، والوقف.

الإقطاع:

وقد مثل في العصر المملوكي قاعدة لنظام سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وهـذا النظـام تمتد جذوره الى أيام السلاجقة، ثم من جاء بعدهم من الزنكيين والايوبيين. والقاعدة الرئيسة في هذا النظام ان يقطع السلطان أحد أفراد أسرته وكبـار رجـال دولتـه منطقـة مـن بـلاده، يسـتقل بشؤونها وعليه تهئية الجند، ودفع عطاءاتهم، ويرجع الى السلطان مباشرة، في كل أمر من أمـور اقطاعة، ويقوم هذا الإقطاعي بدوره باقطاع الإقطاعات لكبار رجالاته، وقاده جنده، ويرجعـون اليه مباشرة ويعملون على تأمين الجيش وعطاءاته[1] ولم تكن هذه الإقطاعـات تعـني حـق ملكيـة الأرض، وانما تعني حق الإنتاج والوارد من الضرائب[2] وعـرف هـذا النـوع مـن الاقطـاع باسـم اقطاع ارفاق بمعنى انتفاع وعندما كانت تجري عمليات تمليك لهذه الإقطاعات، يلجأ السـلاطين الى مقاومتها بعمليات الروك او مسح الأرض وإعادة توزيعها بين فـترة واخـرى لتـأكيد سـلطان المركز، بل وذهبوا في مطلع القرن الرابع عشر (٧١٣- ٧١٥ هـ/١٣١٣-١٣١٥م) إلى أبعد من ذلك، حين وزعوا هذه الإقطاعات في امـاكن متفرقـة لا في محـل واحـد لتـأكيد صفـة هـذه الإقطاعات، بانها اقطاعات خدمة لا اقطاعات تمليك[3] ولدينا اشارات تاريخية نحاول من خلالهـا القاء نظرة على معالم الإقطاعات في نابلس في العصرين الأيوبي والمملوكي، فبعـد تحريـر نـابلس

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤، ص٥١-٥٢.

(٢) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٥، بيروت ١٩٨٧ ص١٠٣ وسيشار اليه فيما بعد الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي.

(٣) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٤٠. بولياك، ١.ن: الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم منشورات دار الكشوف، ط١، بيروت، ١٩٤٨، ص٦٢-٦٣ وسيشار اليه فيما بعد: بولياك: الاقطاعية.

(٥٨٣هـ/١١٨٧م) من يد الفرنج، اقطع السلطان صلاح الدين نابلس لإبن اخته حسام الدين لاجين لتكون اقطاعاً له بما في ذلك اعمالها وضياعها ومعاقلها[1] ، وبعد وفاته انتقلت الى الأمير سيف الدين علي احمد المشطوب، وبقيت اقطاعاً له الى أن توفي، حيث قام بعد ذلك السلطان صلاح الدين باقطاع ثلثي المدينة للأمير عماد الدين احمد بن سيف الدين علي المشطوب، وأميرين معه[2] ثم اقطعت فيما بعد لفارس الدين ميمون القصري[3] وبصورة عامة بقيت نابلس طيلة عهد الايوبين وبداية عهد المماليك مقسومة في العادة بين أميرين[4].

اما في العصر المملوكي: فالاشارات متعددة ومتنوعة وتعطي تصوراً واضحاً لوضع الإقطاعات في نابلس في هذه الحقبة فبعد معركة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) واستعادة المناطق الاسلامية من التتر وقع خلاف بين الامراء المماليك حول اقتسام الإقطاعات في بلاد الشام بصورة عامة فحكموا السلطان قطز لحسم هذا الاختلاف حيث اعاد السلطان توزيع الإقطاعات عليهم فكانت نابلس من نصيب الأمير شمس الدين اقوش البرلي[5].

أما في عام (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) فقد قام الظاهر بيبرس بمنح نابلس كاقطاع للأمير سيف الدين سلار[6] وفي الفترة ما بين عام (٦٦٠-٦٦٤هـ/١٢٦١-١٢٦٥ م). لم تشر المصادر الى من اقطعت مدينة نابلس من الامراء ولكن تحدثت المصادر في هذه الفترة عن قيام الظاهر بيبرس باقطاع مناطق من ريف نابلس لامرائه مثل ما حدث سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) وذلك بعد معركة ارسوف حيث قام السلطان باقطاع قرية بورين من قرى نابلس مناصفة بين الأميرين

---

(١) ابو شامة: الروضتين، ج٢، ص٨٨.

(٢) العمري: مسالك الابصار في ممالك الامصار، مخطوطة ايا صوفيا رقم ٤٣٩ لوحة ١٠٩ نسخة مصورة عن المخطوطة لدى الباحثة.
ابو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي: عيون الروضتين في أخبار الدولتين،تح، أحمد بيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١،ج٢، ص٢٨٠. وسيشار اليه فيما بعد، أبو شامة: عيون الروضتين.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦،ص١٣٧.

(٤) بولياك: الاقطاعية ،ص٦٤.

(٥) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠ مخطوط لوحة ٨٧؛ النويري:نهاية الارب ج٣، ص٤٤، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٤.

(٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٢،المقريزي: السلوك ج١ ق٢ ص٤٦٨.

جمال الدين أقوش المحمدي، وفخر الدين الطنبا الحمصي(1) وقد جعل السلطان تلـك الإقطاعـات إقطاعات تمليك تدوم الى اخر الدهر(2).

ثانياً: الأملاك

قليلة هي الاشارات التي تورده‍ا المصادر عن هذا النمط من انماط الملكية في ولاية نابلس، ومع ذلك تحاول الباحثه التقصي عن وجوده ففي رسالة بعث بها المعظم عيسى اثناء محاصرة الفرنج لدمياط يحث فيها ابن الجوزي على تحريض الناس على الجهاد ضد الكفار، ما نصه " وإني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفي قرية، منها الف وستمائة املاك لاهلها واربعمائة سلطانية"(3).

ففي هذا النص ما يجعلنا نستنتج وجود الملكية الخاصة في العصر الايوبي. ولما كان العصر المملوكي امتداداً للعصر الايوبي فأننا نعتقد بأن نمط الملكية الخاصة قد استمر وجوده في نابلس، ونذلل على ذلك بقيام اصحاب الأملاك بالتصرف في املاكهم والقيام بايقافها على انفسهم وعلى مصالح المسلمين بعامة: منها على سبيل المثال لا الحصر الاراضي التي تعود ملكيتها الى بدر الدين حسن وزين الدين بن حسن وزين الدين بن عبد الوهاب اولاد ابن خرم الذي اوقف هذه الأملاك على نفسه ثم من بعده على اولاده واولاد اولاده، وبعد الانقراض على الحرم النبوي ويرجع تاريخ هذه الوقفية الى عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م). ومن ضمن ما تحويه أراضي ودكاكين وبيوت متفرقة في نابلس(4) كذلك املاك تقي الدين ابو بكر المعروف بسنوي العسقلاني الذي اوقف املاكه سنة (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) على مصالح المسلمين، منها بيت

---

(1) مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٣٩-١٤٠.

(2) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠ لوحة ١٠٣: ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٤.

(3) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٩.

(4) محمد ابشرلي وآخرون: اوقاف واملاك المسلمين، ص٨٧.

وارض مع غراس زيتون وارض تحوي غراس تين وعنب(1) ، وغير ذلك من الأملاك الموقوفة على مصالح المسلمين والتي تبين وجود نمط الملكية الخاصة في نابلس في العصر المملوكي.

ثالثاً: الاوقاف

الاوقاف في الاسلام على نوعين: الاول الوقف الخيري وهو الممتلكات التي تحبس للانفاق من ريعها على المشاريع الخيرية، وتعود بالنفع على المجتمع الاسلامي بعامة، والثاني الوقف الذري وهو المنشآت والأراضي التي أوقفها أصحابها على أنفسهم ما داموا أحياء، ثم على ذراريهم من بعدهم، ولجأ الى هذا النوع من الوقف لحماية الأملاك الخاصة من المصادرات ومن الشواهد التاريخية في نابلس على الاوقاف الخيرية: وقف قرية ديراستيا من عمل نابلس على سماط سيدنا الخليل، وقد شرط ان لا يصرف ريعها الا الى السماط الكريم فقط، وكتب نص الوقف على عتبه باب مسجد سيدنا الخليل عليه السلام، وهو الباب الشرقي من الابواب الثلاثة التي بداخل السور، وهو خلف مقام السيدة سارة من جهة الشرق(2). ثم وقف الملك الاشرف سلطان اينال على الجامع والزاوية المعروفتين بالواقف وتاريخ هذه الوقفية (٨٨١هـ/١٤٧٦م)، وقد شملت الوقفية قرى الجيوس تابع بني صعب نابلس، وقرية جير تابع بني صعب، وقرية كفر لاقف تابع بني صعب(3).

وكذلك اوقاف تقي الدين ابو بكر المعروف بابن العسقلاني تاريخ (٨٠٧هـ/١٤٠٤م)(4). ووقف المعلم يوسف بن يعيش السامري النابلسي تاريخ (٩١٩هـ/١٥١٣م)(5) اما الشواهد على الاوقاف الذرية فمنها اوقاف بدر الدين حسن وزين الدين بن حسن بن عبد الوهاب، اولاد ابن خرم على نفسه ثم من بعده على اولاده واولاد

---

(1) المرجع نفسه، ص٨٨.

(2) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢،ص٩٤. أنظر نص الوقفية في الملحق رقم ٢.

(3) محمد ابشرلي: اوقاف واملاك المسلمين في فلسطين،ص٩١.

(4) محمد ابشرلي: اوقاف واملاك المسلمين في فلسطين،ص٨٦.

(5) نفس المرجع، ص٩٢.

اولاده، وبعد الانقراض على الحرم النبوي عليه السلام تاريخ (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)[١]. ووقف زين الدين بن عبد الوهاب خليل من بني قسيم على نفسه، ثم من بعدة على اولاده وذريته، وبعد الانقراض على مصالح الحرم النبوي الشريف تاريخ (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)[٢]، كذلك اوقاف جمال الدين يوسف بن محمد الياسين على اولاده وذريته وعقبه، وبعد الانقراض على فقراء الحرمين الشريفين، والنظر في هذه الاوقاف لاولاده وذريته تاريخ (٩١٦هـ/١٥١٠م)[٣]. وكذلك اوقاف شهاب الدين اليغموري على قراءة القرآن الكريم، وما فضل على اولاده واولاد اولاده وذريته، وبعد الانقراض على الفقراء تاريخ (٨٨٦هـ/١٤٨١م)[٤]. وكذلك وقف شرف الدين بن يونس على نفسه وعلى ولدي ابو السعادات وسعد الملوك، الان في يد القاضي محمد بن جلال الدين من اولاد الواقف وعلى اولادهما الذكور دون الاناث[٥].

الإنتاج الزراعي في نابلس

تعد منطقة نابلس من ضمن المناطق الزراعية المشهود لها بالخصب ووفرة الغلال وتنوعها. وقد توافر لها المقومات الاساسية التي تضمن نجاح الزراعة، وفي طليعتها خصب اراضي نابلس وقراها اذ وصفها شيخ الربوة بانها مدينة خصبة نزهة، كأنها قصر في بستان[٦] هذا اضافة الى كونها ذات مناخ ممتاز[٧] يساعد في إنجاح الزراعة، فضلاً عن كثرة مصادر المياه الموجودة بها والتي ضمنت لها تميزاً وتفوقاً في هذا المجال عن باقي المناطق الفلسطينية فهي كثيرة الاعين[٨]

---

(١) نفس المرجع، ص٨٧.

(٢) نفس المرجع، ص٨٥.

(٣) نفس المرجع، ص٩٢.

(٤) نفس المرجع، ص٩٢.

(٥) نفس المرجع، ص٨٩.

(٦) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠.

(٧) Evliya Tshelebis, Travels in Palestine P. 139.

(٨) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢،ص٧٥. النابلسي: الحضرة الانسية،ص٧٤.

مطردة الانهار[1] وفيها المياه الجارية[2] اضافة الى توفر الأيدي العاملة، ومهارة الفلاح النابلسي ونشاطه[3].

وقد اشتهرت نابلس بزراعات عديدة ومتنوعة كزراعة الحبوب من قمح وشعير، وهو من المحاصيل الرئيسة، والذي زرع منذ اقدم العصور في جميع اراضي بلاد الشام بما فيها نابلس؛ وذلك بسبب الخصوبة العالية للأرض حيث يذكر بورشارد بأن هذه الاراضي غنية بالقمح الذي تتم زراعته وحراثته دون ادنى جهد[4] وقد تحدث الرحالة الروسي دانيال عن حقول نابلس الغنية، والتي تنتج القمح الجيد[5] ولدينا وثيقة تعود الى العصر الصليبي تثبت ان نابلس كانت تقدم الف مكيال من القمح سنوياً الى كنيسة القيامة[6] وقد انتشرت زراعة هذا المحصول في معظم قرى نابلس، باعتباره المادة التموينية الاساسية للناس. اما الشعير فقد استخدم كعلف للحيوانات، بالاضافة الى انه وجد هناك من يعتمد عليه كغذاء لا يقل في اهميته عن القمح[7] وتعد قرية برقة من قرى نابلس من اكثر المناطق انتاجاً له[8].

كذلك اشتهرت نابلس بزراعة الزيتون، وقد غطت هذه الأشجار جبال المدينة وقراها، والى هذا اشار المقدسي بقوله:"نابلس في الجبال كثيرة الزيتون[9] اما شيخ الربوة فقد ذكر بان الله تبارك وتعالى خصها بالشجرة المباركة وهي الزيتون[10] واشار الحنبلي الى الزيتون في قرى

---

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة،ص٥٦.

(٢) الاصطخري: مسالك الممالك،ص٥٦.

(٣) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنجة ص٩٥.

(٤) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٦٧.

(٥) دانيال الراهب: رحلة دانيال،ص١٠٩.

(٦) Genevieve, B.B., Acte No 30 P.P 92-93.

(٧) Hutteroth, Historical Geography. P.P. 68-69.

(٨) بيشاوي: نابلس، ص٢١٤.

(٩) المقدسي: احسن التقاسيم، ص١٧٤.

(١٠) شيخ الربوة: نخبة الدهر ، ص٢٠٠.

نابلس بقوله:"ومعظم الاشجار بضواحيها الزيتون(١) ومن اشهر القرى التي زرعت الزيتون قرية عسكر التي تعرف بعسكر الزيتون(٢) لكثرة الزيتون فيها.

ومنطقة وادي الزيتون بالقرب من نابلس(٣)، حيث سميت المنطقة بهذا الاسم لكثرة ما فيها من اشجار الزيتون ولا يقف الامر عند هذا الحد بل ان الرحالة الروسي ذكر بأنه يكثر في اراضي نابلس اشجار الزيتون التي تحيط بها مثل الغابات الكثيفة(٤) اما بنيامين التطيلي فيشير في حديثه عن منطقة سبسطية من مناطق نابلس بانها تشتهر بغياض الزيتون(٥) وعلى العموم فمعظم اراضي نابلس تشتهر بزراعته وتعتمد في معيشتها بقدر كبير عليه(٦) وبناءاً على المعلومات التي لدينا نستيطيع ان نميز بين صنفين من الزيتون في نابلس الاول الزيتون الرومي الكبير، والثاني الزيتون الاسلامي الصغير والحديث الزراعة(٧).

كذلك اشتهرت نابلس بزراعة الاشجار المثمرة كاشجار الرمان التي زرعت بكثرة في قرى ياسوف وبرقة(٨) واشجار الكرمة (العنب)، وهي من الزراعات التي جادت بها نابلس وقراها لكون التربة والمناخ يلائمان زراعتها فانتجت منها الكثير(٩) وقد صرّف جزء كبير من

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢،ص٧٥، النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٢.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤،ص١٢٣، ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، أعاد نشره بالأوفست مكتبة المثنى، بغداد. د.ت ص٣٠٩ وسيشار اليه فيما بعد ياقوت: المشترك وضعاً.

(٣) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٦.

(٤) دانيال: رحلة دانيال،ص١٠٩.

(٥) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، ص٩٦.

(٦) Benvenisti, M, The Crusaders in the Holyland, P.161.

(٧) الارشيف العثماني: ارشيف مجلس الوزراء العثماني، استنبول، دفتر مفصل لواء نابلس رقم ٢٥٨ أ.س لوحة ٣ ويوجد منه نسخة مصورة على شريط ميكروفلم في مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية شريط رقم ٢٥٨، وسيشار اليه فيما بعد دفتر مفصل لواء نابلس ٢٥٨.

(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٢٥. بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧١.

(٩) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧؛دانيال الراهب: رحلة دانيال،ص١٠٩. بنيامين: رحلة بنيامين،ص٩٦.

هذا المحصول في اسواق القدس، حيث كان يقوم السكان ببيعة هناك[١] كذلك اشتهرت نابلس وقراها بزراعة اشجار التين[٢] والبندق والخروب[٣] والليمون والبرتقال، اما في منطقة الغور النابلسي فقد زرعت اشجار النخيل والموز ونبات النيلة، نظراً لما تحتاجة هذه المزروعات من مياه وحرارة[٤] كذلك زرع في اراضي نابلس محاصيل القطاني، من عدس وفول وكرسنه وحمص وذره وسمسم[٥]. وكذلك الخضروات بجميع انواعها كالخيار والباذنجان والقرع[٦] كذلك اشتهرت نابلس بزراعة البطيخ، وامتازت بانتاج نوع ذائع الشهرة هو البطيخ الاصفر، الذي وصف بانه زائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض[٧] ولامتيازها بانتاجه وجودته نسب اليها وهو طيب عجيب[٨].

كذلك اشتهرت منطقة نابلس بزراعة نبات الكتان، وهو من الانواع الجيدة، والتي حققت لنابلس شهرة عالمية في العصور الوسطى، وقد عد كتانها من بين الكتان الاكثر طلباً عليه في اسواق الشام، وكان يعادل الكتان المصري،[٩] وكان يباع قسم كبير منه في اسواق القدس[١٠] وغيرها من الاماكن.

---

(١) Richard, J, the Latin Kingdom of Jerusalem P.73.

(٢) دانيال الراهب: رحلة دانيال، ص١٠٩. بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧١.

(٣) نفس المصدر، ص١٠٩. Evliya Tshelebis, oP. cit., P.140.

(٤) Evliya Tshelebis, oP. cit., P.140. ؛ بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٦٩ ويتحدث بورشارد في رحلته عن ثمار الموز فيعطي اوصاف لها ولمذاقها الطيب وطريقة زراعتها.

(٥) دانيال الراهب: رحلة دانيال، ص١٠٩.

(٦) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧١.

(٧) شيخ الربوة: نخبة الدهر ، ص٢٠١.

(٨) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٥٦.

(٩) Conder, the latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897 P.240. Rey, E. Les Colonies Franques, en Syrie aux XII et XIII siecles, Paris, 1883,P.240.

(١٠) Richard, the latin kingdom of Jerusalem, P73.

اما قصب السكر فهو من المزروعات التي انتجت في نابلس بكثرة ويرجع السبب في ذلك الى توافر مقومات انتاجه من مناخ ملائم وتربة خصبة ووفرة المياة بكميات كبيرة وقد انشأ لهذه الغاية قنوات من المياه لري مزارع قصب السكر في ولاية نابلس(١) وامتازت منطقة الغور عن باقي المناطق بزراعته(٢)، اضافة الى المناطق المجاورة للمدينة وكانت تتم زراعة الاغصان الصغيرة في فصل الربيع في الاماكن، الرطبة، وعندما تنمو يتم تقطيعها، وتؤخذ الى المعصرة للحصول على السكر(٣) وقد زودنا الرحالة الالماني بورشارد بمعلومات ممتازة في رحلته عن زراعة القصب وطرق استخراج السكر منه، وهو ما سنشير اليه عند الحديث عن النشاط الصناعي في الولاية.

اما الأعشاب الطبية والعطرية، فقد نمت في نابلس بكميات كبيرة واشتهر منها نبات الشومر والميرمية وغيرها(٤) كذلك غطت جبال نابلس الكثير من الاشجار الحرجية والغابات فيذكر بنيامين في وصف جبل جرزيم بانه جبل كثير الاشجار(٥) اما المقدسي فقد ذكر عن نابلس بانها مشجرة الجبال زريعة السهول من غير سقي(٦).

وقد استخدم الفلاح في نابلس الآلات الزراعية البسيطة منها المحراث، الذي كان عبارة عن عود خشبي مع نهاية معدنية تجره الثيران او البغال او الخيل، وكانوا يشقون به الأرض الى عمق خمسة انشات، كذلك استخدمت المجارف والمناجل اليدوية(٧) لحصد الغلال، والواح الدراس لفصل الحبوب عن المخلفات التي تسمى التبن، وغير ذلك من الادوات، والتي لا يزال

---

(١) Benvenisti, op. cit., P.253.

(٢) Beyer,G, Neapolis und sein Gbiet, P.189.

(٣) Richard, J, Agricaltural Condition in the Crusader states. setton, k. M. A history of the Crusades, Vol. 5, USA, 1985, P.259.

(٤) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٦٧-١٦٨.

(٥) بنيامين: رحلة بنيامين،ص٩٧.

(٦) المقدسي: احسن التقاسيم،ص١٧٣.

(٧) الاحمد: تاريخ فلسطين القديم، ص٢٦١.

معظمها مستخدماً الى يومنا هذا، وقد اتبع الفلاح النظام الزراعي القديم المعروف بنظام الحقلين بحيث تقسم الأرض الى قسمين، فيزرع القسم الاول بالمحاصيل الشتوية، كالحبوب وتزرع بعض اراضي القسم الثاني بالخضروات، ويترك للراحة وفي السنة الثانية تترك اراضي القسم الاول للراحة، ويزرع في القسم الثاني(١).

أما بخصوص الثروة الحيوانية في الولاية، فليس لدينا معلومات تفصيلية ودقيقة عن الحيوانات التي ربيت فيها، ولا عن اعدادها، وكل ما نستطيع قوله انها لم تختلف كثيراً عن ما ربي في باقي بلاد الشام، وقد عدد القلقشندي انواع الحيوانات في بلاد الشام فذكر منها الابل والبقر والخيل والبغال والحمير والدجاج والاوز والحمام والطيور المختلفة(٢) وفيما يتعلق بالابل والخيول، فلا بد انه وجد في نابلس اعداد كبيره من هذه الحيوانات لاستخدامها في التنقل والعمل فنابلس ذات موقع مهم على طرق التجارة، وشهدت حركة تجارية نشطة ويدلنا على ذلك حمل الزيت النابلسي الى الديار المصرية والشامية والحجازية(٣) وبالطبع استخدمت هذه الحيوانات في نقل هذه المنتجات، مما يجعلنا نستنتج ان هذه الحيوانات قد ربيت باعداد كبيرة في الولاية كذلك اشار بورشارد الى انواع الحيوانات المختلفة في فلسطين وذكر منها الجمال والسمان التي من الرائع رؤيتها، والعديد من الاسود والارانب البرية والغزلان واناث الظبي، واعداد غير محدودة من الجمال والجمال العربية وحيدة السنام، والمهر والجواميس وباختصار يوجد هناك كل الاشياء الجيدة في العالم والى جانب هذا اهتم السكان بتربية النحل مما يستدعي معه ان تكون المنطقة قد انتجت كميات لا باس بها من العسل(٤).

---

(١) النويري: نهاية الارب، ج٨،ص٢٥٦. Benvenisti, op. cit.,P. 217.

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤،ص٩١.

(٣) شيخ الربوة: نخبة الدهر،ص٢٠٠-٢٠١.

(٤) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧١.

النشاط الصناعي في نابلس

شهدت نابلس في العصر المملوكي نشاطاً صناعياً جيداً، ومن ضمن ذلك النشاط العديد من الصناعات والحرف اليدوية التي مارسها السكان، وساهمت الى حد ما في تنمية الاقتصاد النابلسي، وعادت بالفائدة عليهم، ومن بين تلك الحرف والصناعات التي مارسها سكان المدينة حرفة الخياطة(١) ، سواء كانت خياطة الملابس او الجلود او غير ذلك، كذلك وجدت حرفة تجليد الكتب، وحرفة طبخ السكر وصنعه المطاطون(٢) والكتابة بالأجرة(٣) وما سواها من الحرف البسيطة. واذا ما استعرضنا النشاط الصناعي في نابلس في العصر المملوكي، فاننا سنجد ان هذا النشاط كان يقوم على الانتاج النباتي والحيواني، ثم يلي ذلك الانتاج المعدني، ويأتي في طليعة النشاط الصناعي القائم على الانتاج النباتي.

صناعة السكر

ازدهرت صناعة عصر السكر وتكريره في بلاد الشام ومصر، ويتوفر لدينا معلومات جيدة عن هذه الصناعة، واعتبرت منطقة الاغوار المنطقة الاكثر اهمية في زراعة القصب(٤) وصناعته وقد كشفت الحفريات الاثرية في منطقة الاغوار عن وجود اثنين وثلاثين معصرة لقصب السكر، كانت تعمل باستخدام دواليب المياه، ويرجح ان تاريخ هذه المعاصر يعود للفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين(٥) ويدلنا هذا العدد الضخم من المعاصر علي قيمه واهميه هذه الصناعه وقد حازت نابلس نصيباً كبيراً من هذه الصناعه. واشار ياقوت الى قرى نابلس التي زرعت وانتجت القصب والسكر منها قراوة بني حسان التي زرع فيها

---

(١) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر، ج٥، ص١١٦. السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٠٧.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٨٠-٨١.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٨١.

(٤) Beyer,G, oP. cit., P.189.

(٥) احمد الحسن: التقانة في فلسطين في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد وقع ضمن كتاب الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، تحرير هادية دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، بيروت، ١٩٩٤، ص٥٣٣. وسيشار اليه فيما بعد أحمد الحسن: التقانة في فلسطين.

السكر الفائق[1] وقد تحدث بورشارد وفي رحلته عن كيفية صناعة السكر اذ اورد بانه يتم تجميع القصب وتقطيعة قطعاً طولية صغيرة، وبعد ذلك يتم عصر القطع بالمعصرة، وينزل العصير في وعاء نحاسي معد لذلك، ثم يتم غلي العصير على النار حتى يصل الى درجة التكاثف ويجمع في سلال مصنوعة من غضيات رفيعة، وبعد فترة يصبح السكر جافاً وقاسياً وبهذه الطريقة يصنع السكر، وقبل ان يجف يتم ترشيح المادة السائلة منه التي تدعى عسل السكر[2].

صناعة عصر الزيتون

بالنظر الى ضخامة انتاج نابلس من الزيتون، فقد نشطت صناعة عصر الزيت من الزيتون، واقيمت لهذه الغاية الكثير من المعاصر والتي كانت تدار اما بجهد الحيوان او بطاقة الماء، وهي معاصر قديمة قدم شجرة الزيتون نفسها. وتشير بعض الدراسات الى وجود بقايا معاصر الزيت التي استخدمت في الصناعات الزيتية والتي يرجع تاريخها الى العهد الفنيقي، مما يدلل على ان الشعوب التي سكنت بلاد الشام قبل الميلاد بقرون كانت تعمل في صناعة استخراج الزيت[3].

وقد حققت نابلس شهرة عالمية واسعة في مجال انتاج هذه السلعة، ويدلنا على ذلك ما اشارت اليه المصادر عن اهمية جبل نابلس في انتاج الزيت فشيخ الربوة يذكر بانها مختصه بشجرة الزيتون ويحمل زيتها الى الديار المصرية والشامية والحجازية والبراري (بر دمشق) وان قسماً من هذا الزيت كان يحمل الى جامع بني امية في كل سنة الف قنطار بالدمشقي[4] وتحدث ابن بطوطة عن زيت نابلس الذي يحمل الى مصر ودمشق[5] كذلك اشار ناصر خسرو في

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥،ص٣١٩.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٦٨. -Richard, J, Agricaltural Condition in the crusader P.259

(٣) الياس بطيحش: النباتات والصناعات الزيته في غوطة دمشق، مكتبة جامعة دمشق، ص٣٣. وسيشار اليه فيما بعد بطيحش:النباتات.

(٤) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠-٢٠١، والقنطار الدمشقي يعادل ١٨٥ كغم فالتر هنس: المكاييل والأوزان ص ٤٢.

(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة،ص٥٦.

رحلته، ان كثيراً من الوجهاء، كانت تصل غلته من زيت الزيتون الى خمسين الف رطل[1] وهم يحفظون هذا الزيت في الابار والاحواض، ويصدرونه الى الاقطار الاخرى[2].

كذلك اشار دانيال الى محصول الزيت في نابلس، كواحد من اهم منتجات نابلس[3] اما طريقة عصر الزيتون فكانت تتم بقيام الفلاحين بجمع ثمار الزيتون بالعصي، ثم يحمل هذا الثمر وينقل الى المعاصر حيث يدق الزيتون باليد او بالمدرس، وهو يتالف من حجر قائم على حرفه، ويدرو فوق فرشه أفقية ثابته، وفي الحجر الرأسي الذي يدور تحدب حول المحيط، وهو مخروطي قليلاً وقطر وجهه الخارجي اكبر من قطر وجهه الداخلي، والفرشة الافقية الثابتة عبارة عن بناء حجري اسطواني ترتفع من ٨٠-٩٠سم، مبنى من الخارج من حجاره تستدق الى الداخل، وفي الوسط حجر افقي (فرشه)، وفي وسط الفرشة عمود رأسي في اعلاه محور يتمركز ويدور عليه السابق اوالداير وهو خشبة طويلة افقية يمر احد طرفيها في الحجر الرأسي، ويشد الطرف الاخر بالدابة التي تدير الخشبة. وبعد عملية الدرس يعبأ الدريس في قفص، وتوضع فوق بعضها في المكبس بحيث يخرج الزيت اثناء الكبس[4] اما المتبقي بعد العصر فكان يطلق عليه الخشب، وهو ما كانت تتقاضاه المعاصر كاجور درس، حيث يباع هذا الجفت الى الافران لاستخدامه كوقود بعد ان يستخرج منه الزيت الذي يضع منه الصابون.

صناعة الصابون

وهي من الصناعات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصناعة عصر الزيت، اذ ان الناتج من عملية العصر وهو الجفت، يتم عصره بقوة مرة اخرى لاستخراج الزيت الذي يدخل في صناعة الصابون، وقد حقق الصابون النابلسي: بجودته وحسن انتاجه شهرة واسعة فيذكر شيخ الربوة

---

(١) رطل: في القدس كان الرطل في العصور الوسطى يساوي ٨٠٠ درهم= ٢,٥ كغم. فالتر هنس المكاييل والأوزان. ص٣٢.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامة، ص٥٣.

(٣) دانيال الراهب: رحلة دانيال، ص١٠٩.

(٤) احمد الحسن: التقانة في فلسطين، ص٥٤١.

كذلك برزت شهرة المدينة في ميدان صناعة الحلويات وفي مقدمتها الكنافة، واليها اشار السيوطي في احد مؤلفاته[1]. وتحدث ابن بطوطة في رحلته كذلك عن صناعة حلويات الخروب، والتي تصدر الى دمشق وغيرها ولخص طريقة صنعها بان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منها الحلواء ويجلب ذلك الرب الى مصر والشام[2].

كذلك عرفت مدينة نابلس صناعة الورق، وتحدثت مصادرنا عن هذه الصناعة في نابلس[3] والتي استمرت طيلة العصر المملوكي، وقد استخدم حلفا الاغوار في هذه الصناعة[4] كما صنع في نابلس البسط والحصر والحبال خاصة وان المدينة كانت ضمن المناطق التي زرع فيها الكتان كذلك نبت في اراضيها الغورية نبات الحلفا وقصب السكر، وهي نباتات يمكن للسكان الاستفادة منها في تصنيع الحصر، اما البسط فقد صنعت من اصواف الحيوانات التي تم تربيتها في الولاية[5].

كذلك صنعت نابلس النبيذ، وكان من بين السلع التي تحدث الرحالة الاجانب عن وجودها في فترة الحروب الفرنجية، خاصة وانه نابلس اشتهرت بزراعة الكروم من الصنف الجيد، لذلك انتجت انواعاً جيدة من النبيذ، وقد استمر انتاج هذه السلعة في العصر المملوكي، واستخدمت من قبل السكان النصارى كما استعملت من قبل بعض المسلمين سراً[6].

---

(١) السيوطي: منهل اللطائف في اكل الكنافه والقطائف،ص١

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٥٦.

(٣) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تح جبرائيل جبور، نشر محمد أمين، بيروت، ج٣، ص١٦، وسيشار اليه فيما بعد الغزي: الكواكب السائرة.

(٤) يوسف غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص٥٩.

(٥) يوسف غوانمة: القرية في جنوب بلاد الشام ضمن كتاب دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣، ص ٩١.

(٦) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٠، برتراندون دي لابروكير: رحلة برتراندون،ص٢٣١.

بان الصابون النابلسي كان يحمل الى سائر البلاد التي يحمل اليها الزيت النابلسي، اضافة الى جزر البحر الرومي(١).

وقد درت صناعة الصابون على المشتغلين بها اموالاً كثيرة وكان الصابون النابلسي يباع باسعار اعلى من سائر انواع الصابون الاخرى، وقد انشيء لهذه الغاية العديد من المصابن التي تنتجه.

وتتلخص طريقة صنعه في اخذ جزء من القلي ومن الجير نصف جزء فيحكم سحقهما ويجعلان في حوض، ويصب عليهما الماء قدرهما خمس مرات، ويحرك بقدر ساعتين ويكون للحوض خرق مسدود فاذا سكن من التحريك وصفا، فتح الخرق، فاذا نزل الماء سده ووضع عليهما الماء وحرك واستبدل هكذا حتى لم يبقى في الماء طعم هذا مع عزل كل ماء على حده، ثم يؤخذ من الزيت الخالص قدر الماء الاول عشر مرات، ويجعل على النار فاذا اشرب الماء الاخير شيئاً فشيئاً ثم الذي قبله حتى يكون سقيه بالماء الاول آخراً، فحينئذ يصير كالعجين، فيغرف ويوضع على الحصير، حتى اذا جف بعض الجفاف قطع(٢).

كذلك عرفت مدينة نابلس صناعة النسيج والحياكة، وقد حققت صناعة المنسوجات الكتانية النابلسية سمعة طيبة في عالم العصور الوسطى، اذ ضاهى كتانها الكتان المصري في جودته(٣).

(١) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠-٢٠١.

(٢) محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، تـح ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات، ط١، دمشق ١٩٨٨، ج٢ ص٢٦٩. وسيشار اليه فيما بعد. القاسمي: قاموس الصناعات الشامية.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣،ص٦٠٣. Conder, oP. cit., P.240

وقد صنع سكان الريف منتجات الحليب المختلفة من البان واجبان، وحملت هذه المنتجات الى اسواق نابلس، كذلك صنعوا الفحم والنيلة وغيرها من المنتجات[١] كما صنعوا السلال التي استخدمت لحمل الخضروات والخبز والفواكة، وكانت باحجام مختلفة[٢] اما صناعة طحن الغلال فهي من الصناعات التي وجدت منذ فترات مبكرة، واستمرت في العصر المملوكي، بل ولا يزال بعضها يعمل الى ايامنا هذه، وقد تحدثت مصادرنا عن مطاحن الغلال في نابلس ومن ذلك قول النابلسي: واقبلنا على تلك الطواحين المحفوفة بالمياة والبساتين[٣] بل ان الرحالة التركي اوليا جلبي اشار الى تفاخر الدوائر الحكومية العثمانية بطواحين المياة الموجودة في نابلس[٤] وقد وجدت معظم هذه الطواحين بالقرب من الاودية التي يسيل فيها الماء بشكل دائم[٥] وكانت دواليب الماء في مطاحن فلسطين من النوع الأفقي حيث يتألف الدولاب من عدد من الأجنحة أو الفراشات الموزعة على المحيط وهي تتصل بكتلة في مركز الدولاب، يمر داخلها محور رأسي ويدور الدولاب بقوة إنبعات الماء المسلط على الاجنحة، وهذا النوع من الدواليب الافقية يناسب كميات المياة القليلة المتحركة بسرعة كبيرة[٦] هذا عدا عن معاصر الزيتون والسكر التي توفرت في الولاية بشكل جيد.

هذا بشكل عام عن الصناعات التي وجدت في نابلس في العصر المملوكي، وكانت تعتمد على الانتاج النباتي والحيواني. اما الصناعات الاخرى من معدنية وغيرها فهي متنوعة مثل الصناعات الفخارية وقد اشتهرت بها كل من جبعّ وقباطية، والتي استخدمت في شؤون الحياة المختلفة ولا تزال هذه الصناعة تحظى بالرعاية والاهتمام من قبل السكان، كذلك عرفت المدينة صناعة الزجاج، وقد اعتمدت طائفة صغيرة من السمرة في معيشتها على هذه الصناعة[٧] كذلك

---

(١) غوانمة: القرية في جنوب الشام، ص٩١.

(٢) سامي الاحمد: تاريخ فلسطين القديم، ص٢٦٥.

(٣) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٤.

(٤) Evliya Tshelebis, oP. cit., P.140.

(٥) Hutteroth, oP. cit., P.33.

(٦) احمد الحسن: التقانة في فلسطين،ص٥٣٢.

(٧) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢،ص٤٧٤.

ازدهرت في نابلس الصناعات المرتبطة بعمليات البناء والتعمير، فوجد بها مقالع الحجاره التي تستخدم في البناء وتفخر مدينة نابلس بأن بيوتها مبنية من الحجر ولا تجد فيها بيتاً من الخشب[1] مما يعني تزايد الطلب على مادة الحجر، وبالتالي ازدهار هذه الصناعة.

النشاط التجاري في نابلس

تجمعت عدة عوامل ساهمت في جعل نابلس مركزاً تجارياً اقليمياً من الطراز الاول، فهي ذات موقع متوسط بالنسبة لفلسطين، ما جعلها محط القوافل التجارية القادمة من الشرق والمتجهة الى البحر في الغرب، او القادمة من الجنوب الى الشمال، وكانت القوافل التجارية مضطرة للمرور بمدينة نابلس لكونها تشغل الممر الضيق الذي يصل الغور بالبحر في تلك النواحي[2] وهي بهذا شكلت محطة تجارية مهمة على الطريق التجاري الذي كان يخرج من دمشق وينطلق جنوباً مع طريق الحج، ثم ينفصل عند نهر اليرموك باتجاه اربد- عجلون- نابلس- القدس- القاهرة والذي بقي مستمراً طيلة العصر المملوكي وتحول عن نابلس في مطلع العصر العثماني.

ولا تنحصر اهمية نابلس في كونها محطة تجارية مهمة، بل كانت منطقة بالغة الثراء بحيث انتجت كمية ضخمة من السلع الاستهلاكية الضرورية للحياة، وهذا الوضع التجاري المميز جعل ابن فضل ا الله يشير اليها بقوله "مدينة ممدنة يحتاج اليها ولا تحتاج الى غيرها"[3] وهو بذلك يعطينا فكرة واضحة عن الوضع الإقتصادي الممتاز للمدينة، كذلك توافر للمدينة اسواق مارس فيها التجار نشاطهم، وقد تركزت هذه الاسواق حول المسجد، وكانت ذات دهاليز وطريقاً عاماً، وعند مدخل الساحة كان هناك ميدان ومآذن تشبه البرج، ويعتبر سوق السلطان السوق الرئيسي للمدينة، وقد بني مع بوابات حجرية في كل طرف بحيث يغلق يومياً مع قدوم

(1) Evliya Tshelebis, oP. cit., P.138.

(2) عبدا لله عارف: مدينة نابلس، ص١٢.

(3) ابن فضل ا لله العمري: مسالك الابصار، ص١٨٧.

الليل وكان بطول ٢٠٠١ خطوة، وينكون من ٣٧٠ دكاناً على كل الجانب، وكلها كانت مرتبة وبالرغم من وجود سوق للقماش، الا انه كان يباع فيه تقريباً كل شيء وفي مركز السوق كان هناك مائة دكان على جانبي السوق ذات ممرات مسقوفه(١) وقد شهدت المدينة حركة تجارية داخلية نشطة فقد كانت نابلس عاصمة لاقليم يشتمل على ثلثمائة قرية(٢) وقد انتج هذا الاقليم كميات ضخمة من المحاصيل الزراعية المختلفة ومن الانتاج الحيواني، وقام سكان الارياف بتصريف هذا الناتج في اسواق المدينة، وحصلوا بالمقابل على احتياجاتهم من السلع من متاجر المدينة مما يعني حركة تجارية داخلية نشطة، فقد حملوا الى اسواق نابلس احمال البطيخ والدبس المصنع من العنب والتمور، والتين المجفف (القطين) والخيار والبصل الليمون والنارنج (البرتقال) والالبان والاجاص والتفاح والزيتون وما شابه ذلك(٣).

أما عن علاقات نابلس التجارية بمدن السلطنة المملوكية كالقدس ودمشق والقاهرة؛ فقد تميزت بنشاط دائب فنابلس انتجت السلع التي لا غنى عنها للمواطن من زيت وزيتون وقمح وصابون ومنسوجات وقد حملت هذه السلع الى المدن المختلفة، وتأتي مدينة القدس في مقدمة المدن التي تاجرت معها نابلس. ولعل قرب القدس من نابلس من العوامل التي دفعت بسكان القدس الى استيراد جميع ما يحتاجونه من طعام من المدينة(٤) اما زيت نابلس ذا الشهرة الواسعة في بلاد الشام فقد صدر الى الديار المصرية والشامية والحجازية والبراري، وقام العربان بدور الناقل لهذا الانتاج، وحمل الى جامع بني اميه منه كل سنة الف قنطار بالدمشقي(٥) كذلك حققت مادة السكر مرتبة متقدمة في جدول السلع النابلسية المصدرة الى مدن الشام، وجاءت صناعة الاقمشة الكتانية ذات الشهرة العالمية الواسعة في عالم العصور الوسطى في المرتبة الثانية بعد السكر(٦)، اما

(١) Evliya Tshelebis, oP. cit., P.139.

(٢) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك،ص٤٦.

(٣) دفتر مفصل لواء نابلس رقم ٢٥٨، ص٣.

(٤) دانيال الراهب: رحلة دانيال، ص١٠٩.

(٥) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠١.

(٦) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٠٣. Richard, the Latin kingdom, P.73.

الصابون النابلسي فقد حقق شهرة جعلته مطلوباً في معظم اسواق السلطنة، ويبيع باسعار اغلى من غيره من الصابون، وبيع في اسواق الشام ومصر والحجاز، بل وصدر الى بعض جزر البحر الرومي[1]، كذلك صدرت نابلس بعض اصناف الحلويات التي اشتهرت بصناعتها وقد ألمح ابن بطوطة الى حلواء الخروب التي تباع في الديار المصرية والشامية[2] ،كذلك صدرت نابلس كميات كبيرة من العنب وخاصة الى القدس[3].

الضرائب في نابلس

شهدت الدولة المملوكية في عصرها الثاني تراجعاً ملحوظاً في واردات الدولة المالية، وقد لجأت خزينة الدولة نظراً للضوائق المالية التي تعانيها ولتزايد نفقاتها العسكرية الى استنباط وسائل جديدة لاستنفاذ الفائض من المال عن طريق رفع الضرائب وفرض ضرائب خاصة وللوقوف على ما عاناه الناس في الدولة من ظلم من جراء النظام الضريبي، نستعرض بايجاز مجمل الضرائب التي دفعها المواطنين للدولة المملوكية:

ضرائب الأرض

١- ضريبة الخراج

وهي ضريبة سنوية تأخذ عن الاراضي الزراعية، بحيث يقوم الفلاح بتأديه هذه الضريبة لصاحب الإقطاع، والذي يقوم بدفعها الى الدولة، وتتفاوت قيمة هذه الضريبة تبعا لخصوبة التربة ولمدى استغلالها ولطريقة الري[4] وكانت هذه الضريبة تستخرج على أساس المقاسمة اذا استخرجت احياناً على اساس النصف على الاراضي المروية، ومثالثة ومرابعة في

---

(١) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠١.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة،ص٥٦.

(٣) Richard, oP. cit., P.73.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص٥١٩-٥٢٠.

غالب البلاد ومخامسة ومسادسة في المزارع الخالية من السكان[١] وليس الخراج هو الضريبة الوحيدة التي فرضها المماليك على الأرض، بل هنالك ضرائب اخرى منها ضريبة العشر وهي ضريبة سنوية يدفعها المسلم على محاصيلة الزراعية وهي المحاصيل التي تكون قد بقيت للفلاح بعد المقاسمة، على أعتبار انها صدقة او زكاة[٢].

الضرائب المفروضة على الافراد

١- ضريبة الجوالي

وهي الضريبة التي يدفعها اهل الذمة من اليهود والنصارى والسامرة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، وقد تراوحت قيمتها بين دينار لضعيف الحال، وديناريين لمتوسط الحال واربعة دنانير للموسرين، وتجبى في المحرم من كل سنة[٣] كذلك ادى المواطنون للدولة المملوكية ضرائب اخرى: مثل ضرائب رسم الاعياد والخميس كناية عن هدايا تدفع نقداً في اوقات معينة من السنة، وعده ضرائب متفرقة حسب الاماكن، اشهرها ضريبة الضيافة[٤] وهناك ضرائب دفعها سكان الإقطاعات للاسياد دون ان يكونوا من الرعية او من العبيد او من المزارعين الذين يعيشون من حراثة الأرض، ولكن دفعوها بمجرد انهم يسكنون الإقطاع ليس الا[٥].

٢- الضرائب الهلالية

وهي الضرائب التي يدفعها المواطنون شهرياً حسب السنين القمرية؛ كالضرائب على التجارة والصناعة وهي ما اطلق عليه بالمال الهلالي او المكوس[٦] وقد أخذت هذه الضرائب على الدور والحوانيت والافران والحمامات والطواحين على اساس عددها، وامكانية تشغيلها طوال

(١) النويري: نهاية الارب، ج٨،ص٢٥٨-٢٥٩.
(٢) بولياك: الاقطاعية،ص١٨٢.
(٣) القلقشندي: صبح الاعشى: ج٣،ص٥٢؛ ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣١٧-٣١٩.
(٤) هي ضريبة يدفعها الضيف عند نزوله عند شيخ القرية مقابل الأكل والنوم طيلة فترة الأقامة.
(٥) بولياك: الاقطاعية، ص١٨٣-١٨٤.
(٦) نفس المرجع، ص١٨٥.

العام او اثناء المواسم والفصول(1) كذلك وجد في بلاد الشام في العصر المملوكي ضريبة اخذت من اصحاب المواشي مقابل رعي مواشيهم من نبات الأرض وتتفاوت نسبة هذه الضريبة بحسب عدد المواشي(2).

كذلك استفادت خزينة الدولة المملوكية من الأموال التي عرفت باموال المواريث الحشرية وهي الأموال التي يتركها من لا وارث له، او من لا يستحق كل الميراث، فيكون ذلك من الموارد التي تضاف للخزينة وقد اشرف على هذه الأموال ناظر ديون المواريث الحشرية(3) ولدينا في مصادرنا ما يدلل على وجود المواريث الحشرية في نابلس فقد اشار المقريزي الى استقرار الشهاب احمد اليغموري الحاجب بدمشق نائب قلعتها والتزم بعمارتها فافرد لها من بلاد دمشق داريا الكبرى واريحا من الغور والمواريث الحشرية بدمشق واعمالها والرملة والقدس وغزه ونابلس(4).

ولم يقنع المماليك بما فرضوه من ضرائب مباشرة وغير مباشرة بل عمدوا الى سياسة احتكار السلع وفرض شرائها على الناس باسعار تحدد من قبلهم. وهو ما عرف باسم سياسة الطرح والرمي. ولقد مارس المماليك هذه السياسة بكثرة، ومن ذلك قيام السيفي قانصوه من مخيم الأمير اقبردي الداوادار الكبير في شهر ربيع الاخر سنة (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) برمي الزيت المتحصل من جبل نابلس على اهل بيت المقدس الخاص والعام من المسلمين واليهود والنصارى. كل قنطار بخمسة عشر دينار ذهباً والسبب في ذلك لما حصل عند دقماق نائب القدس الشريف من حنق على اهل بيت المقدس، مما وقع منهم حين الكشف عليه في السنة الماضية، وكان الزيت

---

(١) نفس المرجع، ص١٨٣.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٦٢.

(٣) الاسعد بن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣١٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٦٥-١٦٦.

قبل ذلك من تقادم السنين يرد من جبل نابلس، ويباع بالقدس والرملة بالسعر الواقع من غير حرج على أحد(1).

وقد اصبحت عملية الشراء بالإكراه (الرمسي والطرح) جزءاً من السياسة الإقتصادية للسلطان برسباي (٨٢٦-٨٣٥هـ/١٤٢٢-١٤٣١م)، لمواجهة الأحداث السياسية وبقي هذا النوع من البيع اجراء اخذ به السلطان وموظفوه فقط، ثم غدا اجراءاً واسع الاستخدام تبناه الامراء والحكام المحليون، والموظفون عموما؛ لتدعيم ثرواتهم الخاصة بحيث اصبحت عملية البيع ضريبة منتظمة مفروضة على قسم كبير من ابناء المجتمع وفي عام (٨٧٦هـ/١٤٧١-١٤٧٢م). فرضت الضرائب بهذه الطريقة على العلماء وتجار القطن وسكان القدس ونابلس(2) ،وقد قاسى العامة من جراء السياسة الضريبية المملوكية، فاضحى الفلاح لا يملك ما يسد عوز عياله وتراكمت الديون عليه مما دفعه الى الاقتراض من السادة الإقطاعيين، وقد حصل على هذه القروض بعد ان دفع عليها فوائد تتراوح بين ١٠-١١٪(3).

الأوزان والمكاييل والمقاييس في نابلس

لم يكن لولاية نابلس في العصر المملوكي اوزان ومكاييل خاصة بها، بل انها استعملت ما كان سائداً في بلاد الشام، ولدينا اشارة ذكرها الحنبلي اثناء حديثه عن الشيخ ابو عبدا لله محمد بن الشيخ العارف غانم المقدسي الانصاري ذكر فيها، انه وقف على مرسوم السلطان الملك المنصور قلاوون انه يقرر له برسم زاويته في كل شهر غرارتا قمح بالكيل النابلسي انعاما مستمراً والمرسوم مؤرخ في الثالث من المحرم سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)(4) ويستفاد من النص انه كيل خاص بالحبوب و لم أعثر له عما يساويه هذا الكيل بالنسبة لغيرة من المكاييل.

---

(1) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٢٥٦.

(2) لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، ص١٠٣-١٠٤.

(3) بولياك: الاقطاعية، ص١٨٧ . وقد قام د. محمد عيسى صالحية بدراسة قيمة عن ظاهرة الطرح الرمسي في الاقتصاد المملوكي ونشرت هذه الدراسة في مجلة ابحاث اليرموك م٩، ع٤، ١٩٩٣، ص٥١-١٢٤.

(4) الحنبلي: الانس الجليل: ج٢، ص١٥١.

الأزمات الإقتصادية في نابلس

عانت نابلس في الحقبة المملوكية العديد من الأزمات الإقتصادية، وخاصة في عهد المماليك الجراكسة، وقد تنوعت الأسباب والعوامل المؤديه إلى حدوث تلك الأزمات ما بين عوامل طبيعية واقتصادية وسياسية. فالنظام السياسي للدولة المملوكية. نظاماً اقطاعياً ويعتمد على الأرض بصورة رئيسية باعتبارها مصدراً هاماً من مصادر الثروة، وفي حالة حدوث اضطراب في انتاجيه الأرض فان ذلك سيؤدي الى اضطراب في دخل الطبقة الحاكمة، اضافة الى اضطراب احوال السكان لما تمثله انتاجية الأرض الزراعية من مورد هام للدخل، فضلاً عن اضطراب الصناعات المعتمده على الانتاج الزراعي مثل الصابون والسكر وكذلك الحال بالنسبة للتجار والتجارة[1] ، ومن بين العوامل الطبيعية المؤثرة في حدوث الأزمات الإقتصادية الامطار نظراً لاعتماد الزراعة ومعاش الناس عليها، وتبعاً لذلك فان اي تذبذب في كميتها او حتى في تأخر سقوطها سيعني حتماً حدوث ازمة اقتصادية خانقة ولدينا الامثلة والشواهد على ذلك. فقد حدث في سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) انه اصيبت بلاد الشام بغلاء عظيم في جميع الاشياء وبلغ رطل الخبز درهمين[2] أما في عام (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) فقد تأخر المطر عن دمشق وبلاد حوران ونابلس والقدس الشريف والقرى وغالب بلاد الشام، بحيث ان فصل الشتاء دخل في ليله الخميس ٦ صفر ٦٩٥هـ الموافق ١٦ كانون اول ١٢٩٥ والناس في ذلك في ضيق عظيم وألم كثير، وتزايدت الأسعار الى الغاية ولا سيما في بلاد حوران والقدس ونابلس والقرى وصار بتلك البلاد شدة عظيمة بسبب ذلك وجف الماء ببلاد الشام[3] فتأخر سقوط الامطار يعد سببا كافياً لحدوث الازمة، لان الناس سيقبلون على استنفاذ مخزونهم من الطعام، مما يعني تزايد الطلب عليه، وبالتالي ارتفاع الأسعار مما يعني وضعاً اقتصادياً صعبا، وكان يزيد الازمة سوءاً اذا اقترنت بتحركات البدو وقطاع الطرق، ففي مثل هذه الحالة تتضاعف اثار الازمة وكمثال على

(١) علي السيد: القدس في العصر المملوكي،ص٢١٨.

(٢) ابن ايبك: كنز الدرر، ج٨،ص٦٥. ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص٧٢.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،ج٨،ص٢١١.

ذلك ما حدث في عام (٧٤٨هـ /١٣٤٧م) من ارتفاع في الأسعار، بحيث بلغ سعر القمح ما بين الاربعين- الخمسين درهماً للأردب وغلا اللحم وعامة الاصناف المأكولة، وتوقفت الاحوال، وقلت الغلال وكثرة السؤال من كثرة قدوم اهل النواحي الى القاهرة، وقوة المفسدين وقطاع الطرق بارض مصر وبلاد القدس ونابلس، وفتنة العشير بعضهم ببعض(١) ولدينا امثلة عديدة عن الأزمات الإقتصادية التي تعود لاسباب طبيعية منها: ما حدث عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) من غلاء في غالب الشام، بحيث بيع بنواحي الرملة ونابلس والقدس كل غرارة قمح بثلاثمائة درهم، مما نتج عنه قيام التجار والعرب بنقل قمح كثير من الديار المصرية الى البلاد الشامية(٢) وكذلك ما حدث في عام (٨١٩هـ/١٤١٦م) حينما اصيبت نابلس بغلاء شديد(٣) وما حدث في عام (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) حيث غلت الأسعار في غزة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماة، حتى تجاوز سعر الاردب المصري عندهم " اي في بلاد الشام" الف درهم فلوسا(٤).

ان مثل هذه الأزمات والظروف الصعبة تجعلنا نتساءل عن موقف الدولة منها، وماهية الاجراءات التي كانت تتخذ للتصدي لها، ويعتقد الباحث ان الدولة لم تكن تنطلق في مواجهة هذه الأزمات من سياسة واضحة ومحدددة بل تتخذ من الاجراءات ما يناسب الوقت الذي تعيشه لذلك نجد انه في بعض الأزمات كان السلاطين امثال بيبرس يوزعون الفقراء على الامراء لاطعامهم، واحياناً يقوم بعض الامراء وبدافع ديني بالتخفيف عن الناس في مثل هذه الاوقات؛ امثال الأمير عز الدين الصالحي النجمي، والذي كان مبلغ متحصله من الغلال ينوف على مائتي الف اردب سوى التقاوي ويشار اليه بانه كان له في الغلاء افعال فاضله من اطعام الفقراء

---

(١) المقريزي: السلوك،ج٢،ق٣،ص٧٤٠.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،م٩،ج١،ص٢٥. ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبه،ج٣،ص٢٣٨.

(٣) المقريزي: السلوك،ج٤ ق٢،ص٣٥٠.

(٤) نفس المصدر والجزء والقسم،ص٧١١.

والايتام وارباب البيوت الخبز والطعام[1] واحياناً كانت تقوم الدولة بنقل الحبوب من مكان لاخر لمواجهة الازمة كما اشرنا في الحديث عن ازمة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) حين نقل القمح من مصر إلى الشام.

ان مثل هذا الاجراءات لا تعد كافية للوقوف في وجه هذه الأزمات خاصة حينما تتكرر، ويجب ان لا ننسى انه في احيان كثيرة كان النظام السياسي نفسه من ضمن العوامل المؤديه الى التدهور الإقتصادي وحدوث الأزمات؛ فهو نظام يعتمد على الإقطاع ويمتاز هذا النظام بتغير دائم للاشخاص المقطعين لذلك كان كل واحد منهم حريص على جمع الثروة دون الاهتمام بوسائل زيادة الانتاج وتحسين الأرض، مما ادى حتماً الى استنزاف شديد للارض وقد تعرض الاسدي في كتابه التيسير والاعتبار الى هذه القضية والمح إلى الأسباب التي تؤدي الى نقصان الأموال في الولاية وعدم كفايتها لنفسها، وذكر ان ذلك مرده الى الإهمال في تفقد الأراضي والبلاد، وما يتعلق بها من صلاح او فساد[2] وتفقد الرعايا، ويدعو إلى العمارة واستنباط الاراضي وازالة الشواغل، والنظر في عمارة البور والرفق بالزراع والتقوية لهم بالبذار والبقر وما يصلح لهم من الآلات والمؤن والمتاع، ومنع الإعتداء عليهم[3] ويضيف الى ذلك ان ضعف قبضه السلاطين المماليك على العربان في نهاية الدولة قد ساهم في احداث الفوضى وتزايد الأزمات الإقتصادية، فقد قامت الحروب بين القبائل العربية من قيسية ويمنية مما أوجد حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وتزايد الامر سوءاً حين تسلط العربان على الفلاحين مما اضطر كثير منهم الى التمرد والعصيان والتشرد عن الاوطان، وعظمت الفتن وصار الفلاحين على صهوات الخيول الى ان اوجب ذلك الخراب في كثير من رساتيق الشام والقرى والبلدان

---

(١) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي: المقفى الكبير،تح محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ج٢، ص٢٣١،وسيشار اليه فيما بعد المقريزي: المقفى الكبير.

(٢) الاسدي، محمد بن محمد بن خليل: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تح عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، ط١، د.م، ١٩٦٨، ص٨٥ وسيشار اليه فيما بعد، الاسدي: التيسير والاعتبار.

(٣) الاسدي: التيسير والاعتبار، ص٩٠.

وصارت خراباً ويشهد بذلك الديوان بما كان فيه من اسماء القرى التي كانت مزارع وتسمى بالخرب الداثرة في هذا الزمان والموجب لهذا سوء التدبير ونقص القوة(١).

كذلك كان من ضمن العوامل التي ادت الى حدوث الأزمات الإقتصادية التلاعب بالنقود المتداولة في ايدي الناس، بحيث اهملت الدولة اصلاح النقود وتشير المصادر الاسلامية الى كثرة التلاعب بالنقود فمن ذلك ما حدث سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، حين نودي على الفلوس ان الرطل يكون بستة وثلاثين درهما(٢) وما حدث في عام (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) حين نودي بالقاهرة على الفلوس الجدد بانه كل رطل بستة وثلاثين درهماً بعد ان كانت باثنتين واربعين درهما الرطل، وفي تاسع من جمادي الاول نودي على الفلوس المضروبة قديماً بستة وثلاثين درهما الرطل، والمضروبة الجديدة معاده ونودي على الفضة المضروبة بسكة السلطان تكون على حالها ٢٤درهم وما هو خارج عن سكة السلطان تكون ٢٠ درهم (٣) وفي عام (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) بدأ الناس يشعرون بنقص ظاهر في النقد الفضي الاحتياطي ناتج عن ازدياد الدفع النقدي، وتحول قيمة الدرهم المتنقلة، فارتمت البلاد من جراء هذا في ازمة مالية اقتصادية ظلت تتخبط فيها حتى عام (٨١١هـ/١٤٠٨م) وكانت احوال الفلاحين المتزايدة في السوء سبباً رئيساً في قيام الثورات المتتالية(٤).

كذلك كان من بين العوامل التي ساهمت في خلق الأزمات الإقتصادية وخاصة في عصر المماليك الجراكسة سوء الاحوال الإقتصادية في عاصمة الدولة، نتيجة لاضطراب الانتاج الزراعي في مصر وقلة الموارد المالية واشارت المصادر الى ان المجتمع عاش في القرن التاسع حاله من القلق وعدم الاستقرار، ومرد ذلك سوء الحالة الإقتصادية واذا ما تتبعنا ما ذكره ابو المحاسن

---

(١) نفس المصدر،ص٩١.

(٢) ابو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تح محمد كمال الدين، عالم الكتب، ط١،د.م، ١٩٩٠،ج١،ص١٧٤. وسيشار اليه فيما بعد ابو المحاسن: حوادث الدهور.

(٣) نفس المصدر والجزء،ص٢٦٥.

(٤) بولياك: الاقطاعية،ص١٨٠.

في كتابه حوادث الدهور عن الحالة الإقتصادية المنهارة في السنوات (٨٥٠-٨٥٤هـ/ ١٤٤٦-١٤٥٠م)، نستنتج عظم الحالة الإقتصادية المنهارة التي عاشتها العاصمة فقد تزايدت الأسعار في هذه السنوات تزايداً كبيرا، وتراجعت الاحوال بشكل ملفت للنظر وكان ذلك سبباً لقيام حركات شغب من قبل العامة احتجاجاً على الأوضاع الإقتصادية السيئة وقد تحالف مع العامة جماعة من المماليك السلطانية(١) ، ومع ذلك استمرت الأسعار في الارتفاع بشكل مثير بحيث شكلت عبئاً كبيراً على عامة الناس في الدولة، ويرينا الجدول التالي ارتفاع الأسعار في هذه السنوات.

ان مثل هذا الأزمات انعكست بصورة سلبية على باقي ولايات الدولة، فانتشرت البراطيل وعادة شراء المناصب بالأموال، وكثرت تبعاً لذلك الأعباء المالية الملقاة على الولايات لتقديمها للسلاطين، رغم ما اشار اليه الاسدي من ان ما كان يتحصل من كل مملكة من ممالك الشام من المال كان يوفي بمصروف ذلك العمل، ويتوفر بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج اليها لكن سوء ادارة الدولة للازمات، وعدم التعامل معها وفق خطط مدروسة، قد نتج عنه عدم كفاية الأموال، وبالتالي لجأت الدولة الى جيوب المواطنين لتغطية نفقاتها.

ومما سبق عرضه نخلص الى ان الدولة لم تحسن التعامل مع الأزمات الإقتصادية التي ألمت بها، بل كانت سبباً في زيادة تعميقها فهم اقلية حاكمة تعيش منفصلة عن الشعب، لاهم لها سوى الكسب المادي، لذلك لم تكن جهودها في تعمير البلاد بعد اخراج الفرنج والمغول منها جهوداً حقيقية، بل على العكس من ذلك فقد مارست الدولة سياسة التخريب الإقتصادي التي اودت بحياة البلاد والعباد، ومن المعروف ان سياسة التخريب منهي عنها عقلاً وشرعا، وكل عمل او فعل يوجب التخريب ونقض في العمارة فهو من جملة الفساد، المنهي عنه، ولا يجوز

(١) ابو المحاسن: حوادث الدهور، ج١،ص٢١٧-٢١٩.

التخريب الا في بلاد الكفر عند الجهاد. وقد تعامل المماليك مع البلاد معاملة سيئة، وسارت بها بخطى سريعة نحو التقهقر والتخلف.

جدول باسعار السلع للسنوات ٨٥٠-٨٥٤ كمثال على الأزمات الإقتصادية التي حدثت في عاصمة الدولة

الشهر	السنة	السلعة	السعر بالدرهم	ملاحظات
جمادى١	٨٥٣	القمح/ اردب	٣٠٠د	المصدر ابن تغري بردي: حوادث الدهور ص٢١٠.
		الفول/حوالي	٣٠٠	
		الشعير/اردب	١دينار	
		بط الدقيق	١٠٠درهم	
جمادي الاخرة	٨٥٣	القمح/اردب	٢٩٠	انحطت الأسعار فيه يسيراً
		الفول/ اردب	٢٤٠	
		الشعير	١٦٠	علماً ان زيادة النيل في هذه السنة انقص من العام الماضي في هذا الوقت بعده اصابع ص٢١١
رجب	٨٥٣	القمح/اردب	ازيد من ٤٠٠	ص٢١٤ .
		بطة الدقيق	١٥٠ فما دون	
شعبان	٨٥٣	القمح/ اردب	دينار	هنا غيرت الدولة المحتسب وعينت محتسب جديد فخدع الناس وباع القمح بالسعر المذكور ٥٠٠درهم
رمضان	٨٥٣	القمح/ اردب	٦٠٠درهم	
		بط الدقيق	٢٠٠	
		الفول/ اردب	٥٠٠	
		الشعير/ اردب	٤٠٠	
		اللحم		ويتسال واين الناس من الحصاد؟
ذو الحجة	٨٥٢	القمح/ اردب	١٢٠	هنا يعقد مقارنة بين اسعار ذو الحجة ٨٥٢
		الفول	٨٠	و٨٥٣
		بط الدقيق	٤٠	

الشهر	السنة	السلعة	السعر بالدرهم	ملاحظات
ذو الحجة	٨٥٣	القمح/ اردب	٨٠٠	
		الفول	٥٠٠	
		بطة الدقيق	٢٥٠	وهو مع هذا قليل الوجود ولا يوجد الا بعسر ص٢٢٧.
محرم	٨٥٤	القمح/ اردب	٨٠٠	او مادونها
		الشعير/اردب	٨٠٠	او ما دونها وهو قليل الوجود.
		بطة الدقيق	٢٧٠	فما دونها
		الخبز/ رطل	٦	لكنه كثير الوجود يوقتد وكان قبل تاريخة بمده يسيرة عزيز الوجود ص٢٤٨.
جمادى١	٨٥٤	القمح/ اردب	٥٠٠درهم	ما دونها بعد ان وصل قبل تاريخة ٨٥٠ درهم.
		الفول	٣٦٠	ما دونها
		الشعير	٢٨٠-٢٥٠	
		بطة الدقيق	١٧٠	ص٢٧٣
رجب	٨٥٤	القمح	٦٠٠ الى ما دونها	
		الفول	٤٠٠ الى ما دونها	
		الشعير	٤٠٠ الى مادونها	
		الارز/اردب	١٥٠٠	
		جبن ابيض/رطل	١٢	
		جبن مقلي/رطل	١٤	وهو مع ذلك عزي الوجود
		السيرج	١٥	ص٢٨٥
رجب	٨٥٤	القمح	٧٠٠درهم	وليتة موجود وانما عز وجوده بالسواحل وصار لا يتوصل احد لشرائه الا بجهد ممن له شوكة وجاه ص٢٩٣.
شعبان	٨٥٤	القمح/اردب	١٠٠٠ او ما دونها	وهو مع ذلك عزيز الوجود جداً
		الفول والشعير/اردب	٦٠٠	وهما في قلة الى الغاية
		بطة الدقيق	٣٠٠ وازيد	وعلى هذا السعر قس كل شيء.

السلعة	السعر	
	اعلى	ادنى
القمح	١٠٠٠	١٢٠
الشعير	٦٠٠	١٦٠
الفول	٦٠٠	٨٠
الدقيق	٣٠٠وازيد	٤٠

الفصل الخامس

الحياة العلمية والعمرانية في نابلس

الحياة العلمية والعمرانية في نابلس

درجت الدراسات المعاصرة في تناولها للحركة العلمية في الدولة المملوكية على الاشادة بهذه الحركة في ظل المماليك؛ على اعتبار انهم شجعوا ورعوا هذه الحركة في السلطنة وذلك لاسباب متعددة:- منها استكمالهم للسياسة الايوبية التي رغبت في القضاء على المذهب الشيعي في مصر والشام، ومنها ايضاً اهتمام السلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم، وهو ما دفعهم الى احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) على يد الظاهر بيبرس. ومرد الاهتمام بالواجهة الدينية للدولة الناشئة؛ فضلاً عن الاهتمام بمقدسات المسلمين ورعايتها، الى انهم كانوا من المجرحين في اصلهم، الى جانب نظرة المعاصرين لهم على أنهم استأثروا بالحكم دون سادتهم الايوبيين.

وهنا يجدر بنا التساؤل عن علاقة ذلك بتشجيع العلم، فاذا كان المماليك ممن جرحت أصولهم، ونظر اليهم على انهم مغتصبون للحكم، فالمفروض ان يسعى المماليك انفسهم جاهدين لتلقي العلم لتعويض هذا النقص الذي يشعرون به، لكننا في الحقيقة لا نجد مجالس علم وحوار ومناقشات في بلاطهم يرعونها ويشاركون فيها، كما هو الحال في بلاط الايوبيين او الخلفاء العباسيين الاوائل ممن هم على شاكلة المأمون وغيره.

اذاً لم يكن السلاطين المماليك من طبقة العلماء، حتى يشجعوا بالتالي العلم ويرعوه ويعملوا على علو شأنه، ولا يقتصر الامر على السلاطين بل يمتد ليشمل غالبية الامراء المماليك الذين انحصر جل اهتمامهم في تعلم الفروسية وفنون القتال، وترك امر العلم لغيرهم من ابناء البلاد.

ويجب ان نلاحظ ونحن نتحدث عن الحياه العلمية، ان المماليك قد شجعوا العلماء على التوجه نحو علوم محددة فقط وهي العلوم الدينية، في حين لم يشجع المماليك العلوم العقلية والفلسفة والمنطق؛ رغبة منهم في الا تثير هذه العلوم الانتباه اليهم والى مساوئهم، وما يقومون به في المجتمع من استئثار بالسلطة، والى ما يلعبونه من دور في تخريب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة في عصر التراجع عصر دولة الجراكسة، لهذا السبب لم يشجعوا العلوم التي من شأنها ان تدفع العقل الى الحرية الفكرية والتساؤل والنقد ووجه الاهتمام الى مجال العلوم الدينية وبولغ في اظهار وتشجيع مبدأ الزهد، الزهد في الحياة وجاهها وسلطانها، وترك نعيمها الزائل للتمتع بالحياة الاخرة ذات النعيم المقيم والدائم، وهو ما يعزز بالتالي توجه المماليك لابقاء كل شيء في المجتمع على حاله ليستمروا فيما هم فيه من سلطة وجاه ونفوذ.

ولذلك يجدر بنا ونحن ندرس الحياة العلمية في الدولة المملوكية، الى التنبه الى هذه الامور؛ حتى تدرس الحياة العلمية في اطارها الصحيح، ويكف عن المبالغة في إظهار المماليك بمظهر الحريصين على تشجيع العلم والعلماء.

وولاية نابلس كوحدة ادارية مملوكية عرفت حياة علمية لا بأس بها، على الرغم من أنه توفر لها المقومات التي تضمن النجاح لقيام حركة علمية نشطة؛ فهي ذات موقع جغرافي متوسط داخل فلسطين، وتقع ضمن دائرة النشاط الحضاري للسلطنة المملوكية، وهي قريبة من مراكز الاشعاع العلمي في السلطنة كدمشق والقاهرة، ولذلك حين تحدث عنها الحنبلي ووصفها بأنه خرج منها الكثير من العلماء(١) . فأنه ومثل هذه العبارة كفيلة بأنه تشير لاول وهلة الى حياة علمية نشطة في الولاية، وقد تغرى الباحث بالإستنتاج بأنها قد شهدت حركة علمية نشطة ومزدهرة، حتى تخرّج بالتالي هذا العدد الكبير من العلماء.

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص ٧٥.

ولكن نظرة علمية متأنية الى طبيعة الحياة العلمية في نابلس تثبت غير ذلك، ولا اقصد بذلك ان البلد لم تخرج العلماء، ولكن الحركة العلمية كحركة مزدهرة لا يمكن استنتاجها من الاشارة السابقة، فازدهار الحركة العلمية يحتاج الى مؤسسات علمية تعنى بالنشاط العلمي وتشجعه وترعاه، والمؤسسات العلمية في نابلس قليلة، فنحن لا نجد فيها سوى مدرستين في حين نجد ان مدينة كالقدس مثلاً تحتوي على اكثر من اربعين مدرسة، واكثر من عشرين زاوية فضلاً عن مكاتب الاطفال والمساجد(١).

اما دمشق فقد حوت على مائة وثلاثين مدرسة درّست لمختلف المذاهب، إضافة الى سبع دور لتدريس القرآن الكريم، وخمسة عشرة داراً لتدريس الحديث، وثلاث دور لتدريس الحديث والقرآن معاً، وثلاثين خانقاه وسبعة واربعين رباطاً، وثمان وسبعين تربة وواحد وثلاثين مسجداً(٢). فأين تقع نابلس بما تحتويه من مدارس مع القدس، او دمشق على سبيل المثال لا الحصر.

إذاً نستنتج من ذلك ان المؤسسات التعليمية في الولاية كانت قليلة، وهو ما ينعكس حتماً على طبيعة الحركة العلمية، فيجعلنا نخرج بنتيجة مؤداها ان الحياة العلمية كانت فيها ضعيفة، ويعود السبب في ذلك؛ الى قلة اهتمام المماليك بتشجيع هذه الحركة بدليل قلة المنشأت التعليمية فيها.

وهنا تصبح اشارة الحنبلي واضحة ومقبولة، حين نعلم بأنه خرج من نابلس عدد كبير من العلماء، وهؤلاء العلماء على الأغلب كانوا يرتحلون أما الى دمشق، واما الى القاهرة، يحدوهم في ذلك؛ اما الرغبة في طلب العلم وملازمة العلماء، وهذا يكون بالتقرب من المراكز

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٥٦١-٥٩٦.

(٢) النعيمي، محمد بن عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠ ج١و ج٢.

العلمية النشطة بما تحوية من مؤسسات تعليمية وعلماء، او الرغبة في تولي المناصب العليا في الدولة وفي حالة نابلس نلحظ ان قلة هم ابناءها الذين كانوا يعودون للتدريس فيها، ولا نجد سبباً لذلك إلا لقلة المؤسسات التعليمية التي يمكن ان تتوفر لتغري هؤلاء بالعودة. ولما كانت الاغلبية من ابناء نابلس يرتحلون لطلب العلم لرغبة فيه او لرغبة في تولي المناصب العليا في الدولة، فإن لدينا الشواهد المؤيده على تولي عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين خرجوا من نابلس لمناصب متعددة وبارزه في الدولة ومنهم:

ابو المظفر يوسف بن حسن بن بكار النابلسي المنعوت بالشرف ت(٦٧١هـ/١٢٧٢م)، وقد تولى مشيخة دار الحديث النورية[١] بدمشق الى حين وفاته[٢] وقاضي القضاه شرف الدين ابو البركات، موسى بن فياض بن عبد العزيز الفندقي[٣] النابلسي؛ حيث ولي قضاء حلب سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وهو اول من وُلّيَ قضاء الحنابلة بها[٤].

أما في مصر فقد تولى العديد من علماء نابلس المناصب الهامة فيها ومنهم:- يحيى بن علي بن عبدا لله بن علي مفرج بن ابي الفتوح، الامام رشيد الدين ابو الحسن القرشي الاموي النابلسي (٥٨٤-٦٦٢هـ/١١٨٨-١٢٦٣م)، حيث انتهت اليه رئاسة الحديث بالديار المصرية[٥].

---

(١) دار الحديث النورية: وهي دار بناها نور الدين محمود الملك العادل ابو القاسم محمود بن ابي سعيد زنكي بن امة سنقر ت(٥٦٩هـ/١١٧٣م) وهو أول من بنى دار للحديث النعيمي:الدارس في تاريخ المدارس،ج١، ص٧٤.

(٢) الدواداري: زبدة الفكرة، مخطوط لوحة ١٢٦.

(٣) الفندق: كلمة من اصل يوناني تعني خان ونزل وهي قرية تقع بين يافا ونابلس وينسب اليها عدد من العلماء باسم (الفندقي) في القرنين السابع والثامن الهجريين، محمد شراب: معجم البلدان فلسطين ص٥٨٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٦، ص٢٥٩.

(٥) الكتبي: محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها تح احسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ج ٤، ص٢٥٩. وسيشار اليه فيما بعد الكتبي: فوات الوفيات.

وابو القاسم بن خلف العُسْكري الحنبلي (بضم العين المهملة وسكون السين)، نسبة الى قرية عُسكر من قرى نابلس (٦٢٠-٦٨٥هـ/١٢٢٣-١٢٨٦م)، وقد اصبح نقيب الحنابلة بمصر(١). وقاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن قاضي القضاه بدر الدين ابي عبدا لله محمد بن قاضي القضاه شرف الدين ابي حاتم عبدالقادر الجعفري النابلسي المعروف بأبن قاضي نابلس ت ٨٣٠هـ/١٤٢٦م وباشر القضاء بنابلس، ثم باشره بالديار المصرية(٢). ومحمد بن يحيى بن عمر بن احمد بن يونس النابلسي القرائي شهرة الانصاري نسباً، تولى منصب قاضي القضاة بالقاهرة المعزية(٣).

أما في مدينة القدس؛ فقد كان الشيخ الامام ابوالذكاء عبد المنعم بن ابي الفهم يحيى بن ابراهيم القرشي الزهري النابلسي (٦٠٣-٦٨٧هـ/ ١٢٠٦-١٢٨٨م) يشغل منصب الخطابة والامامة في المسجد الاقصى طوال فترة اربعين سنة(٤). والخطيب الأمام عماد الدين ابو حفص عمر الخطيب ظهير الدين عبد الرحيم بن يحيى بن ابراهيم بن علي بن جعفر بن عبدا لله وبن الحسن القرشي الزهري النابلسي (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، وقد تولى خطابه القدس لفترة، ثم جمع بين خطابه القدس وقضائها(٥).

انه قلة اهتمام المماليك في الحياة العلمية وتنشيطها في ولاية نابلس ممثلاً بعدم الاهتمام بانشاء المؤسسات العلمية ورعايتها لا يعني نفي الحياة العلمية عن نابلس ولا يعني ان السكان قد ركنوا الى الجهل ولكن العكس هو الذي حصل فرغم قلة المؤسسات العلمية الا ان هذا لم يمنع من قيام اسرات علمية في ولاية نابلس وقد اسهمت تلك الاسر في تنشيط الحياة العلمية، بما

---

(١) المقريزي:المقفى الكبير، ص٦٣٥.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧،ص٣٤٩.

(٣) ابن القاضي:العباس احمد بن محمد المكناسي: درة الحجال في اسماء الرجال، تح محمد الاحمد ابوالنور، دار التراث، تونس، ج٢، ص٢٥، وسيشار اليه فيما بعد ابن القاضي: درة الحجال.

(٤) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص١٣٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص١٠٨.

انجبته من علماء، وما كان لهؤلاء من جهود علمية ومؤلفات. وفيما يلي نعرض لتلك الاسر مكتفين بالاشارة الى مؤسسيها مع نبذه عن أهم مؤلفاتهم:-

اولاً: بنوقدامه

واصلهم من قرية جماعيل[1] ، وعلى رأس هذه الاسرة موفق الدين بن قدامه (٥٤١-٦٢٠هـ/ ١١٤٦-١٢٢٣م)، كان إماماً حجه مصنفاً متفنناً متبحراً في العلوم كبير القدر، ومن اهم تصانيفه في الفقه (البرهان) (مسألة العلو) (الاعتقاد) (ذم التأويل) (المتحابين في الله) (فضل عاشورا) (فضائل العشر) (ذم الوسواس)[2].

ومن علمائهم ايضاً الشيخ ابو عمر محمد بن احمد بن قدامه (٥٢٨-٦٠٧هـ/ ١١٣٣-١٢١٠م)، ولد بقريه الساويا (قباب الساوي) من أعمال نابلس ودفن بجماعيل[3]. وابراهيم بن عبد الواحد بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي الحنبلي، ولد بجماعيل (٥٤٣-٦١٤هـ/١١٤٨-١٢١٧م)، وله معرفه حسنة بالحديث مع كثرة السماع واليد الباسطة في الفرائض والنحو والخط المليح[4].

---

(١) جماعيل: بالفتح وتشديد الميم والف وعين مهملة ومكسورة وياء ساكنة ولام: قرية في جبل نابلس من ارض فلسطين، ياقوت، معجم البلدان ج١،ص١٥٩-١٦٠. وتجدر الاشارة هنا الى ان العديد من علماء جماعيل (بنوقدامه) انتسبوا الى بيت المقدس وذلك لقرب جماعيل من بيت المقدس. راجع ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٥٩-١٦٠. وقد خرج العديد من علمائها واهلها الى دمشق من جور الفرنج ونزلوا بمنطقة سميت بالصالحية نسبة الى ابو بكر محمد بن ابي بكر بن ابي عمر الصالحي، فسميت نسبة اليه. ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص٦٨، النابلسي: الحضرة الانسية، ص٩٠-٩١. على ان ابي شامة يورد سبب تسميتهم بالصالحية الى ان ابو عمر (احد الاشخاص المهاجرين من نابلس) قال هاجرنا من بلادنا فنزلنا بمسجد ابي صالح بباب شرقي فاقمنا به مدة ثم انتقلنا الى الجبل فقال الناس، الصالحية، الصالحية، نسبوا الى مسجد ابي صالح لاننا صالحون قال ولم يكن بالجبل عمارة الا دير الحوراني واماكن يسيرة، انظر ابي شامة: تراجم رجال القرنين، ص٧١.

(٢) الكتبي: فوات الوفيات ج٢، ص١٥٨-١٥٩.

(٣) ابو شامة: تراجم رجال القرنين، ص١٧.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٤٩.

ومنهم محمد بن احمد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي الجماعيلي الاصل (٧٠٤-٧٤٤هـ/١٣٠٤-١٣٤٣م)، وقد عنى بالحديث وفنونه ومعرفة الرجال والعلل، وبرع في ذلك. وله تصانيف كثيرة منها (الأحكام الكبرى) (الرد على أبي بكر الخطيب في مسألة الجهر بالبسملة) (المحرر من الأحكام) (فصل النزاع بين الخصوم في الكلام) (العمدة في الحفاظ)(١).

ومنهم محمد بن احمد بن ابراهيم بن عبدا لله بن ابي عمر محمد بن احمد بن محمد بن قدامه بن مقدام النابلسي الاصل(٢)، وكان عالم حديث وقد قيل فيه عند موته: نزل اهل الاسناد بموته درجة(٣).

ثانيا: بنو المرداوي

من قرية مردا(٤) وعلى رأسهم الشيخ شمس الدين ابو عبدا لله بن عبد القوي ابن بدران المرداوي (٦٣٠-٦٩٩هـ/١٢٣٢-١٢٩٩م)، كان إماماً عالماً فاضلاً في الفقة والنحو واللغة، كثير المحفوظ، وقد عمل بالافتاء والتدريس(٥)، واحمد بن محمد بن جبارة بن عبد المولى الحنبلي المرداوي الصالحي (٦٤٩-٧٢٨هـ/١٢٥١-١٣٢٧م)، حيث برع في النحو والقراءات واشتهر بهما(٦)، وشمس الدين القباقي محمد بن ابراهيم بن عبدا لله المرداوي (ت٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، وله يد طولى في الفقة وقد اشتغل بالافتاء والتدريس(٧).

---

(١) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٢) المصدر والجزء نفسها، ص٤٠٧.

(٣) المصدر والجزء نفسها ص٤٠٨.

(٤) مردا: بفتح الميم وسكون الراء: قرية تقع جنوب جماعيل وعلى مسيرة كيلين منها ومردا قرية قرب نابلس وتشتهر بالزيتون وبكثرة العلماء الذين خرجوا منها ونسبوا اليها محمد شراب: معجم البلدان فلسطين ص٦٥٦.

(٥) الذهبي: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٢٢.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ج٨، ص٢٥ وابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٤٨.

(٧) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص١٩٧.

ثالثاً: العنبتاوي

نسبة الى قرية عنبتا[1] ومن اشهر علمائهم: احمد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن حمدان بن حميد برهان الدين بن زين الدين العنبتاوي (٧٨٣هـ/١٣٨١م)، وقد حفظ العديد من التصانيف وله ابحاث في الفقة[2].

ولقد كان لهذه الاسر دور في اثراء الحياة العلمية في نابلس، بحيث جعلتها احدى المراكز العلمية النشطة، حيث قدم اليها العديد من العلماء لكي يأخذوا العلم عن اهل نابلس، ومن هؤلاء الشيخ ابو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد عثمان السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) الذي ارتحل الى نابلس وسمع بها[3]. والفيروز ابادي محمد بن يعقوب الذي سمع عن عبدالرحمن المرداوي واحمد بن مظفر النابلسي[4].

المؤسسات التعليمية

سبق وأن اشرنا بان اكثر ما عانت منه نابلس بالنسبة للحياة العلمية هو قلة المؤسسات التعليمية فيها، وعلى الرغم من ذلك فأن هنالك عدد كبير من العلماء خرج منها: وقلة المؤسسات فيها لا يعني انها قد خلت من هذه المؤسسات فقد وجد فيها بعض هذه المؤسسات مثل المدارس، المساجد، والزوايا التي كان لها اثر في الحياة العلمية فيها ومنها:

---

(١) عنبتا: -بلدة على الضفة الشمالية لوادي الشعير الذي ينحدر من مرتفعات نابلس شرقاً في طريقة الى الغرب وقد عرفت بهذا الاسم منذ العهد الروماني، محمد شراب: معجم البلدان فلسطين، ص٥٤٩.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٥٨.

(٣) العيدروسي، محي الدين عبد القادر: تاريخ النور السافر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥ ص١٨، و١٩.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٨٩-٩٠.

اولاً: المدارس

فمن بين المدارس التي انشأت في نابلس وتعود الى العصر المملوكي: مدرسة العماد عبد الحافظ بن بدران ابن شبل المقدسي ت(٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، حيث انشأ مدرسة له بنابلس(١).

وكذلك قام القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية ببناء مدرسته بنابلس(٢) ، اضافة الى ما ذكر فقد انشئ هنالك العديد من المدارس الاخرى، والتي لا يعرف زمن انشائها بدليل ان الرحالة اوليا جلبي يشير في رحلته الى نابلس؛ بأنه كان هناك سبع مدارس ابتدائية للأولاد(٣). وقد ساهمت هذه المدارس الى حد ما برفد الحركة العلمية في الولاية حيث أسهمت في تخريج عدد من العلماء منها.

ثانياً: المساجد

وهي من المؤسسات التعليمية التي وجدت في نابلس، وقدمت الخدمات التعليمية فيها، فقد كانت بجانب دورها كدور عبادة مراكز للتعليم يلتقي فيها العلماء لإلقاء الخطب والتدريس. ومن اشهر مساجد نابلس:

المسجد الكبير:– ويقع في شرقي المدينة ومدخلة الرئيسي لجهة الشرق(٤). وقد كان هذا المسجد كنيسة كبيرة، حولها صلاح الدين الى جامع، وقد كان يسمى اثناء الفترة الفرنجية باسم

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٥، ص٤٤٢، ابن رجب: زين الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد: الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفه للطباعه والنشر ، بيروت ، ١٩٥٣ ، ج٢ ، ص٣٤١ وسيشار اليه فيما بعد ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة. وهذه المدرسة حالياً غرب جامع النصر بنابلس وهو زاوية ومسجد ومدرسة:كامل العسلي نقوش نابلس نقش رقم (٩)، حولية دائرة الاثار العامة، مجلد ٣٦، عمان ١٩٩٢، ص٢٧٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) Evliya Tshelebis: Travels in Palestine P. 139.

(٤) محمود العابدي: الاثار الاسلامية في فلسطين والاردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٧٣، ص٥٨، وسيشار اليه فيما بعد العابدي: الاثار الاسلامية، صبحي طوقان جبل النار نابلس، ص٥٧.

كنيسة القيامة(1)، وعلى ما يبدو سمي بهذا الاسم؛ لانه كان يشبه كنيسة القيامة في القدس(2). ويميل الباحث الى الاعتقاد بأن الجامع الكبير كان في الاصل مسجداً قبل أن يحول الى كنيسة،على يد الفرنجة اثناء سيطرتهم على نابلس؛ لان نمط البناء ووصفه يدلل على انه بناء اسلامي(3). ولان السلطان صلاح الدين كانا حريصاً في تعامله مع أهل الذمة على الوفاء لهم ومعاملتهم وفق احكام الشريعة الاسلامية فما كان ليقوم بتحويل كنائسهم الى مساجد إلاّ وفق الاحكام فان كان في الاصل مسجداً وحوله الفرنجة الى كنيسة فقد اعاده الى سابق عهده وان بني بعد الفتح الاسلامي لنابلس فهو من الأبنية المحدثة والتي وجب ازالتها ومن هنا جاء التحويل لمسجد.

وقد تعاقب على امامة هذا المسجد والتدريس فيه علماء نذكر منهم: عبد الرحمن بن عبدالكريم ابو هريره النابلسي وكان يدرس الفقه والنحو فيه(4)، والعالم ابن مكية ابو الفضل النابلسي الشافعي حيث شغل منصب الامامة فيه(5).

المسجد الغربي (الحنابلة):

ويعد من مساجد نابلس القديمة، وقد ذكره الحنبلي في الأنس الجليل باسم الجامع الغربي(6)، وقد دعي باسم الحنابلة منذ القرن السابع للهجرة، نسبة الى الحنابلة الذين تولوا الامامة فيه(7).

---

(1) Enlart, les Monuments des Croises P. 285.

(2) العابدي: الاثار الاسلامية ص٥٩.

(3) لقد قام الفرنسي Enlart بإعطاء وصف تام عن هذا المسجد محاولاً ان يدعم رأيه وبشكل قاطع علىي ان طريقة البناء فيه طريقة قوطية رغم ان الامثلة والشواهد التي فيه تدلل على انه بناء اسلامي. Enlart: les Monuments des Croises P285-P.289

(4) السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٨٧.

(5) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣١.

(6) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٢٥٧.

(7) صبحي طوقان: جبل نابلس، ص٥٦.

ومن أشهر من تولى الامامة في هذا المسجد: بهاء الدين ابو محمد بن منصور المقدسي ت(٦٢٣هـ/١٢٢٦م)(١). والعالم تقي الدين ابو عبدا لله بن جعفر المقدسي النابلسي الحنبلي ت(٦٣٨هـ/١٢٤٠م)(٢)، وشمس الدين ابو محمد عبدا لله بن محمد بن يوسف بن عبدالمنعم بن نعمة المقدسي النابلسي ت(٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، الذي تفقّه وافتى وأم بمسجد الحنابلة نحو سبعين سنة(٣).

ومن المساجد التي عرفت في نابلس مسجد **الشيخ بدران** نسبة الى واقفة عماد بن الشيخ بدر الدين بدران (١٢٩٨/٦٩٨م) الذي كان مجاوراً للمدرسة العمادية وتنسب اليه ايضاً.(٤)

ومسجد **التوبة** وتبع في محله غرب وهنالك مجموعة من المساجد كانت تقع في قرى حول نابلس ومن أهم هذه القرى داما وسبسطيه وقاقون وعرابة وبعاره وقرقيب.(٥)

ولقد وجد في ولاية نابلس مساجد اخرى تعود للفترة المملوكية؛ وكانت تستخدم للتعليم ولعل من اشهرها مسجد النصر ومسجد الخضرا(٦)، والتي كان لها أثرها في اثراء الحركة العلمية ومسجد التين، والساطور، والعكر، والزين(٧) .

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص١١٤.

(٢) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٢٥٧.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذارت الذهب، ج٦،ص١١٥.

(٤) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٤.

(٥) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٥.

(٦) Evliya tshelebis: Travel in Palestine, P, 139.

(٧) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٤.

ثالثاً: الزوايا

تعتبر الزوايا في العصر المملوكي من بين المؤسسات التعليمية، حيث كانت تتألف من مجموعة من الغرف لتدريس القرآن وتحفيظه. ولقد وجد عدد من الزوايا في نابلس منها: زاوية الشيخ عبدا لله بن غانم بن علي بن ابراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسي ت(٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، وكان احد شيوخ المتصوفة(١). وزاوية الشيخ عبد الحافظ بن بدران ت(٦٩٨هـ/١٢٩٨م) بطور عسكر ودفن بها(٢). ولقد ساهمت الزوايا الى حد ما في تنشيط الحياة العلمية في المدن والقرى، وان انحسر دورها في تدريس القرآن والحديث والفقة والتصوف، اضافة الى الخدمات المعتادة التي تقدمها للفقراء والمساكين والزوار.

البيمارستانات.

وهي من بين المؤسسات التي حظيت باهتمام ورعاية السلاطين واهل الخير في الدولة المملوكية، ويرجع وجود البيمارستانات في نابلس الى عصر السيطرة الفرنجية، حيث اقام فرسان الاسبتارية بيمارستاناً لمعالجة المصابين بمرض الجذام.(٣)

وقد استمر هذا البيمارستان في أداء دوره طيلة العصر المملوكي.أما في العصر المملوكي فقد أقام محمد بن فضل ا لله القاضي فخر الدين المعروف بالفخر، كاتب المماليك وناظر الجيش ببناء بيمارستان بمدينة نابلس.(٤)

ومما يجدر ذكره بأن البيمارستانات في العصر المملوكي كانت مراكز لتدريس العلوم الطبية، الى جانب ما اختصت به من تقديم الرعاية الصحية والمعالجة والاستشفاء. ولا نعرف ان

---

(١) العيني: عقد الجمان، ص١٢٢.

(٢) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ص ٣٤١.

(٣) Benvenisti,Op cit.,.165.

(٤) المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٥١٦.

كانت البيمارستانات في نابلس قد قامت بالمهمة التعليمية الى جانب وظيفتها ام لا؟ على اية حال تولى العمل بهذه المؤسسات مجموعة من العلماء الذين برعوا في حقل الطب منهم العماد النابلسي(١)، وايوب بن نعمة بن محمد بن نعمة بن جعفر النابلسي ت(٧٣٠هـ/١٣٢٩م) الذي اشتهر بفقهه وطبه وبرع وتكسّب به.

أنواع التعليم وطبيعته

ان التعليم في ولاية نابلس لا يختلف عنه في اية مدينة اسلامية اخرى، حيث كان يمر هذا التعليم في مراحل منها:

المرحلة الاولى: مرحلة الصغر وفيها يدخل الطالب مكتباً (كتّاب)، ويتعلم فيه القرآن الكريم وشيء من الخط والاملاء ونحوها.(٢) وتعتبر هذه المرحلة من اهم واخطر المراحل في حياة الطفل، لكون ما يتعلمه فيها يبقى ملازماً له طول العمر. ولذلك وكتنبيه على خطورة هذه المرحلة، حرص العلماء المسلمون على تنبيه الاهالي اليها؛ وذلك باحسان اختيار المعلم في هذه المرحلة لمن يتصف بصحة العقيدة اذ ينشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة؛ لان فقيههم كان كذلك. وأول ما يتعين على الاباء الفحص عنه عقيدة معلم ابنائهم ومن حق معلم الصغار الا يعلمهم شيئاً قبل القرآن ثم بعده حديث النبي ولا يتكلم معهم في العقائد، بل يدعهم الى ان يتأهلوا حق التأهل(٣). ولعل في هذه الاشارة ما يؤكد على مبدأ تربوي جدير بالاهتمام؛ وهو الابتعاد عن ارهاق عقول الطلبة الصغار الذين لم يكتمل نموها، وتنضج بعد بالامور المجردة، والعقلية مما يؤدي الى ارهاقهم.

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٣.

(٢) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٥، ص١٩١.

(٣) السبكي: معيد النعم ص١٣٠.

اما المرحلة الثانية فهي: مرحلة الشباب، حيث يكب الطلبة على كتب العلم كالفقه والنحو والصرف والاصول والحديث، فيحفظ منها ما وسعه الجهد وتدرك عليه طاقته، ثم يعرض محفوظاته على شيوخ عصره، فاذا اقتنعوا بحفظه وجودته منحوه اجازة عراضه؛ وهي شهادة المرحلة الثانية. ويعد ما يحفظه الطالب في هذه المرحلة معيناً له على دخول المرحلة الثالثة.[1] وتمثل هذه المرحلة مستويين متداخلين هما: المرحلة الثانوية الجامعية في عرفنا الحديث لمراحل التعلم. ويتطلب هذا النوع من التعليم انواعاً مختلفة من المؤسسات التعليمية؛ كالمدارس والمساجد والزوايا والبيمارستانات.

أما عن الهيئة التدريسية التي قامت بالتدريس في المدارس، فكانت تضم المدرس وهو اعلى عضو فيها؛ وعليه ان يحسن القاء الدرس وتفهيمه للحاضرين، وان يتدرج في تدريس التلاميذ ويدربهم، ويأخذهم بالاهون فالاهون الى ان ينتهوا الى درجة التحقيق[2] ويأتي بعده في المرتبة المعيد؛ الذي يقوم بتفهيم الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الاعادة.[3] ويليه المفيد؛ الذي يعيد شرح الدرس والتوسع فيه بحثاً زائداً لتحصل الفائدة[4] ثم المنتهى من الفقهاء والذي يقوم بعملية البحث والمناظره لكونه في نفسه اعلى من الحاضرين.[5]

وقد وجد في نابلس عدد لا بأس به من العلماء والمدرسين الذين تولوا التدريس في نابلس نذكر منهم على سبيل المثال: اسماعيل بن احمد بن الحاج ابراهيم النابلسي الذي تصدى للافتاء

---

(١) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٥، ص١٩١.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص١٠٥. ابن طولون شمس الدين محمد: نقد الطالب لزغل المناصب، تح محمد دهمان وآخرون دار الفكر المعاصر بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص١٥٢-١٥٥.

(٣) نفس المصدر: ص ١٠٨.

(٤) نفس المصدر:ص١٠٨.

(٥) نفس المصدر: ص١٠٨. سليمان خرابشة: نيابة طرابلس في العصر المملوكي، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الاردنية/ جامعة اليرموك، ١٩٩٣، ص٢٠٠.

والتدريس،(1) وابو بكر زيد بن ابي بكر ولد (٨٢٥هـ/١٤٢١م) بجراع من اعمال نابلس وتصدى للتدريس والافتاء والافادة.(2)

أن الاشارة الى محدودية المؤسسات التعليمية في نابلس وارتحال ابنائها الى دمشق والقاهرة للاستزاده في علوم عصرهم وبقاء بعضهم حيث يذهب، وقلة من يعود لنابلس للتدريس فيها لا يعني انقطاعاً في الحياة العلمية وتراجعاً لها فالظروف التي اشرنا اليها ما كانت لتحول بين ابناء نابلس وطلب العلم فقد خرج من نابلس عدد كبير من العلماء الذين برعوا في مختلف الميادين والذين سنعرض نماذج مختلفة منهم.

اولاً: العلوم الدينية

(الفقه) وقد برع في هذا الحقل من العلوم عدد كبير نذكر منهم:

١- موفق الدين ابن قدامه (٥٤١-٦٢٠هـ/١١٤٦-١٢٢٣م)، وكان إماماً عالماً في علم الفرائض والاصول والفقه، وقد صنف في الفقه بالذات العديد من المؤلفات من اهمها: (المغنى) في عشر مجلدات، (والكافي) في اربعة مجلدات، و(العمدة) و(التوابين) و(مختصر الهداية).(3)

٢- جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة بن سلطان بن سرور بن رافع ابن حسن بن جعفر المقدسي النابلسي الفقيه الحنبلي (٥٩٤-٦٥٦هـ/١١٩٧-١٢٥٨م)، وقد سمع بالقدس وحدث بنابلس.(4)

---

(1) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٦٦.

(2) السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص٣٢-٣٣.

(3) الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص١٥٩.

(4) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٨.

٣- احمد بن احمد بن نعمة بن شرف الدين ابو العباس النابلسي ت(٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م)، وقد ولي خطابه جامع بني امية بدمشق، وصنف كتاباً في الاصول، وكان فقيهاً محققاً متقناً للمذهب والاصول، حاد الذهن، سريع الفهم، بديع الكتابة[1].

٤- احمد بن عبد الدائم بن نعمة بن احمد بن بكير المقدسي النابلسي، ولد بجبل نابلس (٥٧٥-٦٦٨هـ/١١٧٩-١٢٦٩م)، وكان فقيهاً، وكان حسن الخط سريع الكتابة حتى يقال: انه استطاع ان يؤلف كتاباً في الفقه يدعى (الخرقي) على مذهب الامام احمد في ليلة واحدة.[2]

٥- ضياء الدين ابو الحسن علي بن سليمان بن ربيعة الاذرعي الشافعي، مولده بنابلس (٦٤٠-٧٣١هـ/١٢٤٢-١٣٣٠م)، وكان قاضياً ستين سنة، ونظم كتاب التنبيه في الفقه فبلغ ستة عشر الف بيت، وله أزجال وموشحات.[3]

٦- سيف الدين ابو بكر بن شهاب ابي العباس احمد بن عبدالرحمن بن عبد المنعم النابلسي، ولد (٦٧٠هـ/١٢٧١م)، كان فقيهاً حنبلياً صالحاً، سمع عن جماعة في دمشق، وكان مطبوعاً عارفاً بالمذهب مناظراً ذكياً.[4]

٧- شهاب الدين ابو العباس احمد بن الشيخ الامام تقي الدين محمد بن جبارة المقدسي المرداوي (٦٤٩-٧٢٨هـ/١٢٥١-١٣٢٧م)، سمع الكثير وعُني بفن القراءات فبرز فيه، وانتفع الناس به وقد اقام بمصر مدة اشتغل فيها بأصول الفقه.[5]

٨- محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن محمد بن ابي الكرم النابلسي الاصل ت(٧٩٣هـ/١٣٩٠م)، وقد مهر في التفسير والفقه، وبرع في الادب والفضائل، ونظم

---

(١) المقريزي: المقفى الكبير، ج١، ص٣٦١.

(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٣٨٨-٣٨٩.

(٣) المقريزي: السلوك ج٢، ق٢، ص٣٣٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٥، ص٤٤٩.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤، ص١٤٨.

السيرة النبوية نظماً مليحاً وحدّث بها، وكانت له دروس حافلة وعظيمة،وكان رئيساً عالي المرتبة رفيع المنزلة له اثار حميدة وسمات جميلة.(١)

٩- برهان الدين ابراهيم بن الشيخ عماد الدين اسماعيل النقيب بن ابراهيم المقدسي النابلسي ت(٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، وكان فقيهاً جيداً ومتقناً للفرائض. وقد ناب عن قاضي القضاه في نابلس وهو: شمس الدين النابلسي، فباشر القضاء مباشرة حسنة.(٢)

١٠- شمس الدين القباقي محمد بن ابراهيم عبدالله المرداوي ت(٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، وكانت له يد طولى في الفقه؛ حيث اشتغل به ودرّس وافتى.(٣)

ثانياً: علم الحديث

وقد اشتهر العديد من ابناء نابلس في علم الحديث ومنهم:

١- الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور ابو محمد المقدسي (٥٤١-٦٠٠هـ/١١٤٦-١٢٠٣م)، ولد: بجماعيل وهو من اكابر علماء الحديث واعيان حفّاظهم، وكان إماماً عابداً زاهداً ورعاً.(٤)

٢- ابراهيم بن عبد الواحد بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي الحنبلي، ولد بجماعيل (٥٤٣-٦١٤هـ/١١٤٨-١٢١٧م)، وكانت له معرفة حسنة بالحديث، مع كثرة السماع واليد الباسطة في الفرائض والنحو والخط المليح.(٥)

٣- خالد بن يوسف بن سعد بن الحسن بن مفرج بن بكار ابو البقاء زين الدين النابلسي المقدسي الشافعي مولده بنابلس (٥٨٥-٦٦٩هـ/١١٨٩-١٢٧٠م)، سمع الكثير،

---

(١) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بانباء العمر، ج٣، ص٩٣-٩٤.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٢.

(٣) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص١٣٧.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٦، ص١٨٥.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٤٩.

وحفظ من غريب الحديث جملة وحصّل كتباً حسنة وأصولاً جيدة، وكان فاضلاً ديناً ورعاً وكان مولعاً بشراء الكتب وبيعها.(١)

٤- اسماعيل بن ظفر بن احمد بن ابراهيم بن مفرج بن منصور بن ثعلب بن بكار النابلسي الاصل (٥٧٤-٦٣٩هـ/ ١١٧٨-١٢٤١م)، وقد اشتهر بكثرة ترحالة في طلب الحديث، وقد سمع الحديث من مناطق مختلفة، واكثر ما سمعه في مكة، وقد حدث بالكثير.(٢)

٥- يوسف بن الحسن بن بدر الحسن بن مفرج بن بكار الحافظ المفيد الامام السيد شرف الدين النابلسي الاصل (٦٠٣-٦٧١هـ/١٢٠٦-١٢٧٢م)، وقد خرّج لنفسه كتاب (الموافقات) وهو في خمسة اجزاء، وقد حدّث بدمشق والاسكندرية والقاهرة، وكان ثقةً حافظاً متقناً جيد المذاكرة جيد النَظم حسن الديار ذا عقل ووقار.(٣)

٦- المسند زين الدين الكمال النابلسي الاصل (٦٤٠-٧٣٠هـ/١٢٤٢-١٣٢٩م)، وقد تفرّد وروى الكثير من الاحاديث بمصر ودمشق.(٤)

٧- شهاب الدين ابو العباس احمد بن المظفر بن أبي محمد بن المظفر بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار النابلسي (٦٧٦-٧٥٨هـ/١٢٧٧-١٣٥٦م)، محدث فاضل حسن القراءة للحديث، وعلى ذهنه فضله وفوائده واسماء وانساب واشياء تتعلق بالفن بعد اشتغاله وكثرة سماعه وقراءته.(٥)

٨- محمد بن عبد القادر الشيخ الامام العالم وهو من شيوخ الحنابلة ت(٧٩٧هـ/١٣٩٤م) بنابلس، وكان له المام كبير بالحديث وكتابته.(٦)

---

(١) الكتبي:محمد بن شاكر: عيون التواريخ، تح فيصل السامر وآخرون، وزارة الثقافة والاعلام العراق، ١٩٨٠، ج٢، ص٣٢٦، وسيشار اليه فيما بعد الكتبي: عيون التواريخ..

(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٣٩١.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات،ج٤، ص٣٢٠-٣٤١؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، ج٤، ص ١٤٦٢.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص٥٤.

(٥) ابن رافع السلامي: الوفيات، ج٢، ص٩٨.

(٦) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج٣،ص٥٦٨، ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بابناء العمر، ج٣، ص٢٧٢-٢٧٣.

٩- علاء الدين ابو الحسن علي بن محمد بن العفيف النابلسي (٧٦٢-٨١٨هـ/١٣٦٠-١٤١٥م)، وقد ولي القضاء في نابلس، وكان من ائمة الحديث وهو من مشايخ تقي الدين القلقشندي، وكانت وفاته بنابلس.[1]

ثالثاً: التصوف

لقد شهدت ولاية نابلس نشاطاً ملحوظاً في مجال التصوف، وكان هنالك عدداً من اهل نابلس اشتهروا في هذا المجال نذكر منهم:-

١- احمد بن عبد الرحمن الحنبلي الشيخ المحدّث الصوفي، احد الزهاد الاولياء من مواليد نابلس سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، وقد اخذ عنه كثيرون منهم: ابن رشيد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، واخذ هو عن ابي محمد: عبد الوهاب بن طاهر بن رواج: احد اصحاب السلفي.[2]

٢- ابو الذكاء عبد المنعم بن يحيى بن ابراهيم القرشي الصوفي النابلسي ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م، وقد اشتغل بالافتاء والتفسير فترة طويلة، وقد سمع من كثيرين وتوفي وله اربع وثمانون سنة.[3]

٣- جمال الدين الشاعر يوسف بن سليمان بن الحسين بن ابراهيم (٦٩٣-٧٥٠هـ/١٢٩٢-١٣٤٩م)، وكان اديباً وشاعراً وخطيباً وصوفياً، وشعره كان يجيد في المقاطيع يجيد نظمها ومعناها، وله بديهه مطاوعة وارتجال مسرع، لذيذ المفاكهة جميل الرد حسن الملقى.[4]

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٢.

(٢) ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٣٤.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠١.

(٤) الكتبي: فوات الوفيات، ج٤، ص٣٤٣.

علوم اللغة العربية والادب والشعر

وفي هذا المجال وجد العديد ممن ابدعوا فيه نذكر منهم:

١- ابو البقاء النابلسي خالد بن يوسف بن سعد بن الحسن بن مفرج بن بكار (٥٨٥-٦٣٣هـ/١١٨٩-١٢٣٥م)، وقد مر معنا ترجمته في علم الحديث وقد نظر في اللغة العربية وكان يعرف قطعه كبيرة من الغريب والاسماء والمختلف والمؤتلف. وله حكايات متداولة بين الفضلاء، وكان قصيراً شديد السمرة. ويلبس قصيراً ومن شعره:

ابا حسن إنّي اليك وان تأت ... رِكابي الى بغداد ما عشت تائق

لو عنت الاقدار قبلي لعاشق ... لما عاقني عنك العشية عائـــق[1]

٢- شرف الدين النابلسي المقدسي الشافعي (٦٢٢-٦٩٤هـ/١٢٢٥-١٢٩٤م)، وكان محققاً للأصول والعربية والنظر، حاد الذهن سريع الفهم، بديع الكتابة اماماً في تحرير الخط المنسوب، وقد ولي خطابه المسجد الاموي لفترة وكان متواضعاً حسن الاخلاق، وقد اقرئ الادب لفترة طويلة.[2]

٣- ابو العباس احمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي (٦٢٨-٦٩٧هـ/١٢٣٠-١٢٩٧م)، قال الذهبي فيه: بأنه يدرك كل ماله شأن في علم التعبير. وله مصنف كبير في هذا العلم اسماه: (البدر المنير في التعبير)[3]

٤- شمس الدين محمد بن عبد القوى بن بدران بن سعد الله المقدسي المرداوي الصالحي الحنبلي (٦٣٢-٦٩٩هـ/١٢٣٤-١٢٩٩م)، برع في العربية واللغة، اشتغل ودرس وافتى وصنف، وكان حسن الديانة دمث الاخلاق كثير الإفادة ومُطرحاً للتكلف. وممن قرأ عليه الشيخ تقى الدين ابن تيمية.[4]

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٠٢.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٢٣١-٢٣٢.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٣٧ ؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٣٢-٣٣.

(٤) ابن القاضي: درة الحجال، ج١ ص٣٢-٣٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥،ص٤٥٢.

٥- ابن الشهيد فتح الدين ابو بكر محمد بن ابراهيم بن محمد النابلسي الاصل ولد ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، وكان له اشتغال في العربية وتفنن بها، وفاق اقرانه في النظم والنثر.(١)

٦- محمد بن احمد بن محمود الصالحي شمس الدين النابلسي (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، وكان له اشتغال في العربية(٢) وكانت له حلقة خاصة لإقراء العربية.(٣)

٧- جمال الدين عبدا لله بن ابي عبدا لله الدمشقي الفرخاوي (نسبة الى فرخا بفاء وخاء وميم مفتوحتين بينهما راء ساكنة، قرية من عمل نابلس) ت٨١٨هـ/١٤١٥م، وكان له اهتمام بالفقة والعربية، وقد درّس وافاد وكان ماهراً في النحو.(٤)

هؤلاء كلهم كانوا ممن ساهموا في الانتاج الحضاري لعلوم الدين واللغة، وكلهم تعود اصولهم الى مدينة نابلس وفي الواقع نستطيع ان نلمس بأن اهتمام علماء العصر المملوكي كان منصباً على علوم الدين بفروعها من فقه وحديث وقراءات وتفسير وتجويد، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وكتابة وشعر وأدب.

اما العلوم العقلية والتطبيقية من رياضيات وفلك وطب، فعلى ما يبدو ان الاهتمام والعناية بها كان ضئيلاً. ولعل مرد ذلك كان الى طبيعة العصر المملوكي الذي لم يشجع مثل هذه الدراسات لاسباب سياسية كنا قد اشرنا اليها ولغلبه نزعه الجهاد، مما حدا بالاهتمام بالعلوم الدينية على حساب العلوم التطبيقية، فقد ظهر في نابلس العديد من العلماء منهم: فخر الدين ابن مزهر، احمد بن مظفر بن مزهر القاضي فخر الدين النابلسي، وقد كان كاتباً خبيراً بصناعة الحساب وله عدة مباشرات ووقائع بالديوان.(٥)

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بابناء العمر، ج٤، ص٨٨.

(٣) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٤٩٦-٤٩٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٣.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص١٨٢.

أما في العلوم الطبية؛ فقد اشتهر العماد النابلسي الذي اخذ عنه جملة من العلماء: اشهرهم شمس الدين الجزري[1] ، وفي أواخر الدولة المملوكية، شهدت الفترة ظهور شخصية طبية متميزة كان لها الاثر الكبير في الطب وعلوم اخرى، الا وهو يوسف بن القاضي حسن بن احمد بن حسن بن عبدالهادي الشهير بابن المبرّد (٩٠٩هـ/١٥٠٣م)؛ وهو من بني قدامه الذين هاجروا الى الشام، واستقروا بدمشق في حي الصالحية هرباً من الاضطهاد الفرنجي.[2] وقد كانت له مؤلفات متميزه في الطب منها: (الاقناع في ادوية القلاع)،[3] وكتاب (المشتبه في الطب)،[4] و(الادوية)،[5] و(دخول الحمام وقوانينه)؛[6] و(طب الفقراء)؛[7] هذا فضلاً عن مجموعة كبيرة من الرسائل الطبية التي تناولت الامراض التي تصيب جسم الانسان من الرأس الى القدم ومنها رسالة (الاتقان في ادوية اللثة والاسنان)؛ و(الاتقان لادوية اليرقان)؛ و(الفنون في ادوية العيون)؛ و(الحول على معرفة ادوية البول)؛ و(ايضاح القضية بمعرفة الادوية القلبية)، و(داوء المكترب بعضة الكلب) و(كمال الاصغاء الى معرفة الامعاء)، و(هدية الاشراف لمعرفة ما يقطع الرعاف) و(هدية الاخوان لمعرفة ادوية الاذان)، و(الكمال في ادوية الصدر والسعال)، و(العهدة لادوية المعدة)، و(تمام النوال في ادوية الطحال)، (والادوية المفردة لعلل المقعدة)، و(اللثق لادوية الحلق)، و(ارشاد المعتمد في ادوية الكبد)، و(الادوية الوافدة الى الحمى الباردة)، و(بلغة الامال بادوية قطع الاسهال)، و(تعريف المجروح بما يدمل القروح).[8]

---

(١) نفس المصدر ، ج٢، ص٢٣.

(٢) محمد عيسى صالحية: الطب والاطباء في فلسطين، الموسوعة الفلسطينة، ط١، بيروت، ق٢، ١٩٩٠، ص ٢٩٧-٢٩٨. ويذكر د. صالحية بأن ابن المبّرد اشتهر بكونه محدّث ومسند وقد عمل من ترجم له من قبل ان يبرزه في هذين المجالين ولكن ومن خلال اطلاع د. صالحية على فهرست كتبه استطاع ان يستخرج العديد من مصنفاته الطبية والتي ما زالت مخطوطة ونحن بدورنا اعتمدنا على ما قدمه. د.. صالحية من ارقام مخطوطات كتبه.

(٣) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٥٥، طب م (قديم).

(٤) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٣٢١٦ طب.

(٥) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٣٧٠٢.

(٦) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٤٥٣٥.

(٧) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٣١٥٥، طب.

(٨) صالحية: الطب والاطباء في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، ص٣٩٨.

الحياة العمرانية

أما فيما يتعلق بالمنشآت العمرانية فقد سبق لنا القول ان من مميزات الحقبة المملوكية انها وفرت لنابلس فترة من الامان والاستقرار كانت في أمّس الحاجة لها بحيث ابعدتها عن تهديدات الهجمات الفرنجية والتترية مما افسح المجال امام السكان في نابلس للالتفات الى المشاركة في اعادة تعمير بلدهم بعدما اصابها من خراب سواء على يد الفرنج ام التتار.

وقد شجعت الاوضاع الاقتصادية المزدهرة لنابلس وخاصة في الفترة الاولى من حياة الدولة المملوكية على النهوض بالمشاريع العمرانية وتطويرها فأقيم العديد من المنشأت المتنوعة ما بين المساجد والمدارس والمنازل والاسواق والحمامات وغير ذلك ومن تلك المنشآت:-

اولاً: الجوامع

لقيت المساجد منذ مطلع التاريخ الاسلامي عناية خاصة نظراً لما يتمتع به المسجد من دور كبير في حياة الفرد والجماعة على حد سواء، وقد اوليت هذه المنشآت الكثير من العناية سواء في هندستها وبنائها او في زخرفتها وفرشها، وحرصت الدول الاسلامية على ايلائها المزيد من العناية، ولا شك ان الدولة المملوكية من بين الدول الاسلامية التي حرصت على الاهتمام بهذا النوع من المنشآت سيما وانها حرصت على ابراز الواجهة الدينيـة للدولة المملوكية نظراً لطبيعة العصر الذي وجدت فيه ولنظرة المعاصرين لها بأنها دولة ارقاء ومن هنا بالغت في الاهتمام بكل ما يمت بصلة الى الحياة الدينية.

وقد وجد في نابلس مجموعة من المساجد التي تعود للفترة المملوكية ومنها:

١- **جامع الخضرا:** ويقع في حي الياسمينة، ويقال انه المكان الذي حزن فيه يعقوب على ابنه يوسف، وقد عمرّه السلطان قلاوون الصالحي (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، حيث جاء على لوحته الحجرية المثبته على باب:

عُمِر هذا المسجد في أيام السلطان الملك.

منصور سيف الدين قلاوون الصالح أعزه الله.

ماولده السلطان الملك الصالح علاء الدين عز نصره[1].

وقد وصفه الرحالة اوليا حلبي؛ بانه عبارة عن بناء مربع طول ضلعه من كل جانب ٨٧ خطوة[2] اما (Enlart) فقد ذكر بأن المسجد بني على النمط القوطي في فترة اعادة الاستيطان الفرنجي القصيرة اي في حدود سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م).[3] ولا ندري ان كان هناك بعض المهندسين ممن عرفوا هذا النمط في بيزنطة او الشام او الاندلس، ومن الجدير بالذكر بأن خبرتنا ترجح ما جاء على لوحته، اذ لم يرد بان المسجد قد تعرض للترميم فيما انتهى الينا.

٢- **الجامع الكبير:** ويقع في شرقي المدينة ومدخله الرئيسي من جهة الشرق. وكان هذا الجامع في السابق كنيسة، وقد حولها السلطان صلاح الدين الى جامع. وفي الجانب الشرقي منه، وعلى كلا جانبي المدخل، يوجد اعمدة رخامية رقيقة عددها ثمانية بشكل متناسق تدعم الشكل القوسي لها، وكان طول هذا الجامع تقريباً ثلاثمائه خطوة من احد اطرافه، وكان عرضه مائه خطوة. وكان هناك ما مجموعة خمس وخمسون عمود وردي[4].

---

(١) العسلي: نقوش من نابلس والخليل، حولية دائرة الآثار العامة، عمان ١٩٩٢، مجلد ٣٦. ص٣٧٠.

(٢) Evliya Tshelbis; travel in Palestine P.139.

(٣) Enlart les Monuments. P.285.

(٤) Evliya Tshelbis. Op cit., p.139.

وقد كان يحتوي هذا المسجد على مدرسة لسكنى الغرباء من طلبه العلم. وحوله سوق مسقوف. حيث نسبت هذه الابنية الاصلية الى مصطفى بك الغفاري؛ وذلك من خلال نقش موجود فيه من ستة اسطر مكتوب بالخط النسخي الجميل.

هذا قبر المرحوم

مصطفى بك الغفاري

عليه رحمة الباري

باشراه رضوان بك أمير

الركب المصري في ربيع

الاول لسنة ١٠٥١هـ/١٥٨٦م من محمد حبيب.

وعلى لوحة من الرخام مثبته عند اول القوس، فوق العمود القائم في الساحة الشرقية والتي تسبق الجامع الكبير، نجد النقش التالي ايضاً:

اذا ما جئت نابلس (نابلسا) فابادر (فبادر)

وعرج نحو جامعها الكبير

تجده عامراً يدعو بخير

وبتأييد (وتأييد) لمولانا الوزير

أتى التاريخ لطفاً يا مجيد

بحسن احياه واجزيه بخير

وهذه الاشارة تدلل على تعمير الجامع الكبير سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م؛ من قبل سليمان امير الحج الشامي.[١]

٣- جامع النصر

ويتكون من مخطط يحتوي على حنية ويتقدمه رواق مستطيل وخمسة اساكيب تشكل في مجملها صحناً ذا اروقه جانبيه كله مغطى بعقود منقطعه اما العقود والنوافذ الصغيره للجهات الجانبية فهي مثلثة في حين جاءت النوافذ كبرى للصحن في مركز العقد[٢] .

هذه الجوامع بالطبع بالاضافة الى جامع ديكر، تنكز الذي انشأه الوالي المملوكي سيف الدين ابو سعيد تنكز وجامع التينة وجامع العمري، بالاضافة الى الجوامع التي بنيت في القرى الميحيطة في نابلس مثل دامار، سبسطيه وقاقون وعرابه، وبعاره، وقرقيب.[٣]

ثانياً: المنازل

حظيت المنازل في نابلس مثلما هو في غيرها من المدن الاسلامية بالعناية والاهتمام الكبير خاصة وان هذا المنازل لم تشيد لتكون مجرد مأوى يأوى اليها اصحابها بقدر ما اعدت لتوفر لسكانها كل اسباب الراحة لذلك بولغ في توفير هذه الاسباب بسكانها.

وقد تفاوتت هذه المنازل من حيث البناء والابهه تفاوتاً يتناسب والمكانة الاجتماعية لاصحابها ففي الوقت الذي نجد فيه بيوت الاغنياء الفارهه المكونة من عدة طبقات والمغطاة بالرخام والتي تحتوي في داخلها على غرف كثيرة وقاعات وحدائق تجلب الراحة للنفس والتي

---

(١) العسلي: نقوش من نابلس والخليل، ص٣٦٨.

(٢) Entant: Les Monuments. P. 284.

(٣) النخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٣-٩٥.

لدينا اوصاف عديدة لها منها ما نصه فدخلنا في جنينة في ذلك المنزل رحيبة الاكناف لطيفة الجوانب والاطراف فيها حوض ماء يجري بالعذب الزلال وايوان عالٍ جديد البنيان وريف الظلال(١).

وايضاً وذهبنا الى روض أريض يُصعد اليه بدرج طويل غير عريض وهو من العجائب التي عن الغرائب مفصحة ان يكون بستان ذو اشجار ومياه جارية وثمار يانعة وذلك كله فوق الاسطحة وهو من خصوصيات البلاد النابلسية(٢). لادركنا من خلال ذلك ان منازل الاغنياء امتازت بالاتساع فهي تحتوي على غرف كثيرة لاستخدامها استخدامات متعددة اضافة الى الايوان والذي يخصص لاستقبال الزوار وان هذه المنازل قد تكون مشكلة من عدة طوابق لذلك تستخدم الادراج ذات المواصفات الخاصة التي تمتاز بانها غير عريضة يضاف الى ذلك حدائق غناء كفيلة بان توفر للنفس اسباب الراحة والمتعة فهي تحتوي على المياة والاشجار والطيور غير ذلك؟

وقد امتازت بيوت الاغنياء في نابلس بالضخامة الى الدرجة التي دفعت بالرحالة اوليا حلبي الى تشبيهها بالحصون فذكر ان البيوت تشبة الحصون وانها كانت مبنية بناء جيد ومكسوه بالجص(٣).

ولقد كان للطبيعة اثر في هذه المباني من حيث المواد المستعملة في البناء، فأنت لا تجد في نابلس بيوت مبنية من الخشب(٤) ، اذ كلها تستخدم الحجارة الكلسية الصلبة في البناء، بحيث طبعت المدينة بطابع مميز.

---

(١) النابلسي الحضرة الانسية ص٧٨

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) Evliya Tshelebis: Travel in Palestine, P 138.

(٤) Ibid P. 138.

الحمامات العامة:

وهي من المنشآت العمرانية التي اشتهرت بها المدن الاسلامية في العصور الوسطى وقد قصدها الناس من مختلف الطبقات -رجال ونساء- للاستحمام لكون الناس لم تألف في تلك الاوقات الاستحمام في منازلهم كما هو الحال في ايامنا.

وبناء الحمامات العامة ينسجم مع العقيدة الاسلامية التي جعلت النظافة ركناً من اركان الايمان لذلك انتشرت هذه الحمامات في المدن الاسلامية.

فاذا انتقلنا الى نابلس وجدنا هذا النوع من المنشآت العمرانية والتي بلغت درجة من الجودة والتميز جعلت المقدسي يصفها بأنه لهم دواميس عجيبة[1] ولعل شهرة نابلس في انتاج انواع الصابون الممتاز التي ذاعت شهرتها في المنطقة قد ضاعف من جودة هذه الحمامات وما تقدمة من خدمات للناس لذلك لا نستغرب حين يصفها شيخ الربوة بأنها حمامات طيبة[2].

وقد وجد في نابلس اكثر من ثمانية حمامات على انها لم تكن جميعها مملوكية الانشاء اما اشهر حمامات نابلس التي بنيت في العصر المملوكي فهي:

١- حمام الريش.

ويقع هذا الحمام في ساحة البلدة القديمة، وهي المعروفة حالياً بساحة المنارة على أول الطريق المؤدية الى المسجد الكبير من الناحية الجنوبية. ويعتبر هذا الحمام بالاستناد الى العناصر المعمارية المتوفرة فيه ما بين القبو المروحي والعقود المدببة، والمداخل المعقودة وغير ذلك من الطراز العام في بناءه- اسلامي البناء والتأسيس، حيث يرجع بناؤه الى القرن الثامن الهجري او

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٤.

(٢) شيخ الربوة: نخبة الدهر ص٢٠٠-٢٠١.

بداية التاسع اي الى الفترة المملوكية التي كثر استخدام العناصر المعمارية السالفة الذكر خاصةً القبو المروحي. وقد هجر الحمام حديثاً وتعود ملكيته لآل الآغا.(١)

٢- حمام الدرجة:

ويقع هذا الحمام خلف المسجد الكبير من جهة الجنوب، ويتوصل اليه بواسطة زقاق طويلة، وهو حمام كبير الحجم. خاصة غرفة المشلح الشتوي وبيت الحرارة. ويبدو ان الحمام قد اقيم على انقاض بناء قديم لعله كان يعود الى ما قبل الفترة الاسلامية؛ حيث يوجد في بعض الاجزاء من اساساته ذلك النوع من الحجارة الكبيرة الضخمة، التي كانت تستعمل في الفترة التي سبقت الاسلام. اما بناء الحمام الحالي فهو اسلامي الطراز حيث يشاهد فيه قبو متقاطع يغطي غرفة الاستقبال الكبيرة الحجم، كما يوجد فيه بعض المداخل الصغيرة المعقودة في قسم الاستحمام، وبناء على ذلك فأن بناء الحمام يوحي بانه يعود الى الفترة المملوكية. وقد اجرى عليه تصليحات في الفترة التركية.(٢)

هذا ويوجد على جانبي الزقاق المؤدي الى الحمام نقشان حجريان كبيران، امكن قراءة بعض الاسطر فيهما، ذلك لان الكتابة الموجودة عليهما اصابها التلف اما الكتابة فهي:

الدنيا والدين .... والسلطان محمد .... سنة سبعماية

أو لعل النقشين يعودان الى السلطان محمد بن قلاوون، الذي حكم ما بين (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م).(٣)

(١) وائل ابو صالح: الحمامات العامة في مدينة نابلس، مجلة النجاح للابحاث، حزيران، العدد رقم (١)،١٩٨٣، ص٨٩، وسيشار اليه فيما بعد ابو صالح، الحمامات.

(٢) ابو صالح:الحمامات، ص٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص٩٠.

ومن أشهرالحمامات التي وجدت في نابلس حمام الغايب في محلة ريس، وحمام البيدره، وحمام البابيه في محله عقبه، وحمام الدرج وحمام الشجاع في محله ياسمين، وحمام آخر في نفس المحله ليعرف بحمام سامري، ويشير هذا الحمام الى وجود طائفة السامرية في نابلس.[1]

وقد وجد في نابلس الأسواق التي سبق واشرنا اليها عند الحديث عن الناحية الديمغرافية، كما وجد عدد من معاصر الزيت واحده في محله عقبه وهي مكونة من عدة حجرات وقد تبع هذه المعاصر وجود عدد من المصابن من اهمها مصبنة في محله ريس ومصبنتان في سوق المربعة بالاضافة الى معصرتين لزيت السيرج.[2]

أما فيما يتعلق باجزاء الحمام والقائمون عليه فالحمام بناء كبير يشيد في العادة من الحجارة وواجهاته كبيرة وبدون فتحات وله باب متسع بعض الشيء يشابه ابواب المساجد وتغطي جميع حمامات نابلس بقباب كروية بها فتحات صغيرة مغطاه بالزجاج بهدف ادخال الضوء الى داخل الحمام وتمتاز جدران الحمامات بعرض الكليل حتى لا تؤثر فيها الزلازل والامطار وتطلى من الاسفل بالقار اما النصف العلوي فيطلى باللون الذي يختاره صاحب الحمام اما ارضية الحمام فتغطى بالرخام الابيض والاسود.

اما من حيث التصميم الداخلي للحمام فقد روعي فيه الانتقال تدريجياً من الجو البارد الى الحار وبالعكس حتى لا يصاب الشخص بالاذى واول ما يدخل المستحم يدخل الى غرفة المشالح وهي غرفة كبيرة يتوسطها نافورة ماء بارده ويحيط بها مسطبه ترتفع عن الارض حيث يتم فيها خلع الملابس واستبدالها بالمآزر ثم تأتي الدهاليز التي تمتاز بالضيق والارتفاع يتخللها فتحات مغطاه بالزجاج وتوزع هذه الدهاليز يصل بين البوابة والمشلح الصيفي ودهليز يصل بين المشلح الصيفي والشتوي ودهليز يصل ما بين المشلح الشتوي والغرفة والمدفأة وهناك بيت

---

(١) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩١-٩٢.

(٢) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩١.

الحرارة ولما كانت مدخنة بيت النار تمر من اسفلة لذا يمتاز بارتفاع درجة حرارة ارضه وعلى بلاطه يجلس من المستحمين من اراد التدليك وحول بيت الحرارة خلوات ويتفاوت عددها من حمام لاخر وتحتوي على حجر كبير منقور يجمع فيه الماء الساخن.

اما بيت النار فهو أحد أجزاء الحمام وهو عبارة عن فرن عليه قدر كبير من النحاس مملوء بالماء ويندفع الماء الساخن والهواء من اسفل غرفة بيت الحرارة الى مكان الاستحمام خلال مواسير من رصاص وكان يوجد في الحمامات المغاطس وقد وجد في كل حمام من حمامات نابلس مغطس ومكانه في خلوه من خلوات الحمام يستعمله الناس للغطس فيه وخاصة المرضى منهم(١).

(١) وائل ابو صالح: الحمامات العامة في مدينة نابلس ص٩١-٩٤.

الخاتمة

نخلص من خلال الدراسة الى ان منطقة نابلس قد امتازت بموقع استراتيجي هام بالرغم ان المدينة لم تكن محصنة تحصيناً كافياً وقد كفل لها هذا الموقع المساهمة في تاريخ الدولة المملوكية، وقد استمرت المدينة في اداء دورها التاريخي الهام منذ اقدم العصور وحتى فترة الدراسة.

- اما من حيث البنية السكانية فقد امتازت نابلس بتعدد البنية البشرية فيها وامتازت بانها خليط متعدد الاعراق ومع ذلك فأن هذا التعدد لم يؤدي الى حدوث التنافر ما بين فئات السكان بل عاشوا فيها متعاونين.

- اما من الناحية السياسية فقد لعبت دوراً بارزاً في تاريخ الدولة المملوكية من حيث توسطها ما بين القاهرة ودمشق، ومن حيث الكثافة السكانية حيث لعبت دوراً مهماً في دعم المجهود الحربي للدولة وخاصة في عصر دولة الجراكسة.

- اما من الناحية الأقتصادية فقد امتازت نابلس بانها منطقة ذات ثراء بالغ في الناحية الزراعية وشهدت نشاطاً صناعياً وتجارياً ملحوظاً.

- أما من الناحية العلمية.فنلحظ عدم اهتمام الدولة بالحركة العلمية من خلال عدم الأهتمام بانشاء المؤسسات التعليمية فيها ورغم هذه الظروف فقد انجبت نابلس العديد من العلماء.

الملحق الاول

نص رسالة الناصر داود صاحب الكرك إلى الشيخ عز الدين بن عبدالسلام يذكر فيه خبر الهجوم الذي قام به الداوية على مدينة نابلس في الفترة ما بين يوم الجمعة ٤ جمادى الاولى سنة ٦٤٠هـ ٣١ تشرين الاول ١٢٤٢م حتى الاحد ٦جمادى الاولى ٦٤٠ هـ ٢تشرين ثاني ١٢٤٢م. نقلاً عن مجهول: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية لوحة ١١٩ إلى ١٢٠ مخطوطة لندن رقم ٣٠٢٥.

النص

احسن الله عزاء المجلس السامي القاضوي العزي في مصابه بالمسلمين وصبرنا واياه على ما دهمت به حوزة الدين واثاب الذين استشهدوا بها وعد الشهداء من رضوانه وعوضهم عن منازلهم بمنازل الامن من قصور جنانه وسامحنا واياه بما أهملنا من حماية الدين وحفظ اركانه وبما اعتمدناه من اغفاله وخذلانه ولا حول ولا قوة الا بالله قول معترف بتقصيره عن جهاد اعداء الله واعداء دينه ذاكراً جريمته جهراً بلسانه وسراً بيقينه وذلك بمصيبة المسلمين بمدينة نابلس التي قتلت فيها المشايخ والشبان وسبيت الحلايل والصبيان واستولت يد الكفر على ما كان مدخراً من الاموال والغلال وما جمعه المسلمون لازمنتهم في السنين الطوال فهو يومٌ ضرب فيه الكفر بجرانه وتبختر فيها بين انصاره واعوانه وزها على الاسلام برونق زمانه وهو اليوم الذي تقابلا فيه فاحجم الاسلام ثم تولى واقتسما فيه بالسهمان فكان سهم الكفر هو السهم المعلا فيا لها من فجيعة ابكت العيون وانكت الجفون وهجمت على القلوب من اسماعها فودت لو انها سبقت بالمنون فيا ليتني نبذت قبل سماعها فونذت قصيا او ليت ربي لم يجعلني لعباده حفياً او ليتني موت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

الملحق الثاني

نص وقفية قرية دير استيا نقلاً عن يونس عمرو نجاح ابو سارة: رقوم المسجد الابراهيمي الشريف في خليل الرحمن منشورات مركز البحث العلمي، جامعة الخليل، ط١، ١٩٨٩، ص٤٠٩-٤١٢.

النص

هذا ما وقفه وسبله حسبة ورجاء للثواب وابتغاء لما عند الله في المآب يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين مولانا السلطان المالك الملك الظاهر سيف الدينا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محي العدل في العالمين صاحب سبل القبلتين خادم الحرمين الشريفين مرد الملوك والسلاطين قسيم امير المؤمنين ابو سعيد برقوق ابن السعيد الشهيد شرف الدنيا والدين ابو المعالي انس خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وجنوده واعوانه وافاض على العامة جوده وبره واحسانه بنية صادقة صالحة وطوله الى فعل الخير صائحة وذلك جميع القرية المعروفة بدير اصطا (دير استيا) من عمل نابلس المعمورة على السماط المبارك بالحرم الشريف حرم سيدنا خليل عليه الصلاة والسلام مختصاً بما يحتاجه اليه السماط المشار اليه من المؤن اللازمة وهي القمح والعدس والزيت على ان لا يصرف من ريع الوقف المذكور الدرهم الفرد في غير ذلك بعد ابطال ما كتب به لازبار الرواتب على القرية المذكورة وغيرهم ممن رتب له عليها ناتجة لحمله الحاوية وقفاً صحيحاً شرعياً معتبراً مؤبداً مخلداً على مر الشهور والايام والسنين والاعوام لا يغيره البعد والتكرار ولا يبدله اختلاف الليل والنهار فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميعٌ عليم حسب المثال الشريف الوارد على يد المقر السيفي يلبغا السالمي الخاسكي الظاهري على المقر السفي جنتمر الظاهري ناظر الحرمين الشريفين اعز الله نصرهما وصلى الله على سيدنا محمد تاريخ السابع عشر ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة هجري.

قائمة

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المخطوطة

١- الأرشيف العثماني:

ارشيف مجلس الوزراء العثماني، استنبول، دفتر مفصل لواء نابلس رقم ٢٥٨ أ.س، ويوجد منه نسخة مصورة على شريط ميكروفلم محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٢٥٨ أ.س.

٢- بيبرس الدوادار، ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار:

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج١٠، مخطوطة، مصور على شريط ميكروفلم ومحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم٢٠.

٣- ابن حبيب الحنفي، بدر الدين الحسن بن عمر:

درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج٨ مخطوطة مصورة عن الخزانة العامة بالرباط ومحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، شريط رقم٥٣٩.

٤- الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري:

المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الأنشا، مخطوطة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٤٤٣٩.

٥- ابن زنبل، أحمد بن زنبل الرمال المحلي:

كتاب تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغوري سلطان مصر وأعمالها، مخطوطة نسخة مصورة لدى الباحثة.

٦- ابن السباهي زادة، محمد بن علي:

أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، مخطوطة مصورة على شريط ميكرفلم ومحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٥٥٩.

٧- سجلات محكمة نابلس الشرعية:

رقم السجل	السنة الهجرية	السنة الميلادية	عدد الورق
١٢	١٢٧٦-١٢٦٦	١٨٥٩-١٨٤٩	٣٧٨
١٣ أ	١٢٧٧-١٢٧٦		٢٧٨
١٣ ب	١٢٨٢-١٢٨٠		
١٤	١٢٨٤-١٢٨٢	١٨٦٧-١٨٦٥	٣٣٦
١٥	١٢٨٥-١٢٨٤	١٨٦٨-١٨٦٧	
١٦	١٢٨٦-١٢٨٦	١٨٦٨-١٨٦٨	٣٨٧
١٧	١٢٨٩-١٢٨٧	١٨٧٣-١٨٦٩	٣٨٥
١٨	١٢٩١-١٢٨٩	١٨٧٤-١٨٧٢	٣١١
١٩	١٢٩٢-١٢٩١	١٨٧٥-١٨٧٤	٣٩٣
٢٠	١٢٩٤-١٢٩٢	١٨٧٦-١٨٧٥	٣٩٩

٨- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن:

منهل اللطائف في أكل الكنافة والقطائف، مخطوطة ضمن مجموعة مكتبة ليدن، مقامات السيوطي المقدمة نسخة مصورة لدى الباحثة.

٩- العمري، شهاب الدين احمد بن فضل الله:

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوطة أياصوفيا رقم ٤٣٩م، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت، المانيا الاتحادية نسخة مصورة لدى الباحثة.

١٠- مجهول:

الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية أو كتاب سيرة الملك الناصر، مخطوطة المتحف البريطاني، لندن رقم ٣٠٢٥، نسخة مصورة لدى الباحثة.

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة

* القرآن الكريم

** الكتاب المقدس

١- **ابن الأثير**، ابي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني.

الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨.

٢- **ابن اسباط**، حمزة بن أحمد بن عمر:

صدق الأخبار " تاريخ ابن اسباط" تحقيق عمر عبد السلام التدمري، جروس برس، لبنان، ط٢، ١٩٩٣.

٣- **أسامة بن منقذ**:

كتاب الاعتبار، تحرير فليب حتي، جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠.

٤- **الأسدي**، محمد بن خليل:

التيسير والإعتبار والتحرير والإختيار فيما يجب من حسن التصرف والإختيار، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي ط١، د.م، ١٩٦٨.

٥- **الاصطخري**، أبي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي:

مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧.

٦- **ابن أياس**، محمد بن أحمد:

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

٧- **ابن بطوطة**، ابو عبدالله محمد بن محمد بن ابراهيم اللواتي:

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٨- **البغدادي**، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق:

مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

٩- **البلاذري**، أبي الحسن:

فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

١٠- **البنداري**، الفتح بن علي:

سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩.

١١- **الجزري**، شمس الدين محمد بن ابراهيم:

حوادث الزمان (٦٩٤-٦٩٦هـ) تحقيق نعمان جبران، فرايبورغ، ١٩٨٧.

١٢- **ابن الجوزي**، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي:

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥١.

١٣- **الحنبلي**، أحمد بن ابراهيم:

شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، د.ن: د م، ١٩٧٩.

١٤- **الحنبلي**، أبو اليمن مجير الدين العليمي:

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣.

١٥- **ابن خرداذبة**، أبي القاسم عبيد الله:

المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧.

١٦- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد:

تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

١٧- **ابن خلكان**، أبي العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد:

وفيّات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

١٨- **الدواداري**، أبي بكر عبد الله بن أيبك:

كنز الدرر وجامع الغرر "الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب" تحقيق سعيد عاشور، دار احياء الكتب العربية، ١٩٧٢.

١٩- **الذهبي**، شمس الدين أبي عبد الله:

كتاب دول الإسلام، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، ط١، ١٣٣٧هـ.

٢٠- **ابن رجب**، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد:

الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٣.

٢١- **ابن رستة**، أبي علي أحمد بن عمر:

الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل ليدن، ١٨٩١.

٢٢- **السُبكي**، تاج الدين عبد الوهاب:

معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد النجار وآخرون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٤٨.

٢٣- **السخاوي**، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن:

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت،د.ت.
- التبر المسبوك في ذيل الملوك، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة،د.ت.

٢٤- **السمعاني**، أبي سعيد عبد الكريم محمد بن منصور التميمي:

الأنساب، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه عبد الرحمن اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد-الهند، ط٢، ١٩٦٢.

٢٥- **أبو شامة**، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي:

- الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهر الكوثري، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية،تحقيق أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢.

٢٦- **ابن شداد،** عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم:
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) تحقيق سامي الدّهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢.

٢٧- **ابن شاهين،** غرس الدين خليل الظاهري:
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس روايس، مطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤.

٢٨- **شيخ الربوة،** شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الدمشقي:
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في ليبزج، ١٩٢٣.

٢٩- **الصفدي،** صلاح الدين خليل بن أيبك:
الوافي بالوفيات، تحقيق احسان عباس، فرانز شتاينر فيسبادن، ط٢، ١٩٦٢.

٣٠- **الطبري،** ابي جعفر محمد بن جرير:
تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر للطباعة والنشر، د.م، ١٩٧٩.

٣١- **ابن طولون،** شمس الدين محمد:
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق د.ن.
- نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢.، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

٣٢- **ابن عبد الظاهر**، محي الدين:

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦.

٣٣- **ابن العربي**،

رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل، دراسة احسان عباس، مجلة أبحاث الجامعة الامريكية، ج٢،٣،٤، بيروت، ١٩٦٨.

٣٤- **العسقلاني**، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر:

أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، طبع بإعانة وزارة المعارف العالية الهندية تحت مراقبة د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٣٥- **ابن العماد الحنبلي**، أبي الفلاح عبد الحي:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٣٦- **العيدروسي**، محمي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله:

تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

٣٧- **العيني**، بدر الدين محمود:

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.

٣٨- **الغزي**، نجم الدين:

الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل جبور، نشره محمد محمد أمين، بيروت، د.ت.

٣٩- **أبو الفداء**، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر:

- تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه رينود وماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠.

- المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

٤٠- **ابن الفرات**، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم:

تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن الشمّاع، كلية الآداب، جامعة البصرة.

٤١- **أبي الفضائل**، محمد بن نظيف الحموي:

التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١.

٤٢- **ابن فضل الله العمري**، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى:

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى) تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الاسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٤٣- **ابن قاضي شهبة**، تقي الدين أبي بكر بن أحمد:

تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧.

٤٤- **ابن القاضي**، العباس أحمد بن محمد المكناسي:

درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، تونس، د.ت.

٤٥- **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود:

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.

٤٦- **القلقشندي**، أحمد بن علي:

صبح الأعشا في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٤٧- **ابن القلانسي**، أبي علي حمزة:

تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.

٤٨- **الكتبي**، محمد بن شاكر:

- عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر وآخرون، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠.
- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

٤٩- ابن كثير الدمشقي:

البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

٥٠- الكندي، أبي عمر محمد بن يوسف:

كتاب الولاة والقضاة، تهذيب رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.

٥١- ابن لقلق، كيرلس الثالث:

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشره انطون فاخر وازولد بورستر، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، القاهرة، ١٩٧٤.

٥٢- أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بت تغري بردي:

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للطباعة، القاهرة، د.ت.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور،تحقيق محمد كمال الدين، عالم الطتب، ط١، د.م، ١٩٩٠.

٥٣- ابن مماتي، الأسعد:

قوانين الدواوين، تحقيق عزيز عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١.

٥٤- مجهول:

تاريخ سلاطين المماليك، نشره زيتر ستين، ليدن، ج٧، ١٩١٩.

٥٥- المسعودي، أبو الحسن بن الحسين بن علي:

التنبيه والاشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١.

٥٦- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧.

٥٧- المقدسي، أبو محمود أحمد بن هلال:

مثير الغرام بفضائل القدس والشام، مكتبة الطاهر أخوان، يافا، د.ت.

٥٨- **المقريزي،** أحمد بن علي:

السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧.

- المقفى الكبير، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١.

٥٩- **مفضل بن أبي الفضائل:**

تاريخ سلاطين المماليك، ٦٥٨-٦٧٠هـ، نشره وليم بلوشيه، نسخة لدى الباحثة مصورة عن المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم م-٥١٦.

٦٠- **النابلسي،** عبد الغني اسماعيل:

- الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

- الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض عبد الحميد، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٨٩.

٦١- **ناصر خسرو،** أبي معين الدين ناصر خسرو:

رحلة ناصر خسرو المعروفة باسم سفر نامة، ترجمة أحمد خالد، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٩٣٨.

٦٢- **النعيمي،** محمد عبد القادر، ت ٩٧٨هـ:

الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

٦٣- **النويري،** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:

- نهاية الأرب في فنون الأدب

- الجزء الثامن والعشرون، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

- الجزء التاسع والعشرون، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

- الجزء الثلاثون، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

٦٤- **الهروي**، أبي الحسن علي بن أبي بكر:
الإشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٣.

٦٥- **الهمذاني**: رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير:
جامع التواريخ، ت فؤاد عبد المعطي، الصياد، بيروت، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٣.

٦٦- **ابن الوردي**، زين الدين عمر:
تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠.

٦٧- **ابن واصل**، جمال الدين محمد بن سالم:
مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيّال، دار احياء التراث القديم، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.

٦٨- **ياقوت الحموي**، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله:
- معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩.
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

٦٩- **اليونيني**، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد:
ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد- الهند، ط١، ١٩٥٤.

ثالثاً: المراجع العربية

١- احسان النمر:

تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة عمال المطابع التعاونية، نابلس، ط٢، ١٩٧٥.

٢- أحمد الحسن:

التقانة في فلسطين في القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، تحرير هادية دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٤.

٣- أحمد رمضان:

المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ١٩٧٧.

٤- أحمد سامح الخالدي:

أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٩٦٨.

٥- أحمد عبد الرزّاق:

البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

٦- أسعد منصور:

مرشد الطلاب الى جغرافية الكتاب المقدّس: د.ت، د.م.

٧- أندراوس كرشة يوغاركي أبيض:

الثمار الشهية من جغرافية المملكة العثمانية، المطبعة الوطنية، طرابلس-الشام، ١٩١٢.

٨- الياس بطيحش:

النباتات والصناعات الزيتية في غوطة دمشق، مكتبة جامعة دمشق.

٩- **خليل طوطح:**

جغرافية فلسطين، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣.

١٠- **زكي النقّاش:**

العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٤٦.

١١- **سامي الأحمد:**

تاريخ فلسطين القديم، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، ١٩٧٩.

١٢- **سعيد البيشاوي:**

- نابلس، الأوضاع السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية في عصر الحروب الصليبية، د.ن، عمان، ١٩٩١.
- الممتلكات الكنيسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٠.

١٣- **سعيد عاشور:**

الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، طبعة ثالثة، ١٩٧٨.

١٤- **سليمان خرابشة:**

نيابة طرابلس في العصر المملوكي، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام الجامعة الاردنية/ جامعة اليرموك. ١٩٩٣.

١٥- **سيد أحمد الناصري:**

تاريخ الامبراطورية الرومانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، د.ت.

١٦- **سيد قطب:**

في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

١٧- صبحي طوقان:

نابلس صفحات مجيدة من الثقافة والحضارة والكفاح، د.م،د.ن، ١٩٦٩.

١٨- طه ثلجي الطراونة:

مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

١٩- عبد الله عارف:

مدينة نابلس، دراسة اقليمية، دمشق، ١٩٦٤.

٢٠- عبد الحميد زايد:

القدس الخالدة، دار الكتب المصرية ١٩٧٤.

٢١- علي السيد:

القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٨٦.

٢٢- عبد العزيز الدوري:

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٥، ١٩٨٧.

٢٣- عبد المجيد عابدين:

دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل، دراسة ملحق بكتاب المقريزي: البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٦١.

٢٤- كامل العسلي:

بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، د.ن، عمان ١٩٩٢.

٢٥- كامل خالد الشامي:

جغرافية فلسطين، دراسة الأقاليم الطبيعية، جامعة سبها، ١٩٩١.

٢٦- محمد ابشرلي:

أوقات وأملاك المسلمين في فلسطين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول د.ت.

٢٧- **محمد سعيد القاسمي:**

قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات، دمشق، ط١، ١٩٨٨.

٢٨- **محمد شراب:**

معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٧.

٢٩- **محمد عيسى صالحية:**

الطب والأطباء في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، بيروت، ط١، ق٢، ١٩٩٠. من وثائق الحرم المقدسي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٥.

٣٠- **محمد قنديل:**

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

٣١- **محمد مؤنس:**

الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢.

٣٢- **محمد كردعلي:**

خطط الشام، بيروت ١٩٦٩-١٩٧٢.

٣٣- **محمود رزق سليم:**

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ١٩٥٥.

٣٤- **محمود العابدي:**

الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٧٣.

٣٥- **محمود علي خليل عطا الله:**

نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ، ١٩٨٦.

٣٦- مصطفى الدباغ:

- بلادنا فلسطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، د.م ١٩٧٣.

- القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة للطباعة والنشـر، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

٣٧- يوسف غوانمة:

- التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢.
- دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣.
- تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، ١٩٨٢.
- إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢.

رابعاً: المصادر الأصلية والمعرّبة

1- **Anonymus**:

Anonymus pilgrims, Tr. from the original Latin by Aubrey Stewart, London 1897.

2- **Fetllus:**

Description of Jerusalem and the Holy land in P.P.T.S Vol,V London 1892.

3- **Genevieve,B.B:**

Le cartulaire du chaptire des Saint-Sepulcre de Jerusalem, Paris 1984.

٤- برتراندون دي لابروكير:

رحلة برتراندون الى فلسطين، ترجمة محمود زايد، مجلة ابحاث الجامعة الأمريكية ع٣،بيروت،١٩٦٢.

٥- بورشارد من جبل صهيون:

وصف الأراضي المقدسة،ترجمة سعيد بيشاوي، دار الشرق، عمان، ط١،١٩٩٥.

٦- جوانفيل:

مذكرات جوانفيل (القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام) ترجمة حسن حبشي،دار المعرفة مصر،ط١،١٩٦٨

٧- دانيال الراهب:

رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب،ترجمة سعيد بيشاوي،د.ن،عمان ط١، ١٩٩٢.

٨- فوشية الشارتري:

تاريخ الحملة الى القدس،ترجمة زياد العسلي، دار الشروق عمان،ط١،١٩٩٠.

٩- مجهول:

اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس،ترجمة حسن حبشي،دار الفكر العربي.د.م ١٩٥٨.

١٠-وليم الصوري:

تاريخ الحروب الصليبية والاعمال المنجزه فيما وراء البحار،ترجمة سهيل زكار دار الفكر،دمشق،ط١، ١٩٩٠

خامساً: المراجع الأجنبية والمعربة

1- **Benevenisti, Meron:**

The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem 1976.

2- **Beyer, G.:**

Neapolis und Sein Gbiet in der Kreuzfahretzeit in Z.D.P.V. L XII 1940.

3- **Cohen - Lewis,**

Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton 1968.

4- **Conder, C.R.,**

The Latin Kingdom of Jerusalem, 1099-1291, London 1897.

5- **Evliya Tshelbis:**

Travels in Palestine, the Quarterly of the Dept. of Antiquities in Palestine Vol IX.

6- **Enlart, C.**

Les Monuments des Croises dans Le Royaume de Jerusalem Paris 1928.

7 **Hutteroth, W.D and K. Abdalfattah,**

Historical Geography of Palestine, Transjordan and southern Syria in the late 16th Century, Erlangen 1977.

8- **La Monte, L.**

The Viscounts of Naplouse: The Viscounts of Naplouse in the Twelfth Century dans Syria 1938.

9- **Rey, E. G**

Les Colonies Franques en Syrie, aux XII et XIII siecles Paris 1883.

10- **Richard, J:**

- *The Latin Kingdom of Jerusalem*, Amsterdam 1979.
- *Agricultural Conditions in the Crusader States*, in setton Vol 5 USA 1985.

١١- ايرامارفين لابيدوس:

مدن الشام في العصر المملوكي،ترجمة سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق،ط١، ١٩٨٥.

١٢- بولياك أ.ن:

الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ترجمة عاطف كرم، منشورات دار الكشوف، بيروت، ط،١٩٤٨.

١٣- جورج بوست:

قاموس الكتاب المقدس، بيروت،١٨٩٤.

١٤- جونز أ.هـ:

مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس،دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١ ١٩٧٨.

١٥- ستيفن رنسيمان:

تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة الباز العريني، دار الثقافة، بيروت،ط٢، ١٩٨١.

١٦- فالتر هنس:

المكاييل والاوزان الأسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠.

١٧-ك.أ. ماير

الملابس المملوكية،ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٢.

١٨-هيتروث:

التقلبات في كثافة الأستيطان وحدوده في فلسطين وشـرقي الاردن منـذ القـرن السـادس عشر ضمن كتاب (دراسات جغرافية المانيه حول الشرق الاوسط)، تح ايوجين فـرت، ترجمة فؤاد أبرهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،د.م،د.ت.

سادساً: الدوريات العربية

١- أسامة زكي زيد:

الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الاسلامي في عصر بني أيوب، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مطبعة جامعة الاسكندرية م٣، ١٩٨٤.

٢- جورجي زيدان:

فلسطين تاريخها وآثارها، مجلة الهلال، السنة ٢٢، ج٤، اكتوبر ١٩١٣-١٩١٤.

٣- سعيد عاشور:

المجتمع الاسلامي في عصر الحروب الصليبية، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، ١٩٧٤، عمان ١٩٨٠.

٤- علي حيدر:

سلاطين العصر المملوكي الأول واجبهم الاجتماعي والديني ورأي الفقهاء والمؤرخين فيهم، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، مجلد ٤، عدد١، ١٩٩٢.

٥- قاسم عبدة قاسم:

عصر سلاطين المماليك، مجلة العربي، عدد ٣٧٩، الكويت ١٩٩٠.

٦- كامل العسلي:

نقوش نابلس والخليل، حولية دائرة الآثار العامة، مجلد ٣٦، عمان، ١٩٩٢.

٧- محمد عدنان البخيت:

نابلس ونواحيها في القرن السادس عشر على ضوء الوقتيات التي تحتفظ بها سجلات الدولة العثمانية، مجلة المنارة، مجلد الأول، جامعة آل البيت، ١٩٩٦.

٨- محمد عيسى صالحية:

ظاهرة الطرح والرمي في الإقتصاد المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد ٩، عدد ٤، ١٩٩٣.

٩- محمود زايد:

دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين، المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة برتراندون، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، جغرافية فلسطين وحضارتها، ط٢، ١٩٨٣.

١٠- وائل أبو صالح:

الحمامات العامة في مدينة نابلس، مجلة النجاح للأبحاث، العدد الأول، حزيران ١٩٨٣.

١١- يوسف غوانمة:

الطاعون والجفاف وأثرها على البيئة في بلاد الشام في العصر المملوكي، مجلة دراسات تاريخية، ع١٣ ١٤ دمشق، ١٩٨٣.

ملخص الدراسة

نابلس في العصر المملوكي

٦٤٨-٩٢٣هـ (١٢٥٠-١٥١٧م)

اعداد

رئيسة عبد الفتاح طلب العزة

ماجستير تاريخ- جامعة اليرموك

١٤١٦هـ (١٩٩٥م)

اشراف

الدكتور سليمان خرابشة

جاءت هذه الدراسة في خمسة فصول وخاتمة سبقت بعرض لأهم مصادر الدراسة وقد خصص الفصل الاول للحديث عن جغرافية نابلس حيث تناولت ضبط التسمية وتسميات المدينة عبر التاريخ ثم الموقع والمناخ ومصادر المياه. وحدود الولاية وتبعيتها الإدارية ثم تعاقب الدول عليها حتى بداية الغزو الفرنجي.

وتناولت في الفصل الثاني الحياة الإجتماعية في المجتمع النابلسي مستعرضاً فئات السكان العرقية والدينية واللغة التي سادت فيما بينهم، ثم تناولت أقسام السكان من حيث نمط المعيشة، ثم طبقات المجتمع النابلسي ثم تناولت الناحية الديموغرافية في الولاية وما تعرضت له من اختلالات ثم مظاهر الحياة الإجتماعية في نابلس من حيث العادات والتقاليد، والألبسة والاحتفالات واخيراً تناولت اثر الكوارث الطبيعية والأحداث السياسية على السكان.

اما الفصل الثالث فقد خصص للحديث عن الحياة السياسية في ولاية نابلس مشيراً إلى تطورات الأحداث السياسية في الفترة الأيوبية باعتبارها وثيقة الصلة بالفترة المملوكية ثم تناولت الصراع الذي دار بين الأيوبين والمماليك في السيطرة على الشام وموقع نابلس من هذا الصراع ثم استعرضت تطور الأحداث السياسية في نابلس في ظل المماليك مشيراً إلى آثار العشير

والعربان في الأحداث السياسية في نابلس وختمت الفصل بالحديث عن الصراع بين المماليك والعثمانيين وتمكن العثمانيين من بسط سيطرتهم على الشام ومن ضمها نابلس ثم على مصر.

وتحدث الباحث في الفصل الرابع عن الحياة الإقتصادية في ولاية نابلس في العصر المملوكي حيث أشرت إلى انماط ملكية الارض في الولاية ثم تناولت بالحديث الإنتاج الزراعي في نابلس ثم الإنتاج الصناعي والنشاط التجاري، كما أشرت إلى الضرائب التي فرضها المماليك على السكان ثم تناولت الأزمات الإقتصادية التي المت بالدولة بصفة عامة وعوامل الأزمات وما عانته نابلس من جرّاء تلك الأزمات.

أما الفصل الخامس فقد خصصته للحديث عن الحياة العلمية والعمرانية في ولاية نابلس في العصر المملوكي حيث تناولت فيه النشاط العلمي في نابلس مناقشاً ضعف اهتمام الدولة بهذه الناحية بدليل قلة الإهتمام بانشاء المؤسسات التعليمية.

ثم أشرت إلى أهم الأسر العلمية التي خرجت من نابلس، بعد ذلك أشرت إلى المؤسسات التعليمية من مدارس ومساجد وزوايا وبيمارستانات ثم عرّضت على أنواع التعليم وطبيعته في الدولة المملوكية، ثم ترجمت لأشهر علماء نابلس في حقل العلوم الدينية واللغوية والعقلية.

أما الحياة العمرانية فتناولت فيه أهم المنشآت العمرانية التي بقيت في نابلس من العصر المملوكي مشيراً الى الجوامع والمنازل والحمامات العامة.

Abstract

NAPLUS AT THE MAMLUKY AGE

648-923 Hijri (1250-1517)

Prepared By

Ra'iseh Abdul-Fattah Talab Al-Azzeh

Master of History - Yarmouk Univ.

1416 H (1995)

Supervisor

Dr. Suleiman Kharabsheh

This study came in five chapters and a conclusion preceeded by a presentation of the most important sources used for this study. The researcher specialises the **First Chapter** to talk about the **Geography of Naplus**; the correction of the name and the names given to the city through out History; the location; climate; water sources; the borders of the province (Vilayet), and governed by whom, then the continuous invasions for this city.

In the **Second Chapter** the researcher talked about the **Social life in Naplusy community,** presenting the roots of the inhabitants and their religious beliefs and the language prevailed among them, then I talked about the inhabitants regarding the way they live and their social classes. After that I talked about the demography and the confusions it has suffered, then the social life appearances regarding traditions; customs; clothes and celebrations and finally, I talked about the effects of the natural catastrophies and the political events upon its' people.

The Third Chapter, is specialised to talk about the **Political life in Naplus**, presenting the development of the political events at the Ayouby period that it is well related to the Mamluky. Then I talked about the conflict between Ayouby and Mamluky to rule over Al-Sham and the location of Naplus in this conflict. Then I showed the raise of the political events in Naplus at the Mamluks showing the bedwens' role in these events, at the end of the chapter, I talked about the conflict between the Mamluks and Ottomen and the latters from ruling over Al-Sham containing Naplus then Egypt.

The researcher in **Chapter Four** talked about the **Economic life of Naplus at the Mamluky Age,** that I showed ways of owning the lands, then I talked about the agricultural; industrial and commercial produce and taxes that the Mamluks obliged the inhabitants to pay, then I talked about the commercial crises in the country and its reasons.

The **Five Chapter** specialises to talk about the **Scientific and Construction life in Naplus** at the Mamluky Age. I showed the Scientific livelines in Naplus discussing the carelesness of the country regarding this field. Then I talked about the families that produced many scientists; the educational establishments; the stages and types of education. After that I talked about the famous learned people in science; linguistics and religion in Naplus.

As for the construction, I talked about the most important places that is kept since the Mamlouky like Mosques, houses and general showers.